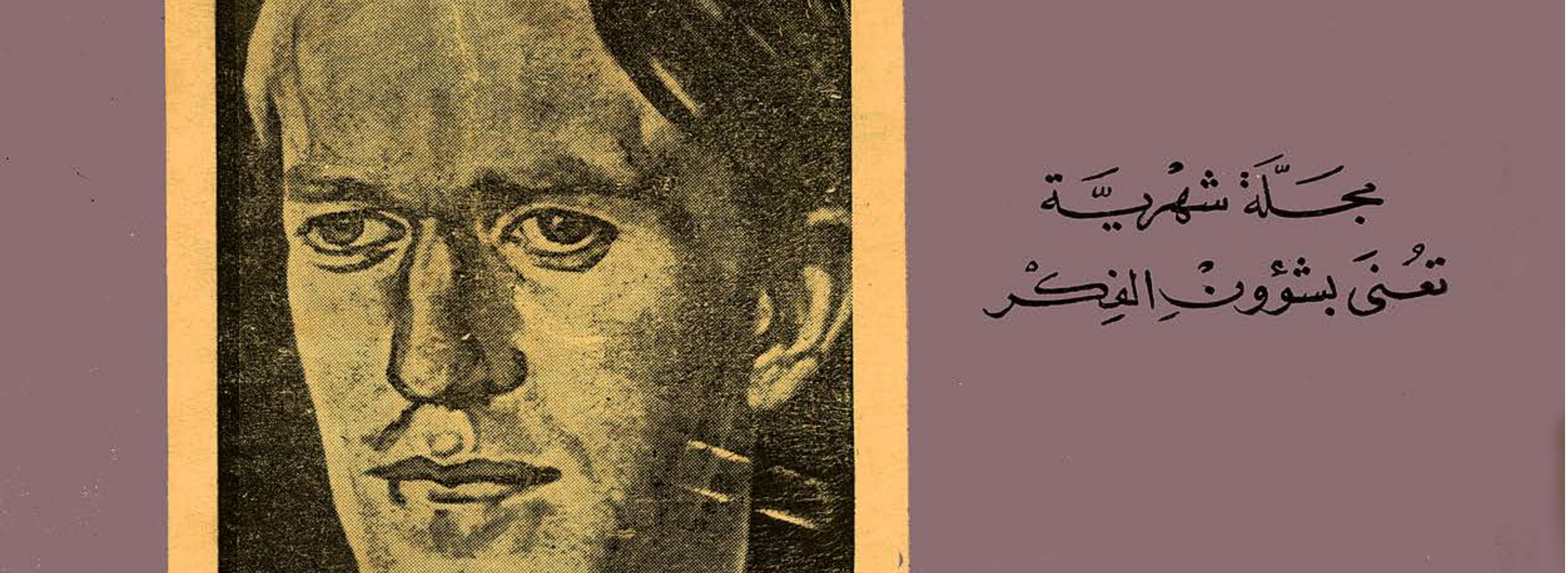
الآداب



الكولونيل لورانس

إقرأ المقال ص ٤١

مجلة شهرية
تعنى بشؤون الفكر



العدد الحادي عشر
السنة الثالثة

تشرين الثاني (نوفمبر)
١٩٥٥

أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

العدد الحادي عشر
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥
السنة الثالثة

ص. ب ١٠٨٥ - تلفون ٢٤٥٠٢

No. 11 - Novembre 1955
3ème Année

AL-ADAB *REVUE MENSUELLE CULTURELLE*
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél. 24502

Redacteur en chef : SOUHEIL IDRISS
Directeur : BAHIJ OSMAN

قضية القومية العربية

مشكلة وحلاً وأسلوباً

بقلم : سعدون حمادي

١

نقطة الانطلاق في هذا البحث حقيقة لا يصعب اثباتها ، هي ان القومية العربية اليوم بحاجة الى نظرية شاملة في الحياة لم توضع بعد ، رغم ما كتب وقيل خلال نصف قرن من الزمان . صحيح ان القومية العربية كروح قد فتحت براعم يقظة عظيمة في الوجدان ، وخلقت هذا التحفز الملموس لحياة افضل ؛ وصحيح كذلك اننا قد رأينا خلل الرماد وميض فكر اصيل حاول الغوص على المشكلة وحلها ، ولكن الذي لا ريبة فيه ان هذه الروح لم تعبر بعد عن نفسها بنظرية كاملة محكمة البناء تكتشف الطريق الصحيح للنهضة القومية . فالعمل الايجابي المباشر هو الذي يستطيع تبديل واقعنا الفاسد بحياة سليمة صاعدة ؛ ولكن ذلك يستلزم فكراً نشيطاً يكتشف قوانين الحياة ومنطق الواقع المتشابك ليحول الحركة العمياء الى عمل منظم يقوده الوعي . فلواقعنا الفاسد منطق يسيطر على جريان الحياة فيه ، وقوى مادية تنتج نوعاً معيناً من الظواهر تحدده الاسس التي يرتكز عليها المجتمع . ويعني ذلك ان المجتمع العربي في وضعه الحاضر مشكلة معينة ذات ملامح وحدود ، وحلها لا يكون الا بطريق معين واحد ، اذ من الخطأ تصور الواقع ككومة من هشيم الصفيح لا يشد القطعة منها بالاخرى اي رباط ، وتتداعى اذا سحبت منها اي يد اية قطعة من اي موضع . فضعف الفكر عندنا هو الذي حجب مبدأ اساسياً في علم الاجتماع ، وهو ان المجتمع يسير وفق نظام ، صحيحاً كان او معتلاً . اذن ، ففي اطار ظروف معينة ، لا يمكن ان يكون للنهضة الا طريق واحد معيّن ، هو هذا وليس ذاك . وان دور الفكر هو اكتشاف الحل الوحيد الذي تتطلبه المشكلة ، والا بقيت الروح القومية عمياء لا يعصمها الاخلاص والتضحية من ان يكون صاحبها كناطح صخرة . وحديثي هذا محاولة اولية لمناقشة بعض الاسس النظرية للعمل القومي .

٢

كلنا متفق على وجود مشكلة يعانيها مجتمعنا العربي الحاضر فتحت فجوة واسعة بين ما هو كائن وما يجب ان يكون . ويدل على الاتفاق هذه الشكوى الاجتماعية والتذمر الشامل الذي تعكسه الصحافة والادب والفن وتدل عليه الثورات والاضطرابات . ولكننا ، ونحن المجمعون على وجود المشكلة ، لسنا متأكدين من مصدرها . فتباين الاساليب وحتى الاهداف عند العاملين في الحقل القومي يدل على اختلاف جوهري في فهم طبيعة المشكلة . ويهمني في هذا المجال ان اتناول اتجاهاً قوامه روافد متباينة في اهدافها ، ولكنها مجتمعة في اطار فكري واحد .

يحدد هذا الاتجاه مشكلة المجتمع العربي بأنها تخلف عن نموذج حضاري تحقق في اقطار معينة في العالم . فهنالك حضارة الديمقراطية الرأسمالية التي تمثلها امريكا ، وهناك الاشتراكية الدكتاتورية التي يمثلها الاتحاد السوفيتي ، واخيراً هناك الدولة القومية التي حققتها النهضة الالمانية والنهضة الايطالية . كل هذه النماذج المتباينة قد انعكست مدارسها الفكرية في مجتمعنا الضعيف المناعة ، الباحث عن طريق النهضة . وهذا الاتجاه الذي يجد تعريف المشكلة سهلاً بسيطاً – نظراً لوجود مقياس ملموس جاهز للرقي يستمده من احوال تلك المجتمعات – يقدم حلاً بسيطاً لا يتطلب غير معرفة تاريخية لتطور تلك المجتمعات للأخذ بأساليبها واتباع خطواتها .

ونحن اذا ما فحصنا بنية هذا الاتجاه ، وجدنا ان تسلسله المنطقي يحتم استناده على فرضيات يتخذها قاعدة الانطلاق .

هناك الافتراض بان التطور البشري يسير حسب قانون طبيعي ازلي قرر

مصير السابق وسيقرر مصير اللاحق ، بفعل حركة مستمرة معروفة النتائج. وفكرة القانون الطبيعي هذه مركزية في هذا الاتجاه رغم اختلاف مدارسه على المصدر. فالديمقراطية الرأسمالية ترى بان الحتمية في التطور وليدة الطبيعة البشرية الثابتة في كل زمان ومكان . فللفرد خصائص فطرية جوهرية تحدد سلوكه، وبالتالي نوع المجتمع الذي يعيش فيه . والانسان بطبيعته مدفوع للمحافظة على النفس والسعي لنفعه الخاص ، والانسان كذلك عاقل يفضل الكثير على القليل والحسن على الرديء ، لذلك فافضل سبيل للتقدم هو تحرير الفرد من الحواجز الاصطناعية ليستطيع التصرف حسب ما تمليه عليه طبيعته ، اي ان يخضع للقانون الطبيعي . وعلى ذلك فأفضل وسيلة للاعمار الاقتصادي مثلاً : هي الملكية الخاصة وحرية العمل والتجارة والمنافسة بين الافراد . والحتمية في التاريخ واضحة المعالم في الفكر الماركسي الذي يقرر بان مصدر القانون الطبيعي هو حركة المادة بنطاق خارج عن كيان الفرد . فالمادة في حركة دائمة حسب نظام تناقضي يسيّر المجتمع ، وحركتها الازلية هي التي تمد عملية التهديم والبناء بالوقود حتى يتحقق الوضع المثالي . ويعترض هذا الاتجاه ايضاً بأن الفوارق بين المجتمعات ليست بذات مفعول جوهري في تحديد نوعية التطور ، لانها أما عرضية موقتة ستطحنها عجلة التطور ، وإما دائمية ليست بذات مفعول لانها سطحية لا تمس جوهر الانسان الثابت في كل زمان ومكان . إن العالم كوحدة قوامها افراد هو موضوع البحث لا الامة .

هذا هو التخطيط العام لهذا الاتجاه. ومركز الثقل في الموضوع هو انه ينكر خصوصية المشكلة في المجتمع العربي . وبتعبير آخر انه ينكر التجربة الخاصة للامة العربية ، لذلك فهو لا يرى ضيراً باقتباس الحل من اوضاع مجتمعات اخرى .

هذا الاتجاه الذي ارى غيره ، قد ثبته في المطلع ليساعد - بالمقارنة - على توضيح الخط الذي سترسمه الملاحظات التي يدور حولها البحث . اما ردي عليه فسيكون متضمناً لا مستقلاً .

٣

لنبدأ اولاً بتحديد المشكلة كقاعدة للارتكاز . السؤال الاول المنتظر في هذا الصدد هو : ما هي هذه المشكلة القائمة التي يشكو منها الجميع ؟ ما هو تعريفها ؟

ان التعريف العام الذي اقدمه كجواب للسؤال هو ما يلي : مشكلة المجتمع العربي تأخر شامل عميق في حياة الشعب، تراكم خلال الزمن الممتد بين بداية الانحدار في الحضارة العربية ونقطة الحاضر . لقد قلبت النهضة العربية في ظل الاسلام أعماق المجتمع الجاهلي روحاً وفكراً عن طريق قلب اعماق الفرد . ولم تكن تلك الحضارة الضخمة الا نتيجة لتوفر المجتمع القومي السليم الذي اتاح لامكانيات الفرد ان تتفجر والذي دام حتى اواخر العهد الاموي . ولكن الفتح والتوسع - اذ ادخل في اطار الدولة العربية شعوباً عديدة مختلفة - قد فكك ذلك المجتمع واضاع عليه استقلاله وانسجامه ، فدخلت المجتمع العربي تيارات فكرية غريبة ادت الى اضعاف قوة الدفع في النهضة، اي الروح العربية التي حركها الاسلام . لذلك فأنا من الذين يرون في العصر العباسي عصر ضعف وانحلال رغم ان الحضارة العربية قد اعطت ثمارها فيه . فالحضارة العربية قد بذرت بذورها في الفترة الواقعة بين ظهور الاسلام واواخر العهد الاموي . والضعف الذي بذره تفكك الكيان القومي في العهد العباسي قد اعطى ثماره في الهزيع الاخير الذي انهارت به الدولة على يد المغول ، والفترة المظلمة التي اعقبت ذلك . وللمثال نورد اثر الشعوبية في تشويه روح الاسلام بما حقنت فيه من امصال وثنية ومجوسية ، لا تزال آثارها باقية حتى الان في طقوس بعض الفرق الاسلامية وعاداتها . ان بداية الانحدار هي فقدان المجتمع القومي ، نتيجة للفتح . وبطريقة متسلسلة مترابطة، ادى هذا الضعف الى ضعف اكبر، وهذا الى اكبر منه ، وهكذا انحدر المجتمع العربي بحركة حلزونية ،ينتج الجهل فيها مزيداً من الجهل ، والفقر مزيداً من الفقر بشكل مشابه لحركة الدورة التجارية التي تهبط بالاقتصاد الرأسمالي من قمة الرخاء الى قعر الازمة . وبالرغم من كون المحرك الاول للموجات المتتابعة من الفساد خارجياً - بمعنى انه لم يبدأ في الفرد بل بسبب فقدان المجتمع القومي - فهو ، بمرور الزمن ، قد نفذ الى الاعماق . اي ان الفساد الذي انتاب نظام المجتمع الاطار الذي ينتظم فيه نشاط الافراد - قد توسع وتركز حتى تسرب الى الفرد ذاته ؛ وذلك لان المجتمع العربي ، كأي مجتمع آخر ، وحدة متشابكة لا يمكن منع المرض في جزء منه من الانتقال الى الاجزاء الاخرى في الامد الطويل ؛ والمرض الواحد فيه يسبب امراضاً اخرى اشد واقوى على الانتقال الى اجزاء الجسم الاخرى والتسرب من الجلد الى القلب. وتقرر خاصية استمرارية الحياة في المجتمع بأن فساد الحاضر مركب ترشح من ظروف قديمة وحديثة . إن فساد المجتمع العربي الحاضر شامل وعميق، فهو لا يقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة ولا ينحصر في النظم والقوانين . ان مصدر الفساد اعتلال اصاب نفسية الفرد .

اما الخطوة التالية في البحث ، فهي الاجابة على هذا السؤال : اذا كانت مشكلة المجتمع العربي الحاضر فساداً انتاب الفرد ، فما هي معالم هذا الفساد ؟ ما هي معالم الضعف في شخصية الفرد العربي اليوم ؟ فيما يلي توضيح عام لبعض هذه المعالم .

هناك اولاً الانانية المتمثلة في التكالب على نفع الذات ، مهما كانت الوسائل والنتائج، فالفرد في مجتمعنا بصورة عامة يعاني من هذا النزوع لجمع النفع لنفسه ، ولو اتى ذلك بطريق غير مشروع اخلاقياً وعلى حساب مصلحة المجموع ، الامر الذي تدل عليه ليس فقط حالات الاستغلال والخيانة الكبرى ، بل تفاصيل السلوك الصغيرة التي لو فحصت بدقة لتكشفت عن هذه النزعة . ان بعض ما نقوله من الخطب والتعليقات والانتقادات في اجتماع ما ، لا تبرره المناسبة ولا يسنده القصد النزيه للاصلاح ، بل يكمن وراءه التشفي من زيد للتمتع بلذة الانتصار عليه ، او التدليل على الاخلاص والحرص على الديموقراطية او اظهار البلاغة في اللغة. وهذا الشيء الذي يسمى احياناً بالمجاملة ، لو ازلنا عنه القشور لهبت منه رائحة نفع الذات . فالابتسام لكل شيء ، قبيحاً كان ام جميلاً ، وعدم الاعتراض على اي رأي ، خطأً كان ام صواباً ، وعدم انتقاد اي شخص ، مقصراً كان ام مخلصاً ، سلوك ليس وراءه غير نفع الذات عن طريق نيل رضاء الجميع واحترامهم لكسب مادي او معنوي يرجى منهم او لتجنب اذاهم . هذا ما يريده الفرد ، في حين ان ما تريده المصلحة العامة الآن هو فصل الخيط الابيض عن الاسود ، وتحمل الاذى الناتج عن ذلك . ويصح الحال هذا في كثير من مجالات حياتنا إن لم يكن فيها كلها ،في البيت والوظيفة والتلمذة والجمعية والمهنة والعلاقات الاجتماعية ، وحتى اللهو واختيار مقعد الجلوس في السيارة وتوزيع الطعام في نزهة . وتتوضح خطورة هذا الضعف اذا ما عرفنا بان النهضة العربية في ظروفها الحاضرة تتطلب جيلاً يحرق نفعه الخاص ليحرك عجلاتها الى الامام ، وان بدايتها تتطلب ان يغذيها الفرد دون ان تغذيه .

والفرد كذلك ضعيف الانتاج ، عاجز عن تحقيق طموحه للعظائم بجهده الخاص، فهو إما ان يحتال عليها او ان يسخر لها الغير. وكثيراً ما يحاول التعويض عن هذا الجدب بالكلام، فيخلق حوله عالماً مستقلاً من الادعاء الذي لا يسنده

عمل ايجابي ، حتى لقد اصبح الكلام فناً للتغطية وتعليل النفس ، لا وسيلة اخبار عن حركة الارادة . هذا هو تعليل وجود من يمنح المن والسلوى للجميع ، وينصر الحق والخير بواسطة اللسان ، ولا يعطي الدرهم من ماله ولا الساعة من وقته في سبيل قضية حق وخير . وهذا هو تعليل كون معظم الاحزاب في الوطن العربي متشابهة البرامج من حيث تأكيدها للحرية والاستقلال والعدل مع انها في الواقع مختلفة جوهرياً في صدقها وجديتها ونشاطها لتحقيق تلك المباديء .

ويتوضح ضعف الشخصية كذلك في الرضوخ للشائع المتعارف عليه ولو كان مخطوءاً ومضراً . فالمدرسة هي المكان الوحيد الذي يثور فيه الفرد على الواقع فيتخيل ويزبد ويرعد ، ولكنه سرعان ما يهفت وينسجم مع الواقع الفاسد ويصبح جزءاً منه عندما يترك المدرسة بدلاً من ان ينفصل عنه ويكون نواة المعسكر الجديد . هو نفسه ذلك الثائر عندما كانت الثورة سهلة لا تكلف شيئاً ، تراه اليوم يدور بعجلة الفساد ، واذا ما عابه على فعلته احد ، ربت على كتفه متصنعاً الحكمة وقال : «لم تصطدم بالواقع يا بني بعد ! »

ويدل على ضعف الشخصية في التحقيق التقليد في شتى نواحي الحياة ، فالفرد يهاب التبديل ويكره المغامرة ، ويفضل القليل الرديء ان كان مضموناً ، على الكثير الحسن ان كان محفوفاً ببعض الخطر . ان في حياتنا الاقتصادية اساليب وادوات في الري والحراثة والتسميد والبذر والحصاد والتكثير لم يمسها التغيير منذ مئات السنين ، بالرغم من ان اساليب وادوات اكثر نفعاً قد ثبت تفوقها على القديمة وانتشر استعمالها .

ويصح ذلك على العقلية السحرية النافرة من العلم ، فهي مظهر من مظاهر الضعف الذي يدفع للهروب من عالم العمل الجدي الى آخر تتحقق فيه العظائم بالنفخ والاشارات .

ويمكن ان يقال عن شخصية الفرد العربي اليوم بأنها مرتبكة حائرة في وقت يتطلب الحسم والتقرير في امور حياتية اساسية . ان العربي اليوم يكاد لا يعرف الهدف والوسيلة للنهضة الا بصورة عامة يعوزها الكثير من الدقة والتفصيل بسبب ضعف الفكر بصورة عامة . ومما يدل على قلق الفرد وارتباكه التغييرات العقائدية التي شهدناها منذ بداية هذا القرن، تطفى الموجة الواحدة منها مدة من الزمن، ثم تتلاشى لتحل محلها أخرى تختلف عنها وهكذا . وكثيراً ما تروج العقائد السياسية وتكسد عندنا تبعاً للموقف الدولي ، كما حدث فعلاً في فترتي ما قبل وبعد الحرب العالمية الاخيرة .

هذه بعض نقاط الضعف في شخصية الفرد العربي ؛ ولست انوي تقديم بحث دقيق مفصل في هذا الموضوع القائم بذاته والذي لا تسمح به حدود هذا البحث .

وإذن ، فان المشكلة القائمة الآن تتمثل في ضعف الفرد روحاً وفكراً ، لا في التخلف عن نموذج حضاري تحقق في مجتمع آخر . وارتكازاً على هذه النتيجة يمكننا ان نقرر مايلي :

اولاً – **إن مشكلة المجتمع العربي قومية لانها نابعة من تجربته الخاصة** . إن الانسان يشارك الانسان الآخر في امور عامة ومسائل فيزياوية ، ولكن العيش كفرد من افراد امة يطبعه بطابع خاص فريد مغاير لطابع فرد ينتمي إلى امة اخرى . إن العالم مجموعة امم لا مجموعة افراد . وللامة العربية تجربتها الخاصة في الحياة، فمشكلتها الحاضرة ليست إلا عصارة اوضاعها خلال تاريخ طويل يمتد حتى نقطة الحاضر ، وما صح على غيرها لا يشترط ان يصح عليها .

اما انقسام العالم الى مجموعات تضم الواحدة منها عدة أمم

فظاهرة يجب ألا يبنى عليها أثقل مما تطيق قواعدها. فالمعسكر الديمقراطي الرأسمالي قد أخذ اسمه من الصحافة ومقتضيات السياسة، فالاسم المشترك لا يعني وجود نظام ديمقراطي رأسمالي تعيشه بالتساوي كل الامم الداخلة في المعسكر. الحقيقة هي ان نعت الرأسمالية يصح على هذه الدول ان اخذت الرأسمالية كمجموعة مبادىء نظرية مجردة كالملكية الخاصة وحرية التجارة، ولكن الواقع يدل على ان اوضاع هذه الامم قد قولبت هذه المبادىء واعطتها معاني مختلفة، فاقتصاد بريطانيا يختلف عن اقتصاد امريكا في بنائه ومشاكله وحاجاته وتطوره. والديمقراطية تختلف من بلد لآخر ضمن هذه المجموعة، فلا الديمقراطية الفرنسية مطابقة للديمقراطية الاميريكية ولا هذه مطابقة للديمقراطية الانكليزية.

ولا يخلو المعسكر الشرقي من ظاهرة الاختلاف هذه، فالدراسات الحديثة عن الصين الشيوعية تدل على اختلاف لا يمكن اغفاله في نظامها السياسي والاقتصادي عن النظم السائدة في الاتحاد السوفيتي. وكذلك لا يمكن ان ننسى أن الصين الشيوعية النظام، قد كونت كياناً خاصاً بها ولم تندمج في دولة الجمهوريات السوفياتية. ويمكننا ان نعتبر انفصال يوغوسلافيا عن المعسكر دليلًا آخر على عمق الاختلاف بين الامم الداخلة فيه.

هكذا ارى الاتجاه الذي يحدد المشكلة على انها تخلف عن نموذج حضاري اجنبي خاطئاً في التشخيص. **ان مشكلتنا قومية وليست عالمية.**

ثانياً – يتعلق هذا القرار بالفصل في معنى قومية المشكلة بعد ان فرغنا من البت بأمر عالميتها. **ان المشكلة في الشعب وليست في النظم والقوانين.**

هناك فئات في حقل العمل القومي تركز اهتمامها في النظم التي يسير عليها اطار المجتمع العربي، فترى في فساد هذه النظم رأس الداء. هناك مثلًا من يرى في تجزئة البلاد العربية الى دويلات متعددة ضعيفة، المشكلة الاولى التي يجب حلّها، وآخرون يرون في النفوذ الاجنبي المعضلة الكبرى، وفئة اخرى تراها في النظم السياسية المحلية كالدساتير وقوانين الانتخاب والمطبوعات والأحزاب، ورابعة تؤكد انها في النظام الاقتصادي.

واري في اعتبار فساد النظم رأساً للداء طريقة في الفهم تضع النتيجة مكان السبب. ان النظام جهاز لتنظيم نشاط المجتمع تقرر حالة الشعب نوعيته ودرجة صلاحه او فساده. انه يعكس المرحلة التي وصلها المجتمع في الرقي او التدهور لا العكس. ولتلافي سوء الفهم، اراني مضطراً لتثبيت هذا الايضاح: ان القول بان فساد النظم نتيجة لا سبب للمشكلة لا يعني ضمناً بأن الاستعمار والاقطاع مثلًا لا نصيب لهما في تكوين المشكلة، لذلك لا لزوم لمقاومتهما، فنتيجة كهذه لا يمكن الوصول اليها منطقياً بمجرد رفض اعتبار فساد النظم سبباً للمشكلة. لقد اثبتت النتائج التي توصل اليها علم الاجتماع وتطور الحضارات أن بين الفرد ونظام المجتمع تقابلًا في التأثير. لقد بنى الافراد المجتمع وصاغوا انظمته، ولكن النظام الذي يكونه الافراد يخلق جواً واوضاعاً معينة تؤثر في الافراد انفسهم، فالنظام الاقتصادي الظالم مثلًا يمنع الكثيرين من ان يكونوا شيئاً في الحياة، والاستعمار الذي يفسد النظام السياسي ويسمم ثقافة الامة مساهم كبير في عرقلة نهضتها.

وإذن، فان النظم الفاسدة الحالية تغذي الواقع الفاسد، ولكن الفساد الاجتماعي العميق خالق لها.

هذه هي المشكلة : مصدرها وخصائصها . اما السؤال الرئيسي الآن فهو : ما الطريق لحلها ؟ **ماذا يجب ان يحدث في المجتمع العربي ليصبح سليماً صاعداً .**

من بديهيات علم الطب ان طبيعة الداء تعيّن الدواء، فكما ان الخدش في الابهام لا يستدعي عملية جراحية في الاحشاء، كذلك اعتلال في الجهاز التنفسي او الهضمي لا يبرئه تدليك الجلد بمحلول اليود . اذا كانت المشكلة عميقة وشاملة الى حد عكرت به صفاء النفس العربية وغطت جوهرها بالقشور، فما هو الحل الذي يناسبها ؟ انه بنظري **انقلاب جذري** يبدأ بهذه النفس التي تعكر صفاؤها وتغطى جوهرها بالقشور . انه اهتزاز عنيف في نفسية الفرد يطرح عنها الادران والقشور، يقتلع منها الانانية والضعف والارتباك ويحيلها سامية جريئة مبدعة متفائلة . انه انقلاب روحي ينبه الوجدان ويفجر الفضيلة ويقوي الارادة في الامة فتحطم واقعها بيدها وتبدأ نهضتها الجديدة، وهو فكري يكشف الغوامض ويفصل المتشابكات كما يكشف المنشور الزجاجي حقيقة اشعة الشمس بتحليلها لعناصرها الاولية ؛ وبذلك يمكن للنهضة ان تسير بطريق واضح سليم . هذا تعريف عام للانقلاب لا بد من توضيحه بشيء من التخصيص والتفصيل . وفيما يلي شرح بعض جوانب النفس التي يجب ان يدركها الانقلاب .

١ — كنا قد تعرضنا لقضية انكماش الفرد على نفسه وتكالبه على نفع الذات مهما كانت الوسيلة والنتيجة، وقلنا بان ذلك صخرة تصد تيار النهوض . فالذي على الانقلاب ان يقدمه كمقابل لهذه الانانية هي **المواطنية الصحيحة لتحول الفرد من مخلوق يعيش لنفسه الى مواطن يعيش للمجتمع في هذه الفترة الانتقالية على الاقل .**

لقد مضى زمن ليس بالقصير على قيام الحكم المدني في بعض اجزاء الوطن العربي، ولكن الملاحظ الملموس هو ان معنى المواطنية لا زال سطحياً عندنا وروحها باهتة ضعيفة . فالولاء القبلي والعائلي والطائفي والاقليمي لا زال حياً يعيش بين ظهرانينا حتى كأن الدولة المدنية لم تقم بعد، وروح احترام القانون والنظام ضعيفة، وتأدية واجبات المواطن والشعور بالمسؤولية عن المرافق العامة، والمساهمة في الشؤون القومية سلباً وايجاباً، امور لا تزال ضيقة النطاق . وتغوص جذور ذلك في فترة الانحدار التي ساد بها الحكم الاجنبي والارهاب والاستغلال وفقدان الامن والنظام .

يستطيع الفرد ان يكون مواطناً صحيحاً بنبذ العصبيات والاخلاص في عمله المهني والمساهمة في اعمال الخير عن طريق الجمعيات والاهتمام بسياسة البلاد الداخلية والخارجية عن طريق الحزبية والمحافظة على سمعة الامة في الخارج والعمل لكسب التأييد لقضاياها القومية . بامكان الفرد ان يكون مواطناً صالحاً بان يكون صادقاً ثائراً في سبيل عقيدة واضحة يعتنقها لانه يرى خير امته بتحقيقها .

٢ — في المجتمع العربي روح محافظة تشده عن التقدم . فالفرد بصورة عامة ميال لابقاء القديم على قدمه لا لانه يعتقد بافضليته على ما سواه، بل لانه لا يطمئن للجديد . فهذه المحافظة يجب ان تنقلب الى نزعة تقدمية لا تخشى المستقبل بل تتحداه، والخوف الذي يمنع الفرد من الخروج من جهاز الوضع القائم يجب ان ينقلب الى شجاعة وحب المغامرة يدفع الفرد للخروج من الصف في مختلف الميادين . هناك التقاليد البالية من دينية واجتماعية التي يمارسها العامة، فهي تحتاج لمن يخرج عليها قولاً وفعلاً ليبذر الشك في نفوس

الناس بصلاحها وليقود الساخط عليها الذي ينتظر فتح الباب . **هناك قيم واخلاق سائدة ترشحت من الواقع الفاسد يجب ان يتخطاها الفرد بجرأة وصراحة ، واساليب قديمة في العيش تقيد حرية الفرد وتمنع تحقيق شخصيته وهي تحتاج الى التجديد .**

٣ – والنفس العربية التي غلفتها القشور تحوي بجوهرها خلقاً كريماً نحن باشد الحاجة الى بعثه وارروائه بروح العصر لتعود للشخصية استقامتها . نحن نعيش في وقت تسربت فيه الى الفرد نزعة السلبية والتطرف ، فهناك الميل الى السخط على كل شيء وتعجيل الاحتجاج على الشيء بالاندفاع الى معاكسه المتطرف ، كمعارضة التزمت بالاغراق بالمحرمات والمحافظة الدينية بالكفر . **يجب ان يتناول الانقلاب هذه العناصر الدخيلة على النفس ، الوافدة اليها من الواقع الفاسد بالتشذيب لتنبعث الاخلاق العربية من جديد .** فالنهضة القومية بحاجة لان تدعم بالتسامح العربي الذي تمثل قديماً بالكرم والعفو عن المسيء والحلم والانفتاح على الاقوام والاديان الاخرى . ووضعنا الحاضر يستلزم ان يبعث فينا حب الحق من جديد ، ذلك الحب الذي تمثل عند العربي القديم بالصدق ونصرة المظلوم والثورة على الطغيان . نحن بحاجة لتقوية احترام الانسان ببعث الفردية وروح الاعتزاز بالكرامة والثأر لها وتضحية الاعتبارات المادية وحتى الحياة في سبيلها . **يحتاج الفرد العربي اليوم الى اعادة الثقة بنفسه وبقواه وبفضائله لتدب في الامة روح الرسالة بدلاً من الشعور بالتفاهة والعيش على الهامش .**

٤ – ولاجل ان يزول الخوف الذي تلقيه اسرار الكون في النفس يجب ان تحل العقلية العلمية مكان العقلية السحرية . فالفرد العربي يعاني قلقاً عميقاً من ظواهر الكون فينسج حولها الخرافات ويحاول التغلب عليها عن طريق المعجزة والسحر بدلاً من العلم . وهكذا فقدت حياتنا ركيزة مهمة توفر لها الاستقرار والوضوح فالعلم الذي يوضح قوانين الطبيعة يزيل القلق ويوفر الوسائل الناجعة لاخضاعها وتسخيرها لمنفعته ، ويساعد على استقامة العلاقات الاجتماعية . **ويتطلب ذلك الايمان بالعقل والطريق التجريبي للمعرفة .**

هذه بعض جوانب النفس التي يجب ان يشملها الانقلاب

– **البقية على الصفحة ٧٧** –

رهائن الحرّية ..

فصل من مسرحية « ثمن الحرّية »

بقلم عمانوئيل روبلس

« ثمن الحرية » * مسرحية جديدة للكاتب الفرنسي عمانوئيل روبلس ، يدور موضوعها على وحشية الارهاب الاسباني في فنزويلا عام ١٨١٢ . ولكن الضابط الاسباني « مونسيرّا » يثور لهذه الوحشية ، فتدعوه انسانيته الى التخلي عن فرقته ، وتمكين القائد الفنزويلي « بوليفار » من الفرار ومن جمع شتات الثوار . ويقبض الاسبان على الضابط الذي انقلب عليهم ، ويحاولون حمله على الاعتراف بالمخبأ الذي لجأ اليه بوليفار ؛ ثم عمدوا الى القبض على ستة أشخاص من الشارع أخذوهم رهائن وجعلوا يهددون مونسيرّا باعدامهم اذا أصرّ على عدم الاعتراف .

وهذا هو المشهد الذي يجتمع فيه مونسيرّا الى الرهائن ، وهم أمّ ذات طفلين ، وفتاة في الثامنة عشرة (ايلينا) وممثل في الاربعين ، وبائع في الخامسة والثلاثين ، وخزّاف في الخمسين ، وشاب في العشرين (ريكاردو) .

•

المشهد

مونسيرا ، الرهائن الست

(مونسيرا الى اليمين ، معتمداً على الطاولة ، مطرق الرأس)

البائع : لماذا لا تريد الاجابة ؟ تكلم ! انظر إلي !

الخزاف : آه ! إن الوقت يمضي ! لقد اضعنا عدة دقائق ... وقد آن لك ان تكلمنا . قل لنا ما الذي تنوي عمله ، ولا تبق هكذا !

الام : انتظروا ... (تقترب على مهل من مونسيرا وبحياء ..) اتظن ان الضابط سينفذ حقاً ما يقول ؟ .. أجبني ، ارجوك ... هل انت واثق من أنك اذا لم تقل شيئاً فسوف يفعل بنا .. فسوف ينفذ وعيده ؟ .

مونسيرا : (باجهاد) نعم .

---

* صدرت هذه المسرحية في هذا الاسبوع كاملة في سلسلة « روائع المسرح العالمي » . وقد نقلها الى العربية الدكتور سهيل ادريس .

البائع : (بغضب) آه ! لا بد ان تشرح لنا ! إن هذا الموقف غير معقول ! إن هذا كله مريع . يجب ان تشرح لنا !

مونسيرا (بوهن) لقد شرحت لكم كل شيء ..

الخزاف : (مذعوراً) وهل يكون الضابط جديراً بتحقيق ما يقول ؟ هل تعرفه ؟ اهو جدير بهذه الجريمة ؟ أجبني !

مونسيرا : (من غير ان يرفع عينيه) اني أعرفه .. وهو بذلك جدير .. (صمت) انه هو الذي دفن جميع الاسرى احياء بعد معركة « غومارا » .

(يتبادل الرهائن النظرات مذعورين) ...

البائع : (برعب) هو الذي فعل ذلك؟

الخزاف : (متمتماً) لقد كان يدخلهم واحداً بعد واحد .

الممثل : (بحنق ويأس) ولكن من انت ، انت الذي جلبت علينا الشقاء ؟

الخزاف : هل انت اسباني ؟

مونسيرا : نعم .



عمانوئيل روبلس

الخزاف : وهل خبأت بوليفار ؟

مونسيرا : نعم .

الممثل : (بغضب) ولكن لماذا؟ لماذا؟ إنك اذن خائن ؟ إنك تخون الملك ! انك تناصر المتمردين ؟ لماذا ؟

مونسيرا : (يتردد ثم ينظر الى الرهائن) لانني .. معكم !

البائع : وما الذي تعنيه بأنك معنا ؟ .

مونسيرا : (بلهجة متقطعة) انني معكم ضد رفاقي ، ضد ارهابهم ، ضد اعمالهم الوحشية ، ضد طريقتهم هذه المرعبة ، بالتنكر للبشر ... انكم ترون ان الحياة الانسانية ، والكرامة الانسانية لا تعنيان شيئاً في نظرهم !

البائع : (وقد اضاع صوابه) آه ! ماذا يفيدني ان تكون مع الاسبانيين او ضدهم ، معنا او ضدنا ! انني انا ، اننا نحن الستة هنا ، اننا نحن الذين سنُقتل ! واننا نريد ان نعرف نياتك !

الام : أجل ، ما الذي ستفعله ؟

الممثل : (متهدداً) قل لنا اين اخفيت بوليفار ! انا لا اود ان اموت هكذا ! إنني لم افعل شيئاً ! وانا اسباني !

كنت عائداً الى منزلي . وكنت راجعاً من لدن الموسيقي « رواغ » ، وبالامكان التحقيق ، وانا لم اتآمر مطلقاً . مطلقاً . لقد مثلت امام الملكة عام ١٨٠٧ . ولقد تعاقدت مع مسرح مدريد الملكي حتى وصول الفرنسيين . لقد كنت دائماً مخلصاً امينا لجلالته ! دائماً ! ولقد رفضت ان امثل للفرنسيين !

البائع : (متهدداً) هل ستتكلم ام لا !

مونسيرا : (متبرماً ، مقاوماً نزعة في

نفسه) افهموني ...

الخزاف : (مغتاظاً) ما الذي ينبغي ان نفهم ؟ أترانا لم نفهم ما قاله الضابط ؟ اما ان تسلم بوليفار وإما أن نرمى جميعاً بالرصاص . أليس كذلك ؟ ان لي خمسة اولاد ، لم يبلغ كبيرهم الثانية عشرة ، وانا اربيهم بصنع جراري وبيعها بنفسي . وانت لن تعيلهم بعدي ، أليس كذلك ؟

مونسيرا : (متحمساً) هذا صحيح . إن هذا كله صحيح . إن لكل منكم حقيقته التي يدافع عنها ، وحياته ، وما هو اهم من حياته . ولكن بوليفار يظل بعد الآن الامل الوحيد ، الامل الأخير للفنزويليين بأن يتحرروا من الاسبان ! فلئن انا سلمت بوليفار فاني لا اسلمه وحده ، بل اسلم معه الحرية وحياة بضعة ملايين من البشر .

الممثل : (هلعاً) آه ! لقد قضي الامر ! انه سيرفض كشف مخبأه !

مونسيرا : (كما لو انه لم يسمع) ليس الامر انه يُضحي بكم لانقاذ رجل واحد ! فمن محيط الى آخر ، من « غواماكيل » الى « كراكاس » ، من «باناما» إلى « كوزكو » ان « فنزويلا » كلها ، إن عالماً بأسره ينتظر من بوليفار ان يحرره ! عالم برمته يتألم تحت نير اقسى الاحتلال ، واكرهه واشده فظاعة .

الممثل : (مرتعباً) سوف يرفض! إنه سوف يضحي بنا !

مونسيرا : (بأهدأ مما كان) ان بوليفار هو الرجل الوحيد ، القائد الوحيد القادر على قيادة الحرب من اجل الاستقلال ضد الاسبان وقيادة الثورة كذلك ، وخلق امة حرة فوق هذه الارض ، امة كبرى من الرجال الاحرار .

الممثل : (مرتعباً) هذا يعني انك ترفض كشف السر !

الخزاف : إنك لم تقرر ان تدعهم يرموننا بالرصاص ، أليس كذلك ؟

الام : (بضيق) ولكن لا ! انه سيتكلم ستترون ! انه سيقول لنا ...

الخزاف : (بعنف) ستعترف لنا ، نعم ام لا ، اين خبأت بوليفار ؟

مونسيرا : (يتردد في الاجابة . يفهم المشاهد انه يتساءل ويعاني) إفهموني

الخزاف : (يهجم) كلا . أجب على سؤالي ! ان الساعة تنقضي ! وسوف يعود الضابط . أجب ! اجب ! (يمسك بتلابيبه) والا خنقتك !.

الام : (لاهثة) دعه ، انه سيجيب ... سترون ... انه سيجيب .

مونسيرا : اصغوا إلي ... انكم تعيشون جميعاً تحت سيطرة رجال طغاة لا شفقة لديهم فهل تكونون بلا كبرياء ؟ اتكونون بلا كرامة ؟ الا تستشعرون ثورة حقد وكراهية ضد مجرمي « كامبيلو » ، ضد جلادي « كوماتا » ؟ تذكروا ! لقد آن لكم أن تتذكروا ! لقد احرق الجنرال روزيت ، في « كامبيلو » ، جميع اسراه وهم على قيد الحياة ! وفي « كوماتا » أمر موراليس بتسمير الاطفال الذين لا يزالون في المهد ، على الابواب ! وانطوناتزاس ، ذلك الذي كان يجمع الايدي المقطوعة ؟ وايزكيياردو ، ذلك الذي أمر باختطاف الفتيات ليتيح لفرسانه ان ينتهكوا اعراضهن ؟ إن شرطته مبثوثة في كل مكان ، فظة ، وحشية ، رهيبة ... أليس هو الذي اوتي وحده هذه الفكرة بان يحبسنا هنا ؟ اوليس هو الذي اخترع هذا العذاب الفظيع ؟

الخزاف (متأثراً بحقيقة الوضع) وسوف يدعهم يرموننا بالرصاص !

مونسيرا : إن الاسبانيين لا يعدونكم بشراً ، بل حيوانات ، كائنات دنيا يجب ابادتها ! هذه الفظائع كلها ، وهذه الالوان من الوحشية ، أليست جديرة بان تثيركم ؟ ألا يمكن ان تكفي لحملكم على النهوض ضد هؤلاء الوحوش ، حتى آخر تضحية ؟ اتكون هزيمة الثوار في « سان ماتايو » هي نهاية كل أمل ؟ ولكن كلا ، وانا اقولها لكم بل اهتف بها هتافاً ! يجب ان نلم شمل الانصار ! يجب ان نعيد تنظيم جيش «الاستقلال» وبوليفار هو وحده الذي يستطيع ان ينجز الثورة ! فينبغي ان ينقذ ! يجب انقاذه بأي ثمن !

البائع (يهجم عليه ، وقد استبد به الجنون) هل ستقول لنا اين يختبيء ، نعم ام لا ؟ تكلم ! آن لك ان تتكلم ! (يمسك بتلابيبه ويصفعه) تكلم ، تكلم ! ايها السافل !

مونسيرا (وقد دفعه عنه بغير قسوة) سوف تأتي الساعة التي ستتحرر فيها هذه البلاد بفضل بوليفار !

الممثل : اسمع قليلاً ! إنه لا يمكنك ان تفعل ذلك ! لا تستطيع ان تقتل ستة أشخاص لتنقذ شخصاً واحداً !

مونسيرا : ولكن افهموا ، افهموا ! انا ادرك جيداً انه يشق عليكم ان تفهموا ! ليست هي قضية حياة ستة اشخاص مقابل حياة شخص واحد ! وانما مقابل الحرية ، مقابل حياة الوف المساكين !

الممثل (وقد أخافه الجواب) وإذن ... فلن ... تقول ... شيئاً !

مونسيرا (لا يجيب على الفور . يشعر النظارة انه يقاوم نفسه . ثم يقول اخيراً ببعض الاجهاد) لست ادري ! بت لا ادري !.. اود لو استطيع اود لو استطيع ان افهم انا نفسي .. ان اعرف إن كنت على حق إن كنت لست على ضلال !



مونسيرا والرهائن

كما يظهرون في التمثيل الانكليزي للرواية

الممثل (بخبث) أجل فكر ! انك ذكي ! سوف تكتشف انت نفسك ان عنادك لا معنى له ! وان هذه المساومة نفسها فظيعة شيطانية ! ستة اشخاص ، احياء ! هذا له شأنه ! ان الله ينظر اليك ! وهو سيساعدك ! فاستمع الى صوته ان تحت يديك المنا ويأسنا ! فدع قلبك ينفتح دع الله يدخل الى روحك !

مونسيرا : ولكن أليس الله هو الذي يرسل لنا هذه المحنة ? اوليس علينا جميعاً ان نقبلها وان ننتصر عليها ? الا ينبغي لنا ان نستحق الجنة ? آه ، بل فكروا انتم انفسكم. إن القضية هذا المساء هي ان ننقذ نفوسنا لا اجسامنا . (بحماسه متزايدة) إن القضية هذا المساء هي ان نموت لننقذ ملايين البشر ، لننقذهم من الشقاء ، ولنظل ، من ثمة ، جديرين بتضحية المسيح ! ان الموت يخيفكم ، ولكن هذا الموت ثروة عجائبية ! سوف نخسر أرواحنا ولكننا سننقذ الى الابد . إن جميع الذين يختارهم الله يجب ان يعذبوا ! ان الله معنا ! وانا من ذلك على يقين ! لقد اخذكم في الشارع ، وقادكم الى الساحة ، وطبعكم مثلي بطابعه ! فبدلا من ان تثوروا ، عليكم ان تصلّوا وترتفعوا اليه! إننا لا نستطيع ان نفهم دروبه ، ولكن يجب ان ننحني امام ارادته !

البائع : انه يهذي !

الخزاف : ولكن لا ! فانتم ترون جيداً انه يرفض ان يتكلم !

البائع : إنه لن يكشف سر بوليفار !

الخزاف : لقد غدونا للضياع ! .

البائع : أيها الكلب ! سوف نقسرك على الكلام! انما انت تربح الوقت بهذرك هذا!ولكن الساعة تنقضي ! وسوف تتكلم ! يجب أن تتكلم!

الخزاف : إن هذا ليس ممكناً ! انك لن تدعنا هكذا ! يجب أن تتكلم ! إن لي خمسة اولاد ، فمن الذي سيعيلهم ? إنهم ما يزالون اطفالاً ! لئن كانت هذه يد الله تضربنا ، فان هذا ظلم! إن الله يكون بذلك ظالماً قاسياً!وانا لا أود أن اصدق ذلك !

الممثل : كلا ! بل أنا أفهم لعبتك ! إنك تسعى الى تضليلنا ، تسعى الى حملنا على الاقرار بان الله هو الذي ساقنا إلى هنا ، وان ارادته هي التي تمسكنا هنا!ولكن حتى لو اقررنا بذلك ، فان الله قد ترك لك انت حرية الاختيار!وسواء أكان الله او القدر أو سوء الطالع هو الذي قادنا إلى هنا ، فانت تظل حراً في ان تختار بين بوليفار وبيننا ! فانت الذي تستطيع ، في آخر المطاف ، إما ان توفرنا ، وإما ان تلقي بنا إلى بنادق الاسبانيين ! ولا جدوى في أن تجيبني بانك إذ تختار أن تضحي بنا ، إنما تستجيب لأمر إلهي ، لانذار اعلى ! فلسنا اطفالاً ! ولن تستطيع خداعنا ! نحن واثقون بانك تستطيع ان تختار ، وينبغي ان تفعل ذلك وفق عقلك وادراكك!

مونسيرا : انا أعلم.. اعلم ايضاً أن باستطاعتي ان اختار ، وهذا هو ما يملأني رعباً في الحقيقة. فأياً ما كان اختياري ، سأرمى بالرصاص .. اولا تدرك أن هذه الحرية هي التي تعذبني في هذه اللحظة اكثر مما يعذبني يقيني بأني سأموت ? ولكن لعل هذه هي التجربة التي يحفظها لي الله ، لعل الله يعرف عباده الصالحين حين يدعهم اولاً لهذه الحرية ...(صمت)

الممثل : فكر ملياً ، واستمع الى صوت العقل ! لئن اخترت انقاذ بوليفار ، فانك تغتال ستة ابرياء ! فكر بانني لست انا نفسي من المستعمرات ، بل انا اسباني ! وهذا ظلم فادح!

مونسيرا : (بألم) قتل ستة ابرياء! ولكن هناك ملايين الابرياء الذين يعلقون آمالهم على بوليفار ...

الام : (تأخذ في البكاء وتتمتم) ان لي طفلين . .

(ينظر اليها مونسيرا باحداد . يبدو متبرما)

الممثل : (يراقب مونسيرا والام ، ويتردد نظره بينهما ، ثم) اسمع ! قد لا نستطيع نحن ان نقنعك . ولكن انظر الى هذه المرأة . إن لها طفلين لا يتجاوز احدهما الشهر العاشر ، والآخر في الثانية من عمره . لقد خرجت لتبتاع خبزاً ، ولم تكن تقدر ان تتغيب اكثر من بضع دقائق . ولقد اغلقت دونها الباب . انها ارملة وانا اعرفها . إن بيتها منعزل ، ويجب ان تعود اليه . حسن ان تحب صديقك ، ولكنها هي ايضاً تحب طفليها ! ويجب ان يعيشا! وانت لا تستطيع أن تدعهما يموتان على هذا الشكل!

مونسيرا : (متأثراً ، صارفاً عينيه) كان ضباطنا بعد معركة « سيكيساك » يجبرون اسراهم على قتل زوجاتهم واولادهم ! وكان الذين يرفضون منهم ذلك يدفنون احياء و ...

الممثل : (يقاطعه) نعم ، إنها هذا لفظيع ؛ ولكن سيكون فظيعاً كذلك ان تترك للموت جوعاً هذين الصغيرين المحبوسين هناك وحدهما في بيت منعزل ..

مونسيرا : (متابعاً) بعد بضعة ايام من هزيمة « ميراندا » تلقيت الامر بالقبض على بوليفار . ولقد لقيته وتحدثت اليه طوال ليلة . وانا اعلم انه سيستأنف الحرب !

الخزاف : (بقلق) ستدعهم يقتلوننا !

مونسيرا : سوف يحرر هذا الشعب من ارذل انواع العبودية !

الممثل : ولكن هذه المرأة ! هذه المرأة موجودة ايضاً ! وطفلاها بريئان ! (يصيح) بريء ... بريء ... ان ! حسن ان تكون الى جانب الشعب ! وان تريد انقاذ صديقك . ولكن يجب ايضاً ان تنقذ طفليها !...

الام : (بلطف وهي تتقدم نحو مونسيرا) سوف يستيقظان ، وسيبكي « بابليتو » من الجوع !

الممثل : ان هذين الطفلين لم يفعلا شيئاً ! فيجب عليك انت ايضاً ان تفكر بذلك !

مونسيرا : (مخاطباً نفسه) . ان الوف الاطفال في هذه الساعة ، يولدون عبيداً في كل مكان من هذا البلد ...

الخزاف : ولكن ما الذي يقوله ? .

الممثل : (وقد اسقط بيده) انت تعرف جيداً ! انه لن يتكلم .

البائع : (فاقداً صوابه) انه لن يتكلم ! انه شيطان ذميم ! انه قاتل ! انه اشد وحشية مئة مرة من سائر الاسبانيين ! يجب ان اخرج من هنا ! يجب ان تتكلم !

الممثل : (لاهثاً من فرط الضيق) لا فائدة من شيء ، فهو لن يتكلم . ولكن انا لم اتآمر قط ، لقد كنت دائماً مخلصاً للملك ، ورفاق فرقتي يعرفون ذلك ، ويكفي ان يُسألوا عنه . وانا لا اريد ان يحكم علي من اجل قضية ليست هي قضيتي . ان هذا لا معنى له ! وسأصارح الضابط بذلك بعد قليل فانا بعد كل شيء اسباني مثله ! وسيفهم يجب ان يفهم .

البائع : ابله انت! هو لا يريد ان يفهم اي شيء!

الممثل : لماذا تقول ذلك ? لماذا ?

البائع : انت تعرف مثلي ان هذا هو تماماً ما يريدونه : أبرياء ! من اجل انطاق هذا الشقي ! وان هذا ليدعو إلى الجنون حقاً ? ولا بد ان زوجتي قلقة الآن . بل لست ادري ان كنت سأراها مرة اخرى .. بسبب هذا الوغد اللئيم !

الممثل : (محدثاً نفسه) يجب عليه ان يفهم...

الخزاف : سوف نقتل جميعاً

البائع : ان امرأتي تنتظرني .. ولو لم يكن لي امرأة ، لكان الامر ايسر من ذلك ، ولكنها تنتظرني ، ولا بد انها الآن على النافذة ، انه لم يكد يمضي على زواجنا عام ، وعام من السعادة هو وقت قصير جداً ، اقصر مما ينبغي .

الخزاف : ليس لك احد انت ، لا امرأة ولا ابن ، ولا اسرة ، لا شيء ! انك تقبل الموت . اما انا ، فأن لي خمسة اولاد . واما الآخرون ، ملايين الآخرين .. انك لمجنون ! ماذا يهمني الآخرون ? لو كان عندك خمسة

اولاد ينبغي اطعامهم والباسهم وحمايتهم ... لضعف اهتمامك كثيراً بملايينك من المجهولـين الذين هم في عمر يمكنهم من ان يدافعوا عن انفسهم ...

الممثل : ولو عرف صديقك بوليفار نفسه ان حياتنا ، واكثر من حياتنا ، ان خلاص من نحبهم وسعادتهم ، كل ذلك يتوقف عليه ، آه فأنا واثق من انه سيسلم نفسه ؟ لقد سمعت من يتكلم عنه . ولقد قيل لي انه شجاع وكريم . وهو لن يتحمل ان يدفع اطفال ابرياء بدلامنه.

مونسيرا : (كئيباً) لا حق لبوليفار بعد بأن يسلم نفسه .

الممثل : ماذا تقول ؟

مونسيرا : (بصوت ارفع) ان بوليفار الآن لا يخص نفسه . انه يخص برمته القضية التي بعثها هو نفسه من فوق آلاف الموتى ..

البائع : (مجنوناً من الرعب) آه انكم ترون جيداً ! انكم ترون جيداً ! كل شيء لا لا فائدة منه ؟ فهو لن يتكلم ؟ على انني سافقأ عينيه . اريد ان أقلع عينيه (يهجم على مونسيرا فيصفعه ويمسك بتلابيبه. ريكاردو يرتمي على البائع ويمسكه مانعاً اياه من الحراك)

ريكاردو : انتظر ، انتظر !

البائع : (يتخبط) الكلاب . اتركني !

الممثل : دعه يتكلم !

البائع : وما الفائدة؟ لكأنك تبتهل الى جدار!

ريكاردو : (لمونسيرا) انني اكره الاسبان وانا اعرف ما قيمة سيمون بوليفار . ولكن هل انت واثق من انه سيتجه الى « بيوبلا » ؟

مونسيرا : لو لم اكن واثقاً من ذلـك ، فمن اين كنت في ظنك استمد كل هذه الشجاعة في هذه اللحظة ؟

ريكاردو : نعم . ولكنني .. اخشى .. هذه اللحظة . لقد اعدم ابي بالرصاص حين كنت لا اتجاوز الخامسة من عمري . ولقد احرقوا البيت . ان امي وحيدة . وسيكون ذلك .. قاسيا جداً ، بالنسبة اليها ايضاً

مونسيرا : (كئيباً) نعم .

ريكاردو : وهل فكرت ملياً ، انت نفسك؟ إن القضية ، أليس كذلك ، هي ان نضحي بانفسنا جميعاً نحن الستة لانقاذ رجل ، ستأتي امجاده فيما بعد.

مونسيرا : (متألماً) انها لكذلك .

ريكاردو : ست حيوات بشرية مخنوقة دون ريب ، ست حيوات بشرية بكل ما تمثله من مذخور الآمال ، ومن السعادات الارضية الفضة . هل فكرت بذلك ملياً ؟ هذه الام وطفلاهـا المهددان ، هذا الرجل والمرأة التي يحبها اكثر من نفسه ، هذا الاب واولاده الخمسة الذين ما يزالون اطفالا : ان ذلك كله موجود . كل ذلك واقعي محسوس ، مصنوع من لحـم ودم ، وان اعدامه يعني ايضاً فتح ابواب اخرى للشقاء ، وإلقاء الوان من اليأس والالم والدموع على كائنات اخرى . فأية حقيقة يمكنك ان تقابل بها هذا كله ، ما دام بوليفار معرضاً للقبض عليه هذا المساء بالذات ؟ ما دام مريضاً ويستطيع الموت ان يختطفه في اثناء الليل ؟ ومن ذا الذي قال لك إن هذه المهمـة التي ترصده لها ، من قال لك إن العناية الالهيـة ستمكنه من القيام بها ؟ فكر جيداً . ست حيوات بشرية يضحى بها بشكل موثوق مقابل امجاد مفترضة لرجل مريض ومطارد مطاردة شديدة .

مونسيرا : (كئيباً) لقد فكرت ملياً .. ولكن هذه هي فرصتنا الاخيرة ...

ريكاردو : (وازحاً) آه ! ... لا بأس بالموت . ولكن الموت هكذا ؟

الخزاف : حسبكما انتما الاثنين! ان الوقت يزحمنا ! وانت ترى جيداً انه لن يتكلم ، وان لا شيء يستطيع ان يقنع هذا المجنون او ان يثنيه .

ريكاردو : إخرس (كأنما يحدث نفسه) ما زالت في رأسي وفي سمعي انا ايضاً صرخات المذبوحين في « سيكياك » . وحين اغمض عيني اجد منطبعاً تحت جفنيهما صورة المـوت في حفرات « كوماتا » ... (بلهجة اكثر تقطعاً) انا ايضاً اشعر باحتقار الاسبان يثقل علـي كانه يد من حجر . في كل مكان وحتى في بيتي . ولكن امي شيخة ووحيدة ، ولقد بكت من قبل طويلا ...

مونسيرا : (متحمساً) انها الفرصة الاخيرة ، فلئن تلاشت ، لئن قبض على بوليفـار ، او اخفق ، فسينتشر اذ ذاك الليل الكامـل ، والى الابد ، فوق ملايين وملايين من البشر ، من اقصى هذه القارة الى ادناها . يجب ان ننقذ هذه الفرصة ، لا بد من ذلك . ولقد اخترت. واحسب انني على حق ... اعتقد ذلك ... اريد ان اعتقده ؟

الخزاف : كفى ، كفى ! ان هذا كله غير معقول ! ان هذا كله اجرامي ، كفى ! انهم سيقتلوننا ! ويجب ان تتكلم ؟

الام (متنبهة) هذا صحيح ، إن الساعة تنقضي ! آه يا إلهي !

الممثل : (ثائر الاعصاب) اجل . يجب ان يتكلم بسرعة ، والا فالهلاك لنا ! ما عسانا نفعل ؟ انني اسألكم ، انتم الاخرين ؟

الام : (محدثة نفسها) لا بد ان « بابليتو» قد استيقظ ، ولا بد انه يصرخ الان (لمونسيرا) انني ابتهل اليك ؟ انظر : ان ثديي مثقـلان باللبن ! وليس بوسعي بعد ان اظل هنا ..

الممثل (يهم بالبكاء) ينبغي ان تفعل شيئاً : نعم افعلوا شيئاً ، كلهم !

البائع : (بعزم) اسمع : انني غني . انني اهبك كل ما املك . وبوسعك بـثروتي ان تتابع الحرب . بوسع بوليفار ان يختفي ، واما انت فتستطيع ان تستمر . ان لدى مـزارع وقطعانا . وسيكون بوسعك ان تجند كثيراً من الرجال ضد الاسبانيين ، انني اقول لك ذلك واشهد الناس حولي .

الخزاف : اقبل ذلك ، إقبله : فستصبـح غنيا ! انك شاب ، فماذا يهمك الاخرون ؟ ان بوسعك ان تذهب الى اوربا ، وهذه الثروة ستمكنك من ان تصبح سيد حياتك . قل انك تقبل ، فنحن جميعاً شهود . لقد سمعنا كلـنا ! لقد وعد !

مونسيرا : (ببساطة) سواء قبلت ام لم اقبل تسليم بوليفار ، فان الاسبانيين لن يتركوني ابداً مرة ثانية !

الخزاف: (وقد جن من الرعب والغضب) لنقتله ! يجب ان نخنقه ! صحيح انه يكون قد امتنع عن قول اي شيء ، ولكنه مادام سيكون قد مات فلن يطلب منا شيء . ساعدوني. يجب ان نقتله !

البائع : يجب ان نقتله انه على حق !

(يهجمون على مونسيرا . نزاع قصير . تقع بعض الطاولات الصغيرة .)

الممثل : (يحاول ان يمسكهم وهو يصرخ) كلا ! لا تفعلوا ذلك ! فانهم سوف يعاقبوننـا . انهم سوف يعذبوننا . لا تفعلوا ذلك !

(يتدخل ريكاردو كذلك . صراخ . الام وايلينا تلتصقان وتنظران الى المعـركة مذعورتين) •

العندليب المهاجر

[ذكرى أصيل على بردى .. ولكي تنهض تلك اللحظة الشاعرة ، مطلة بخلود على لحظات العمر الهامدة]

أتراكَ مثلي يا رفيقُ تمر في الزمنِ
عبر المهالك ، والليالي السود ، والمحن
لا صاحبٌ يُرخي عليك غلالة الكفن
أتراك مثلي تغتدي خمّارة الشجن
تذرو بقية عمرك الصادي بلا ثمن !
.. لكأنّ في عينيك بعض اللمح من وطني

* * *

وأكاد ألمحُ في وجومك لون مأساتي
جرحى ، وملحمتي ، وتشريدي ، وآهاتي
.. أنا ها هنا يا صاحبي أقضي عشياتي
أبكي بجانب حوْرَة الشلال أمواتي
وجعلتُ صدري كهفَ أشباحٍ واصوات
كمخالبٍ عصبيةٍ تستشرف الآتي

* * *

منْ أيّ دهر أغبر القسمات مُنصرمِ
من أي مثلوج الذؤابة شائخ هرم
من أي أعماق الزمان أعيش في الألم !
.. وعبرتُ صحراء العذاب مخضب القدم
وحدي لها أبداً ، ولم أضرعْ الى صنم
دفءُ العروبة في شراييني وملءُ دمي

* * *

بيَ لهفةٌ يا صاحبي مشبوبةُ النار
هل بعض أخبار تحدثها ، وأسرار
للظامئين على متاه الوحشة العاري
كيف الحقولُ تركتها في عُرس آذار
ومتى لويت جناحك الزاهي عن الدار !
.. عجباً ، تراك أتيتنا من غير تذكار ..

* * *

لو قشةٌ مما يرفّ ببيدر البلد
خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد
لو رملتان من المثلث أو ربى صفد
لو عشبة بيد ، ومزقة سوسن بيد !
أين الهدايا مذ برحت مرابع الرغد
أم جئت مثلي بالحنين وسورة الكمد

* * *

.. عهدي بدار طفولتي فردوس احلامِ
الشعر بعض ربيعها المتفتح النامي
وعلى دواليها يغني الف خيّام
أنشودة هي جُمّعت من كل الهام
من ناي راعيةٍ ، ومن أجراس أغنام
وحفيف غابٍ ، واختلاجة جدول هام

* * *

عهدي بدار طفولتي سحرية الصور
مغسولة الربوات في شلالة القمر
أواه كم أمسية عربية السمر
كانت لنا في كل رابية ومنحدر
كم سرحة عند الأصيل ويقظة السحر
بسلالنا ، ملءَ الربى ومسارب الشجر

* * *

.. ماذا رحيلك ايها المتشرد الباكي
عن أرض غابات الجبال وفوحها الزاكي !
أم أن مرج الزهر أصبح قفر أشواك
وتلونت أنهارها بنجيع سفّاك
.. داري ، وفي عيني والشفتين نجواك
لا كنتُ نسلَ عروبتي إن كنتُ أنساك

* * *

قسماً بكل غريبة المنفى ومغترب
بالنازحين على مرامي أعين الشهب
سأظل أحرق شمعتي وأذوب في لهبي
وأزفهم خمري ، وأحيا العمر في سغب
سأظل أدفع قاربي في الصاخب اللجب
حتى اطل به على دوامة الحقب

* * *

.. أتراكَ مثلي يا رفيق ، فنحن سيان
أشجانك الكثر الكئيبة ذاتُ أشجاني
أتراك أقسمت المعاد بمثل إيماني
في ضحوة البعث الملوح خلف احزاني !
.. قم داو جرحك يا رفيق الحورة الثاني
أنا ها هنا ، في كل يوم شئت تلقاني

دمشق **يوسف الخطيب**

معبد بوذا

قصة بقلم مطاع صفدي

ادرك انني وحيد . وحركة يدي هذه عندما ترتفع بالسيجارة من المنفضة الى شفتي ، لتبقى هناك لحظة ، تملأ صدري بغمامة زرقاء حارة ... هذه الحركة الرتيبة بين المنفضة الخشبية الشقراء والشفاه اللزجة الحمراء، نواس بارد يسجل لحظات الزمان الاجوف . الزمان كما يمتصه انتظار شاخص من فراغه الى هذا الملاء المضج . من بين أصابعي الطويلة النحيلة المخيفة لانها تستطيع الحركة بشكل عجيب، حركة على خيوط متوترة، على أوتار ، فيئز كذلك لحن اللهفة الضائعة ، ولا يسمعه أحد ..ملاء أطل عليه ، وهو جملة من الرؤوس والعيون الزجاجية والايدي المتأرجحة او الاقدام المسرعة دائماً ، وعواصف الحر الصامت ، المتخثر ، يدب عرقاً بحرياً دبقاً على هذه الصلعات ، على جبين متغضن . وآخر مسطح ساذج ، وآخر شاب مصمم مهووس . عرق على الجبين ، بين النهود ، في قبضات الايدي الحاملة للاشياء ،أشياء تتناقل بين الناس والعربات والمخازن كانها دم المدينة ، وقد صار كتلا ، علباً لها أبعاد هندسية...تهتز أراجيح في الايدي التعبة ، وآمالاً في القلوب ، ومشاريع للقرن العشرين في الحياة بين الجحافل، الكتل ، الاكوام من الحجارة والناس والخشب والملح والحديد والدخان..

موج الشارع هذا تكشفه نظرتي على مسافة مني . انني فوقه ، هنا على سقيفة حشرت فيها مع عشرات الناس الذين يمشون ويأكلون ، ويمشون ، يمشون ويدخنون ويحتسون القهوة ويمشون ، يمشون ويتغازلون ويأكلون البوظة ويمشون . هذه الدوامة من البطون والافواه الفاغرة والاجساد الدبقة .. وانا حجر أسمر طويل على مقعد من الخشب ، تتحرك في أعلاه خرزتان تبرقان ، وله امتداد منه عجيب ينتقل بين خشبة أمامه – منضدة، وبين شق في اعلاه ، ينفث بين حين وآخر غمامة زرقاء حارة .

موج الشارع تحت الخرزتين ، وموج البحر الهادر القريب ، في شقين آخرين على طرفي الحجر الاعلى .

كان على خشبة –منضدة قريبة ،مجاورة للحجر،رأسان منحنيان يتلامس شعرهما من أعلى ، وتتصادم في الاسفل حشرجات ألفاظ أشد حراً من الشارع ، وتعبث باقة من الاقدام تحت الخشبة ، عبثاً آلياً ببعضها . وستة أحجار أخرى أكثر حلكة وسواداً تتحلق وسط السقيفة وقد عقدت الدهشة والبله والاستطلاع أنظارهم على من حولهم ... وسكتت هناك الى الابد .

دبق أصفر . وكل الاشياء هنا ملتصقة. والخادم تحبس رقبته ياقة بيضاء. انه يضن على عرقه ودبقه أن يتبخر منهما شيء خارج بذلته السوداء ، علبة هذه التي حشرت داخلها آلته ، المتحركة جداً المتنقلة بأسرع من رغبات الزبائن ، من حركة الصاعدين والنازلين من السقيفة واليها .

وشرطي أحمر تنتفخ اوداجه وعيناه وكرشه في صفارة ، أصغر من أرنبة أنفه الغارقة بين جبلين من لحم الخدين والشفتين . انه كله في ثغر كقبة على قبر ولي عتيق ، وفي يد تلوح هكذا في الفراغ . وتتحرك علب سوداء لامعة هي السيارات –البشر .

ان لي بين هؤلاء جميعاً في السقيفة ، وفي أرصفة الشارع أمامي وفي السيارات – البشر . وفي كل الشوارع التي أراها ولا أعرفها وعلى كل الارصفة الممتدة الى مالا نهاية ، وفي كل هذا الضجيج والشرطي والصفارة والابنية الصفراء الشاهقة .. ان لي واحداً .. واحداً يعرف كيف يتجاوز كل شيء ليصل اليّ ، واحداً لا تهمه العلب والكرات والاكوام والآلات والدبق، لكي يهتدي الى سقيفتي هذه .واحد فقط سينبثق عن هذا السديم، عن هذا المجهول المخيف في وديان الشوارع ، في مستنقعات الانهر الطويلة من البشر الزاحفين ، اذ يقف بهم التيار فجأة ، فيتعفنون بسرعة وتتصاعد منهم روائح التخثر وأنين الجمود . شخص وتتلاشى المدينة بعد ..

وتحرك النواس ايضاً . وكانت دخينة اخرى ، وأنفاس ملتهبة تحرق اعماق هذا الشاخص من الفراغ . لقد تحطم اناء وقته ، ونزف هكذا من بين اصابعه النحيلة الطويلة . وانجرف إثره وعيه الضحل في غيبوبة الصور المفككة . وحاول التطلع . كان من لحظة يحني رأسه الى اسفل ليرى الشارع .الآن ينظر الى الاعلى . وفي فوهة شبه مضيئة في اقصى بئره ،جرفه، غوره ، تتراقص اشباح على شبه نور وجيف . من اعلى ، فوق ، كل شيء يمور ويتحرك ومضاء . وهنا في اقصى الجرف الى اسفل ، في هذه النقطة السوداء الثابتة ، كنظرة جني مخبول ، يجمد التراب والضحولة والصمت والشخوص ..هكذا لا شيء الا النواس يسيطر على فوهة الغور. اما هنا فالركود والتأمل بلا موضوع ، والحركة الجامدة على ذاتها . هنا لا نواس .

اقصى العمق ، واقصى العلو . والنظرة الثابتة ، والتشنج . ثم الدوار يبعد من حوله الحدود والتعينات والابعاد المستقيمة ، ليرجع السديم يتحكم في كل اشيائه وقد فقدت هويتها، واصبحت بدون اسماء . عليه هو ، هو الشاخص، ان يجد لكل حركة وعلبة او انسان حوله وامامه ، معنى واسماً ، وهوية اخرى جديدة .

كذلك هذه الافكار الدابة على سطح جمجمته ؛ لا تعرف كيف تلج رأسه : انها ليست ملكه . هو لم يصنعها . كما انه لم يصنع مخطط هذه الشوارع ، ولم يشرع في اقامة حجر من احجار ابنيته . هو ما كان مرة صاحب هذا المعنى ، هذه الحدود ، والمدينة وجدت من قبله ، قبله بآلاف السنين ، فليس هو منها ، غير مسؤول عنها . ارتباكاتها وتقاطع طرقها ، وتصادم سياراتها ، واصفرار لونها . حجورها ، مواخيرها ، موائد ساستها ، مؤامرات اصحاب العلب ، اصنامها ومعابدها ونواقيسها ومآذنها اشياء على مسافة منه .. تمسه ، تحتك به ، تعبره ، ولكن لا تلجه ... لا تلجه الآن .. والى الابد ..!

حق انه حجر ؛ وانه في اعلاه له شقوق كثيرة ، حيث يتدور الحجر ويرق قليلا .. وأنه له استطالة تحمل دخينة ترتفع بين القاعدة والرأس ، هذا النواس للخارج ، ككل ما يحتك به ولا ينفذ اليه .

وبين حين وآخر تأتي استطالة خارجية وتمد تحت خرزتيه ، اوراقاً ملونة ، عليها حروف ضخمة ، و تنزلق على الشق الجانبي اصوات ، الفاظ لا معنى لها . تلك اخبارهم وحوادثهم . واما هو ، فانه قابع لا اخبار له ولا حوادث ..

انه يرتبط بالسقيفة ، وبالشارع في الخارج ، وبجوف العالم هذا ، بخيط واحد واه جداً ... قد ينقطع بين لحظة واخرى . واحد سينبثق فوق

المادة الخام العائمة هناك .

وبعد .. اي في مرحلة اخرى يسجلها النواس ، بعد .. لا شيء الا ان يعود فيغيب ثانية في الخام ، في السديم ، في جوف العالم والبشرية .

***

انهم يعملون بعيداً عنه . كل يستطيع ان يحرك لسانه بطلاقة ويرمي بسيل من الالفاظ . واباريق الدهن والزيت ، وخابية الطلاء ، ودن العرق ذي الرائحة الحادة المصقولة في البياض .. وكل الليل المتحف بيخاره الاسود والجنازة المحترمة .. واعواد المشانق والاعدام بالجملة ، وتجارة الاسلحة .. كل هذا يعمل بدأب ويتسابق في العمل . كيف يستطيعون على هذا في الدبق والعرق .. في المواخير كيف يلتصق الجسدان لينفصلا بعد ساعة .. وكل قد شرب من عرق الآخر وطبع شكله على جلد الآخر .. وعلى الكراسي العالية كيف تلتصق الاليات البدينة ، وتعرق هناك باستمرار ، الى الابد ، حتى يتعفن قش الكرسي . ولكن الرصاص الاسود السريع يلتصق .. هناك في الاراضي البعيدة ، في الصحاري والجبال المنفسحة من جهة على زرقة البحر ، ومن جهة على اصفرار الرمال الصامتة كعقيدة المجهولين من المنتحرين لا تذكرهم الاوراق ذات الحروف الكبرى الملونة الا اعداداً على اعداد .. يلتصق الرصاص في اللحم الحي والقلب النابض ، والانسان العربي المجهول .. القتيل دائماً

يعملون بعيداً عنه .. القاتل والمقتول . السارق والمسروق ، الخائن والقضية . وتباطأت حركة النواس . لقد ماتت دخينة ثانية . وتحركت اصابع العزف الصامت ، وتناولت دخينة ثالثة وتحرك وناس النواس من جديد ..

انفجرت ضحكة في شقه الايسر . هل يتحرك ؟ هل يعرف الدوران ؟ هل سيعمل شيئاً ؟ وتلتها ضحكة اطول واضخم .. تصر صريراً . يجب ان يلتفت اذن . ولكن كيف ؟ هل هو ملتصق على كرسيه ؟ اذن ماذا يمنعه ؟ انه لو التفت ، هل سيعمل ؟ وماذا سيعمل ؟ هل يكف نواسه ؟ هل ينفذ شيء اليه ؟ هل يقف عن العد ؟ عن الاحصاء ؟ احصاء الاشياء التي تتدحرج تحت .. لماذا لم يكن مهندساً ؟ هل هناك شيء غير المساحات والسطوح والابعاد .. رياضياً ؟ وهل غير الوحدات في مطاق الفراغ ؟

اتضحت ، جانب شقه الايسر ، الفاظ كثيرة مندفعة .. لعلها من تلك ومن ذاك اللذين تفجرا منذ قليل بضحكتين .. واتضح كلام شيئاً فشيئاً ، حديث بصوت عال . على غير عادة الاحجار ذوات الرؤوس المنحنية الهامسة المتلامسة على المناضد في بقية السقيفة . لا بد انهما رأسان متباعدان قليلا .. يتقابلان ، لا يلتقيان .

– نسيتني ... أجل نسيتني طيلة ايام ... لا اعرف غير هذا .

– ماري .. تعلمي ان تري في شيئاً آخر .. شيئاً آخر ... هل تفهمين ؟

– ماذا .. هل ستجعلني قريباً خادمة في الصليب الاحمر ؟

– خففي عنك قليلا .. لست غريبة إلى هذا الحد عما اريده ان تفهميه ...

– بل غريبة تماماً ..

هنا محاولة شد . هل ينجح بخلعها مما تلتصق به في ذاتها الدبقة . يجب ان التفت اذن . اريد ان اراها واراه . لم احول نظري مطلقاً عن الشارع . الآن لا بد لي ان اهجر ذاك .. ما تحتي . ادور الى جانبي ... ينبغي ان تكون جميلة ... الى حدود .. هو .. ينبغي ان يكون اجل :

لقد انتظرته اياماً طويلة . عيناها ... لا بد انهما بدون معنى . إنهما تتطلع دائماً الى خارج .. وحاجباها بينهما تتأرجح دهشة صارخة مشدودة .. كيف .. سيفرغ الخارج ، سيتجوف عالمها . ستفقده .. هو .

– اضعف الايمان يا ماري ان نجمع التبرعات

– كم هذا مضحك ... جمعتم التبرعات من قبل لفلسطين ، وتجمعون اليوم للمغرب ... الا تكف انت الآخر عن هذا الهراء ؟ ..

هذا الحديث لن يبلغ الى اي نتيجة حاسمة . القصة قديمة . ومثل هذا الزيف لا يعطي شيئاً على الاطلاق . انه عندما يشدها الى صدره ويضغط نهديها ، ويثير رعشتها ، ستعرف كيف تتملكه اكثر . وحينئذ لن يبقى منه شيء آخر .. للآخرين البعيدين . السنا نتقن جيداً .. نحن كيف نستعبد ونُستعبد . هناك ايد وارجل تتقدم من سندان الحداد الهرم الذي يصنع حبال القيود الحديدية .. حبال لا نهاية لها .. مثل صفوف الارقاء امام باب دكانه .

خفت الحديث ، وصار همساً ، وتدانى الرأسان .. ولم يبق شيء منهما ... ضاعا في السديمية الخام ، التي تعمر جوف العالم .

لم ار وجه احدهما بعد ، وانتهى كل شيء قبل ان استطيع الدوران .

وامكنني بعد ذلك ان افكر قليلا . كانت فكرة ضحلة كبقية افكاري .. تعوم من فوق . هذه الفكرة محاولة لصق لفظتين : الفرد – الامة .. عبثاً افكر . فليس هناك فرد ولا امة . والمسألة تبدأ عندما استطيع انا ان اكون – ان اوجد فرداً حقيقياً . ولن يكون هذا الوجود خاماً ، ولا شيئاً من الاشياء ، ولا عن صدفة طائشة . ولا نسخة بين النسخ . لن اكون هذا الحجر ، المنفصل بكل ثقله ، المعزول في زاوية من سقيفة تطل على الشوارع المزدحمة بالنفايات والأشياء والنسخ .

ان الامة ترتفع مني كما يرتفع صباح من فوق ذروة الى ذروة اعلى منها . علي قبل كل شيء ان احطم حجري .

نواسي هذا يتحرك في الفراغ ، وافكاري تنزلق على جبيني انزلاقا مريعاً بدون اثر .

ان لي ان اقف قليلا ، ان تهدأ يدي ، ان تنطفىء دخينة . لا اريد ان اشعل غيرها . كفى ..

ما الذي اتى بي الى هذه المدينة الساحلية الصاخبة ؟ هي غريبة عني ككل المدن الاخرى . وان كان لي مدينة ولدت فيها ، وترعرعت وسجلت في نفوسها . انا اكره الشوارع المتقاطعة وزواحف الشوارع . ولكني كم زحفت .. وهناك كنت التصق بسأمتي ، كما تلتصق بي كامل اشياء التمدن . علاقاتي واشيائي وقيمي وصوري .. وشخصيتي .. كل هذا .. هذا الذي صنعته انا بمساعدة مدارس المدينة المختلفة ، تركته ، تخلصت منه ، رميته خلفي . وهأنا .. بدون انا . لاشيء عندي أجتره . ولست لأشحن خلفي شيئاً مني .. هذا انا : عار كالحجر . واود لو ابقى هكذا دون ان ابني لي قالباً جديداً ، دون ان امد يدي مرة اخرى للحداد العتيق وسندانه الاسود المهترىء من كثرة ما هوت على حديده ضربات المطرقة .

ولكن ماذا افعل بهذا الفراغ . ان لي انتظاراً هنا . بدأته منذ ساعة ونصف . وكانت توقت الزمن يدي بدخينتها : من المنفضة الى شفاهي ، من شفاهي الى المنفضة . وبدأته من القديم ، منذ أن راح خفقان قلبي يوقت لي زماني وحياتي .

أنا انتظار ، ومرهف يستمد الى صاعق . أنا نظرة مشدوهة غريبة لا يقبض عليها منظر ، لا تقلصها حدود .

أجل هكذا أنا . وبدأ حجري يتكسر . ولكن ماذا أفعل الان :

انتظار جديد . حجري أثقل مما اعتدت حمله.. لن يتكسر بسهولة. انه كالجبل ، كالمسؤولية. مسؤولية من .. المتعطل ، الشاخص في الفراغ ؟

وعادا الى الحديث . أو بالاحرى عدت الى الاصغاء لهما .

— غداً .. نعم ، نفس الساعة .

كان يجب ان أراهما أيضاً كيف يتحدثان. لابد ان لكل منهما وجهاً أحس بالخوف . اخشى الوجوه الصريحة . اخشاها وقد انعقد عليها شبح تصميم.. قرار ، عاطفة معينة ، فكرة محدودة . ترى كيف يجرؤون . يقول لها : غداً . لاشك انه موعد . كيف يتمدد هكذا من هذه اللحظة الى (نفس الساعة) غداً .. دون أي ضمان ،الا أنه يريد.. يريد؟إنه يتصرف كما لو انه حقيقي.. حقيقي الى اقصى حد. واضح نبر.. كأنه مصباح.. ليس بيده اشتعاله ولا انطفاؤه . ولكنه ما دام يضيء فهو يضيء ..!

هل انا افكر اذن حقاً ؟ هل ارتب القضايا ، واخلص الى نتائج ؟ لابد انني اذن اشعر بال..اليقين . يالها من كلمة ..

هناك الآن موعد صحيح بين شابين .. لقد اتفقا عليه بلهجة سرية جداً ومبطنة. انه موعد ليس كهذا الذي يجمعهما هنا الان .. في هذا المحل العام ، سينتظران .وسيؤلمهما الانتظار. وتنفصل كل لحظة، في زمانها ، عن الاخرى بهوة وحشية .. تبتلع صباهما ، وولوعهما الطفل .

هو ، سيقف وراء نافذة غرفته ، سيتسمر هناك ، بدون ربطة عنق . وسيمسح كل هنيهة سيلاً من العرق البارد من على وجهه ورقبته . وسيطبق عليه جو الغرفة الخانق شيئاً فشيئاً . ستضرب الساعة بسوطها على كل جسده. كل هنيهة لها ثقلها وقضيتها وعناؤها .

وهي ... ستتعثر خطواتها ، ويجذبها رعبها أكثر الى حيث النافذة ، واقفاً وراءها هو بقامته المديدة ، إشارة لخلو داره .

ترى ايعرفان حقاً كيف ينتظران، وكيف يألمان؟أيشعران حقاً بقضية المغامرة؟وهل يدركان بأنهما يجازفان بكل شيء؟ هل يمكن لمثل هذا الموعد الناري ، في ساعة خانقة من أصائل الساحل المسعور ، أن يكون جزءاً من حياة يسير الى جانبها دون ان يهزها، حادثة عارضة لا تفرض حداً فاصلاً بين ماض يجب رفضه كله ، وبين مستقبل لا شيء فيه مضمون، تحت اليد؟ ..

هل يحسان بأن الحب حادث مبدع لا يقبل أي مقياس غريب عنه، حتى ولو كان من حب آخر ؟ حادث لن تكون الحياة معه وبعده إلا فوضى الرغبة ، صداع الحرية ، وماء التضحية والوثبة البطولية ..

هذه أفكار ولا شك ، وأمال بثقل رأسه نحو اليسار ، لعله يجد مرة أخيرة صاحب هذه الافكار . فليس هو صاحبها مطلقاً . ويرى الدميتين الصغيرتين ، أضعف من ان تنبثق منهما قضية .. مشكلة حياة جديدة كلها ، وكلها مسؤولية ، خضم من العمل والتأمل والمعاناة . لا قبل لصاحبيْ موعد تافه ان يخوضا به .

هذه الافكار ليست له. إنها تطن داخله ، في جو من الفراغ ذي الصدى الحجري النحاسي الفقير . وليست لهذين المخلوقين ولا شك. إنها إذن للشخص الذي سينبثق عن هذا السديم ، من الدبق والعرق والعلب المتحركة .

لا بد أنه قريب ، بل يجب أن يصل اخيراً ...

ولم لا .. فانه .. شخص وتتلاشى المدينة بعد .

***

كان بعض النور يشق عنه زجاج الباب من الخارج . وكانت أصوات الفندق تخمد بالتدريج . وسدرت الوديان في غيبوبة من الظلام والسلام والخشوع الجبلي الغر .. المخيف . ولم يكن في الغرفة ضوء . ولكن ثمة تنفسان عميقان بطيئان، هما نواس الوقت داخل هذا الكهف الجبلي النائي ، في المصيف المجهول .

تنحنح في مكانه ، بيد أن ذراعه كانت شيئاً خارجياً جداً ليس له عليه أية سيطرة . إنها مخثرة ، بدون لحم وأعصاب ، جامدة تحمل رأساً صغيراً تستند اليه بكل ثقلها . الشعر ، شعر الرأس الملقى على ذراعه ، كثيف طويل جداً ، يتساقط ويموج هنا وهناك ، على صدره العاري ، على يديه، على الوسادة . خصلة قريبة من عنقه ، تتسلق حتى ذقنه ، حتى فمه . وفي ثغرة يمتلىء طعم الشعر والعرق والتعب الكئيب والسفر البعيد والغاية المتحققة ببلادة طرية .

يتنحنح قليلاً . ولكنه يعجز . إنه يريد ان يقوم بحركة . ولكن بين أن يريد وبين ان يتحرك فعلاً ، فواصل ومسافات طويلة . إن لسانه يطيعه شيئاً ما ، فيمده خارج الشفتين ، ويلعق هناك حول ثغره سائلاً مالحاً .

صدره وجذعه ، فخذاه .. أشياء مستقلة عنه، استطالات . ولا يدري كيف يسيطر عليها . هل هي حقاً له .. وكيف . هناك شيء آخر فوقه قسم من جثمان صغير كبير .. بل صغير. وتنزلق نظراته على خديه الى الرأس الى طرف الجسد الأيمن . ويلمح البياض والنعومة ينزلقان مع نظراته من الذراع الطويلة الرخصة . وبالقرب منها كومة لحم عليها برعم محمر مدور. ثدي صغير . ولكنه ليس ثدياً وحده. بل يعلق بطراوة أوسع منه، بيضاء ايضاً ... تمتد طولاً .. آه لا يستطيع ان يتبين حدودها ، ولا أن يجد لها أسماً . ويحاول ان يعلو برأسه قليلاً ، ليتاح له ان يمد بنظره الى نهاية الطراوة . رأسه هذا ، او حجرة كبيرة منحوتة ، مركبة فوق. حتى هذه اللحظة كانت عيناه ، اطرى شيء لديه ، تدوران في محجريهما . هذا الدوران في محجريهما . هذا الدوران هو الشيء الوحيد الذي يستطيعه ..

ودارتا كذلك الآن ، فانداح السقف والجدار ، والسرير الآخر ، بما عليه من ثياب ملونة . والارض .. وعليها حذاءان . والبياض البارد هذا، جزء من غطاء الفراش ، والبياض الحار هذا المتعرق .. جزء من ج .. جسد . لا بد أن يكون كذلك. والجدار والسقف مرة أخرى والسرير الثاني .. وهكذا دورة إثر دورة . ولكن الظلمة كثيفة إلا من هذا اللمعان قربه.. فوقه .. حوله . لحم ابيض.

فتح قبضة يده اليمنى ، فتسللت به يده المشنجة هذه الى المنضدة المجاورة وجر كأس العرق ثانية .. وتجرع فراغها . اطبق شفتيه . ما زالتا جافتين . وطعم الشعر بينهما جاف . اعاد الكأس . وحرك لسانه . ودفعه ببطء محترس ، فمس اسنانه الامامية . وحاول ان يلفظ ولكن الشفتين مطبقتان تماماً . كلمتان فقط . عد حروفهما : ستة سبعة . واذا تم له التركيب ، فمن اين له بالصوت .؛هذا الاهتزاز في الحنجرة . انالفكرة تهبط مخثرة مقدماً من جمجمته الى حنجرته . وهناك لا نبأة.. لا شيء على الاطلاق سوى غضروف جامد .

انهما كلمتان . هكذا .. يلفظهما :

— فرغ العرق .

جاءت نبرته نحاسية بدون صدى . منذ متى يشرب العرق ؟ ليس هو وحده. لقد التقى بها اخيراً ، وانتهى انتظاره وشخوصه .. هناك على سقيفة (الاوتوماتيك) ببيروت. وبعد بضع ساعات اوغلا في الجبل الشمالي ،وهناك غابا في الصمت والآفاق واللون الازرق ، والشفوف المسحور .

كانت تتأمله طيلة الطريق . وأما هو .. فكان لا يزال يتجمع ببلادة في عدمه . وعندما بدأ يتحسس بذاته قليلاً ، كان الطريق قد انتهى، ولم يعد

ثمة منعطفات . والمناظر كلها سدرت في ظلمة المساء . لقد ضمتها اخيراً حجرة صغيرة ذات سريرين جديدين، وخزانة صغيرة ومرآة رخيصة . ولكن هذه الحجرة كأنها تتجمع على ذاتها ، لتنقذف من نافـــذة واسعة، الى الشفق والافق واللانهاية ، الملونة بزرقة البحر و صلاة الشمس الغاربة .

كان اول احاسيسه في ذاته الجديدة .. الخوف . تغطيه قشرة جد رقيقة لا تغطي شيئاً غير رعشة في الفراغ ، إنه منذ الصباح ، منذ ذلك الانتظار الطويل لم يبق له ثمة عادة ، فكرة ، عاطفة ، صورة . وأحس بسذاجة لا حد لها امام كل منظر . فليس له قدرة على ان يفهم شيئاً مما حوله . ليس له ماض ليستعين به على إدراك علاقات الحاضر واشيائه . هو منفصل، معزول، خائن .. خائن ، إنه جديد .

كان يرتب اشياءه القليلة في الدولاب ، ثم انتقل الى جانب النافذة ووقف ينظر الى الافق البحري البعيد الارجواني ، وينظر اليها . سريعة الحركة، تتعاطف مع كل قطعة من ثيابها وهي تنقلها من الحقيبة لتعلقها بعناية انثوية في الخزانة : إنها تتصرف كأنها في غرفتها الخاصة . طبيعة رقيقة ، بدون خشية، بدون وحشة . كل لحظة ملكها .

وقد توقفت لهنيهة تتأمل ادوات حلاقته ، كيف وضعها دون نظام على المنضدة امام المرآة . . وشعر انها تحب اشياءه تلك، نفس الحب لأشياء الانسان الذي خلقته انوثتها العنيفة منذ اللحظة الاولى من وعيها العبقري على صباها ومواهبها وجمالها . . اجل إنها جميلة كأروع ما تكون امرأة، ترفع من جمالها لدرجة العبقرية . قامة لينة ملتفة على طراوتها، تنساب في ساقين ملتصقتين، وتتجمع في ردفين غنيين ، وتتلاحن في خصر تستنفده أصغر إحاطة من يد رجل قادرة وتبرز في صدر رؤوم حنون . والوجه . . يضيئها بعينين كبـــيرتين ، مظلالتين بحلم ، طفل ابداً .

ولكم حدثته ، واصغى اليها . وكأنه يتعلم عنها لأول مرة كيف يعيش . طفولتها وثابة ، احست بميزتها الخاصة ، فافترقت عن الاطفـــال وتحكمت بألعابهم . وكان ابوها بطلها آنذاك . ولكنه عندما باعها الى رجل هرم غني، تخلت عنه، احتقرته، ولم تكن خيبتها بأبيها بأقل من خيبتها بزواجها الشرقي المقيت .

وانتصرت على الزواج بأن تمردت عليه ، ذلك التمرد الذي لم تجرؤ عليه واحدة من الوف ضحاياه . وانطلقت تبحث عن بطلها الحقيقي مرة اخرى وخرت اصنام البطولة واحداً تلو الآخر ، امام بطولتها هي . وشدهها الزيف الهائل الذي يعمر قيم المجتمع السقيم حولها . فانفصلت عنه وداست مقاييسه . وتوالت خيباتها . وكل فشل كان يؤكد لها بطولتها أكثر .

وكان ان التقت به اخيراً : شاب أسمر فارع القامة ، مفلسف الحركات، شاعري التقاطيع . أيكون هذا ما أعجبها به ؟ لقد صدمته اول مرة عندما لم تقف عيناها في حدود هيئته وصورته . كانت عيناها تخترقانه الى ما هو أعمق وأخفى ، وكان بحثها قاسياً ثابتاً عنيداً . إنها تحاول ، وهو يتكلم ، ان تتابع معانيه في نفسه ووجدانه . لهذا كان يحس انها تخترقه . وعندمـــا انتقلت اخيراً من دور المستمع المتفحص ، في ذلك اللقاء الاول لهما ، الى دور المحاور المناقش ، أدرك انها لا تقف عند حدود الاعجاب ، بل انها كأنما تطالبه ان يعطي اكثر ، ان يبرز اوضح ما يكون . فهي بحاجة الى الاعجاب كله ، وليس بعضه . انها تميل اليه الآن ، ولكنها تريد ان تهواه، ان تعبده . فليكن رجلها الى الذروة . فليكن إنسانها المفقود .

قالت له وهو يوصلها بيتها بعد انتهاء السهرة : لا أحب جمالك يا نبيل . . إنه يمنع الحب من أن يكتشف فيك مواهبك الاخرى، فيبقى هناك اسير جاذبيتك المتعالية . لقد انصت الى كلامك اللاهب العميق حول قوميتنا العربية . وادركت ان ما اقترحته علينا تحت اسم (برنامج لتحقيق الاهداف القومية)، يجب ألا يقف حيث اوقفته أنت . . ما بالك يا نبيل ، هل تدعو الآخرين لتحقيق برنامجك، وما هو دورك انت . إن بطولة العروبة في أفرادها ، فلماذا لا تضع نفسك موضع البطل . . البطل الاول؟ إن لي شاباً كالصبح إشراقـــاً يعمل الآن في المغرب العربي . لقد ذهب الى هناك لانه لا يريد ان يبقى في الخطوط الورائية ، يهلل للمنتصرين ويبكي المنتصرين . .

وحلقت به ، ثم قذفت كلامها كالحمم بوجهه : يجب ان تعطي كل ما لديك لفكرتك . . ابدأ منذ الآن . إنك بطل وهذا ما تتطلبه فكرتك منك . .»

هل كان حقاً أيعد نفسه لان يكون البطل ؟ كان يشعر بنفسه دائماً انه متفوق . إن له افكاراً وعواطف وإبداعات وحوادث تجعل من شبابه ما يحفل بأعمق حياة وأغناها . وهو يعلم ان اروع إبداع يستهويه الآن، ليس الفن ولا الفكر ، بل الفن والفكر من أجل . . بلى فليقلها ، من اجل نفسه . ولكن اي نفس . هذه النفس عندما تحيا على مستوى القدر، قدر التاريخ، القدر نفسه الذي يصنع تاريخ الامة . هذه الفكرة الجليلـــة كان يحس انه ليس دونها على الاطلاق . ولكن مشكلته تقوم في هذا السؤال : هل يمكنه ان يلتزمها إلى الابد ؟ وماذا يعني التزامها . . أن يبدأ من حياته اليوميـــة فيتجاوزها . يحطم قيم مجتمعه . . مفاهيم الاستقرار والجمود . . أن يتحرر من كل ضيق محدود . من مقولات تفكيره المصطنع . ان ينقلب من غدير يمتد على سهل ضحل الى دوامة في خضم تلتهم سطحها دائماً وتبتلعه الى اعماقها . حياة الصاعقة . . ويبدأها ضد نفسه، ضد اطره، ضد اصدقائه، ضد العالم والله .

وكان لقاؤهما الثاني ببيروت ، وهناك صعقتها هيئته، إنه كالاعجوبة الساقطة من كوكب آخر ، لا يفهم ، لا يعرف، لا يمكن التفاهم معه ، لانه لم تعد لديه لغة عامة، ولا كلمات محدودة، ولا لهجة معروفة . إنه الشاخص من الفراغ، عن صمت رهيب مطلق ضمن حدود ذاته . . ترى ماذا وجد . . مـــاذا يفعل . . هناك وحيداً مع ذاته . . ومع فراغه ؟

مضى اسبوع في المنأى الجبلي المنعزل ، في الصمت ، في الذرى وتلقاء مطلق الآفاق الغامضة . استمع اليها ، الى كل القصص ، الى قصتها ومعانيها ومثلها . وقصص صديقاتها . وعرف احتقارها وترديهـــا وتساميها . فمن هي هذه المرأة ، المتأججة بخدين مارجين ، وباشتمال اشقر في اطـــول شعر واكثفه ، وبالكلام السريع المتمرد القاذف بقلب صاحبته مع كل نـــبرة وحرف وصوت . هذه التي تبدأ من ذاتها ابدا لتقيم العالم . هل تعلمه اكثر من ان يكون ضحية بسيطة : فكره وعمله لهذا الكائن الانثوي الكبير : الامة .

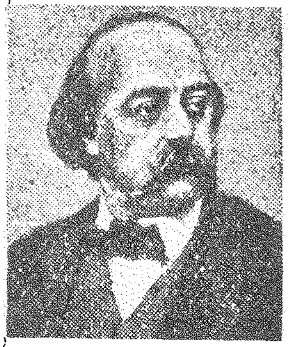
ظل قابعاً بصمته، وعندما ادرك انه لا عرق ، بعد . . وأن الصبح لم يبق له إلا ساعة واحدة ، احس ان شفتيه يطفر بينهما كلام سريع طري؛ لقد تحطم حجره . . ولمسها الى جانبه . ترى كم هو رائع ان يكون الانسان لحم حار واعصاب . . قضية دم . وتمتم : لا اني جدير . . بما تريدني ان اكون .

هل هو على ثقة تماماً ؟ سينظر الى عينيها عندما يشرق الصباح ، وعندها سيتقرر الوداع . . لقد انتهت حياتهما معاً . وقبل ان يفترقا عند الصباح، صباح الجبال والقمم الملتفة بزرقتها العذراء، حدثته بما كان يؤمن به من غير تأكيد الحديث .

– إن معبدك قد اقيم ، ولم يبق إلا ان تقبع به ، ثق ان قداستك هي ان تهب أعلى ما في الحياة وانت تتخضب في رواسبها . . لن نبكي لهذا الفراق أنا لم اردك زوجاً لي قط ، فلست لابغي ان اعيش معك الحياة اليوميـــة الرتيبة . . تركت ذلك لغيري . . ولكني سألتقي معك دائمـــاً في مثل هذا المنأى . . بين الذرى ، لا تكف عن التصعيـــد . . واعلم ان الامة امرأة ايضاً .. مثلما ولدتك تريد ان تزوجك من قدرها .. نعم .! ستكون قصتي غريبة ، وسيحسب بعض السذج انهـــا أسطورة . ولكن في القرن العشرين ، عصر العلم والذرة تحدث المعجزة . ولا شيء مستحيل في امة الانبياء .

كان طريق العودة طويلاً بطيئاً . ولكن زال تحجره وصعـــد فوق تجربة الآلية ، إنه يحاول ان يعيش انساناً على مستوى التاريخ . وهنـــا لم يعد من ضرورة لان يشعل سيجارة ويتحرك نواس في فراغه . انه بدون زمان .. وكان بوذا يشخص من معبد الصمت الى الفراغ . ولكن في هذه المرة كانت الحكمة أرضية .

دمشق — مطاع صفدي



بلادنا... في منظار «فلوبير»

بقلم الدكتور سهيل إدريس

حين قام غوستاف فلوبير (١٨٢١ — ١٨٨٠) برحلته الاولى الكبرى عبر فرنسا ، في عام ١٨٤٠ ، اي قبل تسع سنوات من رحلته الى الشرق ، كتب يقول : « اوه ! انا الذي كنت غالباً ، وانا انظر الى القمر ، في « روان » شتاء ، او تحت سماء الجنوب صيفاً ، افكر في بابل ونينوى وفارس وتدمر ، وفي معسكرات الاسكندر ، وزحف القوافل ، وأجراس الجمال وصمت الصحراء الكبير ، وفي الآفاق الحمراء الفارغة .. اتراني لن اذهب لأروي ظمأي من الشعر والنور ، ومن تلك الاشياء العظيمة التي ليس لها اسم ، في ذلك الينبوع الذي تحن اليه كل احلامي ؟[1] » وبعد عامين ، كتب الى صديق له : « أتراني لن ابصر مرة اخرى المقابر المغطرة حيث الضباع تعوي كامنة تحت مومياءات الملوك ، إذ يقبل الليل ، ساعة تبرك الجمال بالقرب من الآبار ؟ [2] ».

ايكون فلوبير قد حلم بالشرق وشمسه جنّة ضائعة ؟ او ترى دماءه كانت مستحرّة اذ كتب : « في كل يوم ، تتفاقم حاجتي الى الشمس ، فليس في العالم من جميل سواها »[3] فلوبير والشمس ، الشمس وفلوبير : كائنان لا بد من ان نشد أحدهما الى الآخر كتلة لا تتجزأ . صحيح ان « مدام بوفاري » تنضح بالضباب ؛ ولكنها رواية كلاسيكية . واحرى بنا ان نتحدث عن آثاره المتحررة : « سالامبو » و « غواية سانت انطوان » ومراسلاته التي تتبدى فيها الشمس رمزاً للحياة الساحقة الجبارة .

غير ان فرصة هذه الرحلة ، التي داعبها فلوبير طويلاً ، لم

١ الرحلة الى الشرق . ج ١ . المقدمة ص ١١ . ٢ مراسلات من رسالة الى ارنست شفالييه ، ١٩ آذار ١٨٤٢ . ٣ مراسلات - من رسالة الى ارنست شفاليه ، ١٣ تموز ١٨٤٧

تسنح الا في تشرين الاول ١٨٤٩ . ولقد قام بها بصحبة صديقه ماكسيم دو كامب الذي اوفدته الحكومة بمهمّة رسمية . وبعد اسبوعين ، بلغ المسافران الاسكندرية . وإذن ، فها هوذا فلوبير يوشك ان يمس الشرق ، ها هوذا فلوبير يمس الشرق . وها هوذا نهمه ، ذلك النهم الذي يكاد يكون طفولياً ، يجد متنفساً له في دابة الصحراء : « وسرعان ما ارتسم الشاطيء ، وكان اول شيء رأيناه جملان يقودهما جمّال .. »[1]

ولكن مخيلته التي كانت قد خلقت شرقاً قائماً على صحراء وبدو ، ستنهار تحت ضربات الحقائق ، كما تنهار مخيلة كل سائح اوروبي ؛ غير انها تستعيض عن خيالها الحالم افتتاناً مستلهماً من الواقع . ولقد قضى فلوبير اكثر من سبعة اشهر في مصر (١٥ تشرين الثاني ١٨٤٩ — اول تموز ١٨٥٠) وهناك تمت خطوط رؤيته الحقيقية للشرق [2] . اما الشهر الوحيد الذي قضاه في سوريا ولبنان (ايلول ١٨٥٠) فقد كان على قصره غنياً حافلاً بالوان الانطباعات والملاحظات التي يقصد هذا البحث الى تحليلها .

***

مما يؤسف له ان الروائي الفرنسي الكبير لم يزر من البلدان السورية إلا العاصمة . وكان يحلم قبل ان يحقق هذه الرحلة بزيارة تدمر التي كان تاريخها المشرق يثير كوامن فضوله . وقد زار معظم الرحالة الفرنسيين مدناً سورية كبيرة كحلب وحمص وحماه واللاذقية وسواها ، وعادوا بمذكرات لا تفتقر الى الامتاع ولا الى الاهمية . على ان ما خلفته زيارة دمشق في

١ مراسلات — ج ١ ، ص ٢٦٢ . ٢ راجع الدراسة الهامة التي كتبها جان — ماري كاريه J. M. Carré عن « فلوبير في مصر » في كتابه «الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر» ج ٢ . طبع القاهرة ١٩٣٢ .

نفس فلوبير من انطباعات لم يكن دون ذلك في الامتـــاع والاهمية ، وإن ظل عرضة للنقاش . فهو قد رأى مشاهـد أثارت كل اهتمامه ، وتأمل مناظر استخرج منها لوحاتغنية، ولقي نماذج من البشر رسم لها صوراً حية . ولما كان فلوبير ، بدافع من مهنته ككاتب وبميل غريزي فيه ، شديد الاهتمام بمعرفة طرق العيش لدى الناس، فان اخلاق السوريين ستكون مادة خصبة للتصوير الاجتماعي الذي يكلف به ، ولكن ينبغي الا ننسى ان ارجاع رحّالة أجنبي ، تختلف اختلافاً قليلاً او كثيراً عن أرجاع المواطن المقيم ؛ ولم يشذّ فلوبير عن هذه القاعدة . ونحن نلاحظ من جهة اخرى ان الصورة عنده كانت غالباً ما تضخم الواقع البسيط . ولعل هذا مردودٌ الى ان الكاتب الذي يشعر بحاجة لان يلح احياناً ، يبـالغ في رسم الاشخاص والمواقف ، فيخرج عن الحدود التي يخطها الواقع . وهذا يعني ان بوسعنا ان نشكّ أحياناً بصدق فلوبير ، او على الأقلّ بموضوعيته ، كما سنرى في بعض المقاطع الآتية .

ومثل هذا يُقال عن رحلة فلوبير في لبنان . فهو قد زار عدة مدن كزحلة التي خلـّف مرأى سهل البقاع منهـــا اثراً عميقاً في نفسه ، وبعلبك التي يصف فيها المعبد الشهير ، تحت ضوء القمر ، ودير القمر وبشري واهدن التي يتجه منها الى الأرز . اما في طرابلس ، فهو يؤثر ان يتكلم عن احاديث شتى أجراها مع بعضهم حول حياة اللبنانيين الدينيـة . وهو يحتفظ من مدينة البترون بذكرى سيئة ، هي انه شرب فيها « اردأ نوع من أنواع المياه » التي شربها في رحلاته ... ولعل مما يدهش انه لم يجد في بيروت ، التي سافر منها الى رودس، ما هو حريّ بالوقوف عنده .

واياً ما كان ، فان الصفحات التي تركها لنا فلوبير ، هذا المراقب الدقيق الذي لا تشيخ آثاره ، هي بالرغم مـــن ايجازها ، بل بسبب هذا الايجاز بالذات ، على جانب كبير من الغنى، سواء أحملت انطباعات لوحـــات او أشخاص او خصائص انسانية . وإن تحليلها سيعطينا صورة عن فكر فلوبير ونفسيته ، اكثر مما يعطينا صورة عن سوريا ولبنان.

***

تتكشف مذكرات هذه الرحلة عن تلقائيـــة وبساطة عجيبتين . وانما يوفـّر لها هذه النضارة وهذا الاشراق ، وذلك المذاق الذي لا يبوخ قط، لهجة واقعية تنزع احياناً الى الفجاجة .

ولعل ابرز لوحة رسمها الكاتب الفرنسي ، هي لوحـــة سوق دمشق Bazar . فان حياة دمشق كلها تتجمع في اسواقها كما يرى . « وبقدر ما تضطرب بالناس وتزخر بالكائنات ، تفرغ الشوارع من المارة وتبدو صامتة » ويركز فلوبير عينـــه المرهفة ، وسيلة الوصاف الاولى ، عـــلى السحن والملابس ، فترسم ريشته الصناع هذه اللوحات الحية بخطوط سريعة .

« ان ملابس الرجال الحمراء والخضراء والزرقاء ، وكميات الحرير الفضفاض ، يتدفق عليها كلها من فوق نور النهـــار المشرق ، إن ذلك كله يؤلف لوناً كبيراً مخططاً ينبعث منه سحر فريد » ثم تأتي الصور المتراكبة : «البائع الجالس عند عتبة حانوته وهو يدخن « الغليون » ويستقبـــل زواره ومشتريه، بائع « الشربات » المثلج ، مؤجر الغليون ومعـــه موقد الفحم الذي تؤخذ منه الجذوات ، فـــلاح يخرج من الحمام وسط « البزار » فيمر بالناس شبه عار لا تستر جسمه الا منشفة ، وفي ركن من الاركان موضع قبر قديـــس تتراكم عنده العصي والعكازات والطرابيـــش والقبعات والخرق والاسمال المعلقة على الجدران » .

ولا شك في ان تجميع هذه الرسوم التي تنسجم مع جو السوق ، هو من خصائص مؤلف « بوفار وباكوشيه » الذي يبدو حريصاً على بسط معلوماته . ولنقرأ ما يقوله بعد عـن « الشيخ بندر عبد القادر ، ذلك الشاب ذي اللحية الصـفراء اللبق الحركات ، الانيق الملبس : عمة بغدادية وثوب ازرق » وكان يأتي كل مساء لزيارة فلوبير وصحبه ، حاملاً بعض التحف القديمة التي كان يخفيها في جبته : « فاذا لم اكن هناك « عمّر » شيشتي واخذ يدخنها وهو ينتظرني على الديوان . » ثم يعود الى « البازار » فيلاحظ « ان ما هو جدير بالتنبه اليه جمال الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين ، وهم اقرب الى القصر ، ذوو شعر اسود وعينين كبيرتين سوداوين وبشرة سمراء ... » ويخرج فلوبير هنا من تجريده ليشعرنا بأخوته وبشريته : « ما اشد الحظوة التي ينالها هؤلاء اذا زاروا باريس ! » بل هو يسلس لخياله العنان « لو انني كنت امرأة ، لقمت بسياحة لهو وتسلية الى دمشق ! » (ص ٢٣٩ - ٢٤٠) .

وتأتي بعد ذلك تلك اللوحات المؤلمة التي رسمها فلوبير بعد زيارته للجبانة ولمستشفى الجذام . إنه في طبعه حسي ، وهذا

ما ينقذه . إنه ينجح في تفريغ انطباعاته وتحليلها حتى يتمكن من ان يخلقها ثانية في نفوسنا . لنسمعه يتحدث عن الجبانة المسيحية التي لا تضم إلا قباءً منهارة « تُدفن في كل منها اسرة » ، بل قد تدفن امة بكاملها !» فهو يجد لذة خاصة في ابتعاث الاحاسيس الشاقة والمشاعر التي تخلق الاشمئزاز :
« لقد انحنينا فوق فم احد القباء ، فرأينا في داخله بقايا بشرية مختلطة حول مومياء قد جفت عروقها وتقلصت تحت اسمال الكفن . وهنا وهناك بضعة رؤوس بلا اجساد ، وبضعة اقفاص صدرية بلا رؤوس ، وفي وسط ذلك كله جديلة نسائية صفراء مذهبة ، منسابة في الغبار الرمادي » (ص٢٤١)

اما مستشفى الجذام ، فقد وصفه فلوبير مرتين ، ولكن بعبارات تكاد تكون واحدة [١] وهو وصف يتسم بنزعة واقعية حادة ومؤلمة :

« ان مستشفى الجذام يقع خارج المدينة ، قرب مستنقع تطايرت منه لدى وصولنا الغربان وكواسر العظام ... انهم هناك ، الاشقياء المساكين ، رجالا ونساء ، كلهم معاً ، فليس ثمة بعد حجاب يستر الوجه ولا تفريق بين الاجناس . ان لهم جروحاً متقيحة . وثقوباً في مواضع الانوف .. ولقد وضعت نظارتي لأتبين في أحدهم أتانك يدان اللتان كانتا تتدليان من كتفيه ، ام هي خرق مخضرة ? لقد كانتا يدين .. اوه .. اين انتم يارسامي الالوان ! ولقد كان يزحف الى النبع ليشرب ؛ وكان فمه الذي تساقطت شفتاه كانما هما محروقتان ينكشف عن داخل حلقه . وكان يهذي وهو يمد الينا أسماله اللحمية الزرقاء ... وكان كل من هناك يئن ويصيح وينتحب ؛ وحين تلقوا صدقاتنا رفعوا ايديهم الى السماء وهم يرددون « الله ! » ويستنزلون علينا الرحمات . انهم هناك وحدهم ، يطبّبون انفسهم ، من غير ان يعينهم احد . ان المجذومين يتألمون كثيراً في مرحلة المرض الاولى ، ثم يأتي الشلل بالتدريج . ولا بد ان اسوأ شيء عندهم هو ان يرى بعضهم بعضاً . وما كان افظعه أمراً لو علقت على جدران اكواخهم مرايا !.. »
(ص ٢٤٢)

ان فلوبير المحلل يأخذ هنا نظارته ويقسرنا على ان نتطلع معه ، بفضول فظيع ، الى هؤلاء المجذومين . وهو يلح في اوصافه ويدقق ويتحدث عن المرض لينتهي الى تلك اللوحة الرهيبة ، لوحة المرايا التي من شأنها ان تعكس للمجذومين صورهم المرعبة .. ولا ريب ان في ذلك تجاوز النزعة الواقعية الى النزعة الفلسفية الاخلاقية التي تعلل وتفسر وتدعو الى الاعتبار .

ولكن لهجة فلوبير بعيدة عن ان تتخذ نمطاً واحداً في التعبير . فهو تارة محلل دقيق ، وتارة مفكر أخلاقي ، وتارة وصاف مرهف . وهذا التنوع يشكل ميزة رئيسية لموهبته ، غير انه قد يقصر دون القصد احياناً ، فاذا هو يدنو من البرودة والغثاثة ، اذ يجتزيء بالسرد والتسجيل ، دون ان يريق في ثنايا الاسطر نفساً محيياً . ذلك هو شأنه مثلاً حين يصف زيارته لبعض البيوت اليهودية في دمشق . فيكتفي بخطوط مقتضبة جافة بلهجة باردة ، كانما هي مذكرات مستعجلة يفكر ان يرجع اليها يوماً فيتمها هيكلا ويكسوها لحما : « معظم البيوت غير مؤثثة . استعمال قطع من المرايا بين الاطر الخشبية والنقوش ، خطوط متشابكة على الابواب ، ومثلها على النوافذ . أعمدة السقف ما تزال تحتفظ بثقوب الاشجار ، وهي مطلية بالازرق والاخضر في بعض الغرف ، تجويفات في الجدران ... » الخ ... وهذا ما نجده كذلك في وصفه لزيارة كنيس يهودي ورسم صور بعض المصلين فيه ، وزيارته لبعلبك ووصف معبدها : « بعض الاعمدة قد حال الى الاحمرار . هو ذا مشهد تاريخي لم يرسم مثله فنان ، ولا ينقصه شيء : لا الخرائب ولا الجبال ولا المياه التي اسمع الآن خريرها .. » ثم ينغمر في شروح وتفسيرات في علم الآثار ، بلهجة رصينة مملة ، يتحدث فيها عن الممرات والصخور والنقوش حديثاً جافاً تنقصه روح الفنان [١] . انه هنا يجر خلفه الضجر والاملال ؛ فكانما هو عاجز عن استنطاق الصخور الصماء والآثار الدارسة ، وعن بعث الايدي البشرية التي ماتت وهي تنقش تلك الاحجار .

ولكن اليس من العجب ان تنتفض هذه اللهجة وتضطرب ويسري في ثناياها روح من الحياة ، حين يقف فلوبير امام المناظر التي قدتها يد الطبيعة ، فتنثال على شفتيه الكلمات ، بسيطة عادية صادقة ، لا تصنع فيها ولا رغبة في بسط المعلومات ? انه يقف عند الاعالي التي تشرف على دمشق ، ويتحدث اليك بصميمية : « خرجنا في الساعة الثالثة ، فتهنا في الشوارع طويلا ، بين جدران تقوم خلفها حدائق كانت ترسل لنا ظلالها

---

١ راجع « مراسلات » ص ٤٤١ .

١ راجع الصفحات ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

عبر اشجار الجوز والليمون ومختلف انواع الثمر ، خضرة قاتمة واضواء باردة ... بضع نساء تمر آتية من حيث لا ادري وذاهبة الى حيث لا ادري.. كل شيء حزين جداً ومرّ جداً. ولعل ذلك بسبب صمت هذه الشوارع المتشابهة الخالية ... ووصلنا أخيراً جبل الصالحية ، فأسفرت هناك دمشق بيضاء بمآذنها التي تخترق السماء وسط الخضرة العظيمة التي تكتنفها، وهذه الخضرة كلها محوطة بالصحراء والجبال .»

ويغادر فلوبير وصحبه دمشق الى لبنان ، فيستروحون على الحدود نسمة جديدة تتغلغل في صدر الكاتب ، فاذا هو يخلف واقعيته ، ويستدعي شاعرية خاصة تترقرق فيها ظلال والوان ورؤى، فكأنما هو ينسى نفسه اذ يدلف الى سهل البقاع المشرق :

« لقد سرنا طوال ست ساعات في هذا السهل العظيم بين بين سلسلتي جبال لبنان . وكان الطابعان الاشقر والازرق يسيطران على المشاهد . وكان جبل لبنان ذا لون لازوردي رمادي فاتن . وحين استيقظنا ، كان السهل كله غارقاً في الضباب ، شبيهاً ببحيره من الحليب المذوب ، بين السلسلتين . ورويداً رويداً تمزق الضباب اجزة متطاولة جعلت تهبط شيئاً فشيئاً ، فتكشف قنن الجبال ، وتظل في هبوطها حتى تبلغ الارض دخانا ابيض سرعان ما يتلاشى .» (ص ٢٤٩)

ويزور فلوبير جبل الارز بعد ذلك : « انه ذو جمال سرمدي . ولقد هبطت منه مشدوهاً . وعدنا الى قرية بشري ، فاذا الشلالات الطبيعية تهبط من الصخور ، كما يرى ذلك في لوحات « بوسين » .. انها بلاد جعلت حقاً للرسم والتصوير ، بل هي تبدو مصنوعة لهما .»

بلاد صنعت للرسم والتصوير ! لا شك في ذلك ، ولكنها ايضاً صنعت لمخيلة فلوبير وحساسيته !

***

اما البشر في بلادنا ، فقد خيبوا ظن فلوبير الذي كان يحلم بصورة رفيعة عنهم ، فاذا هم يبدون ، عبر منظاره ، اقرب الى الفظاظة والغرابة . ولهذا نجد في الصور التي رسمها عن اشخاصهم نزعة تنم عن الخيبة وحس الاكتشاف في وقت واحد ، شأن صورة هذه اليهودية في دمشق :

« ان المرأة اليهودية الضخمة التي رأيناها مساء الاثنين الماضي تشبه « فلور » غانية ملهى « الفاريتيه » : إن جبينها محلوق ، وجفنيها مزججان بالموسى ومصبوغان ، وعينيها تحيط بهما كثير من التجعدات . وهي ذات هيئة طيبة محببة ، واقفة على قبقابها المرصع بالصدف ، تنظر من فوق الى تحت ، مادة بطنها السمين الى امام - وكانت هناك ايضاً امرأة عجوز هزيلة زينت وجهها بريشة نعامة عن كلا الجانبين ، بدلاً من شعرها . » (ص ٢٣٧)

وحتى الاوروبيون المقيمون في الشرق الادنى ، ما كان فلوبير ليوفرهم ، فكأنه غريب عن عالم الاحياء هنا ، او هو يذكرنا بجوليفر او برسوم عجيبة لبلاد خيالية . لقد كتب يصف « فابيان » قنصل فرنسا في دمشق فقال « انه سمين ذو كرش ، ثقيل كثيف لا يؤمن في العالم بغير لحم البقر ، ولا يتحدث الا عن البقر وعن الهناءة المادية ، ويعلن اعجابه بلويس فيليب ويؤثر ان يكون الماريشال سولت على ان يكون موليير ، وهو على المائدة ، يحدث خادمه الفرنسي بالانكليزية . »

السنا نرى في هذه الصورة المقتضبة نفسية برمتها ؟ رجل طيني لا يتحدث الا عن البقر، فكأنما هو ينتمي للحيوان ، ويعيش في جو ثقيل من التصنع والتظاهر ؟.. ولننظر الى

هذا الكاريكاتور في وصف مستشار القنصل « غارنيه »: « انه اصلع وليست له لحية ، ثمل ابداً ، وكان همه ان يرينا رسوماً فارسية بذيئة خليعة .. هذه احداها : ... »

وهنا نشعر بميل فلوبير الى التبسط في وصف هذه المناظر الخليعة ، كأنما يجد لذة في ذلك : إنها نزعته الحسية العميقة التي تتكشف عنها « غواية سانت انطوان » .

واذا عرجنا على حديث فلوبير عما يمت الى اخلاق الشرقيين، كان لنا ان نشك احياناً في اخلاصه وفي موضوعيته. لنقرأ مثلاً هذه الحكاية :

« كان في السوق ولي مسلم يتنزه عارياً من كل شيء ، وهو يشبه انساناً أبله يقوم بحركات غريبة ويرسل الصرخات ؛ وكانت النساء العقيمات يأتين فيقبلن عورته .. وفي الماضي كان ثمة ولي يضاجع النساء في وسط السوق ، وكان الاتراك الاتقياء يحيطون به ومن معه من النساء ، ليخفوهم عن اعين المارة . » (ص ٢٣٩) .

هنا تتكشف نزعة فلوبير للقصص البذيئة ، وهي نزعة تدفعه الى اختلاق اشياء لا تعقل ، ولا يقبل بها فكر صاف ، او الى اقرار مبتسرات سخيفة . فمهما بلغ من اعتدال المسلمين او من تراخي تعصبهم ، فهم لن يقبلوا ان يجري هذا تحت اعينهم . ثم ان فلوبير يدفع السخف الى ابعد حدوده حين يزعم ان بعض الاتراك الاتقياء كانوا يخفون الوليّ ونساءه عن اعين الناس. إن «سذاجة» الشرقيين (والمسلمين) و«جهلهم» لا يفسدان عليهم حس الشرف والكرامة ، هذا الحس الذي يهزأ به الاوروبيون في العادة . ولا بد ان فلوبير قد عدّ « سكان دمشق » حيوانات حتى يمكن ان يوجد فيهم نساء يقبلن ان يضاجعن في الشوارع .. واولياء مجاذيب يفسرون عملا فاحشاً بانه عمل ديني . ولعلّ تغرض فلوبير يتبدى من انه لم ير كل ما تحدث عنه ، بل اورده منقولاً عن رواية ، فترك لخياله العنان ، من غير ان يتحرى الحقيقة ، وحتى قصة ذلك الوليّ العاري ، قصة مختلقة من المحال ان يقرها عاقل .

على ان فلوبير يبدو اقرب الى الحقيقة حين يلاحظ « تأدب سكان دمشق وسلوكهم الطيب بالاجمال . ولقد وجدهم جوزيف[1] قد تغيروا كثيراً ، فأصبحوا اقل تعصباً واكثر تساهلاً من ذي قبل . »(ص ٢٤٠) .

١ مرافق فلوبير ؛ ويظهر انه كان يعرف سوريا قبل ذلك

وهذا هو رأيه كذلك في مسيحيي دمشق : « حدثنا السيد غوبو،رئيس اللعازاريين ، عن المسيحيين هنا، ان الكهنة العرب[2] هم اكثر تركية من المسيحيين ، والرابطة القومية هي اقوى من الرابطة الدينية ، وهو لا يشكو شيئاً من المسلمين ، على العكس » (ص ٢٤٦) .

وبالرغم من ان فلوبير لم يعرف العربية فقد حدس بالشعر العربي ، الشعر الشعبي ، وعوّض عليه خياله ما فوّته جهله . « لقد نظم احد الشعراء العميان قصة موت الاب توماس[2] ، وطاف يغنيها من باب الى باب ، فيتعيش منها . وهكذا يوجد كثير من امثال هوميروس المشردين الذين يحترمهم الناس كثيراً ويربحون اموالاً طائلة . وقد رأيت شيخاً بدوياً جالساً عند مدخل خيمته يروي القصص الخيالية ذات العنصر العجيب .تأثير الخيال الى ابعد الحدود. ولا شك في ان شاعراً ما يُقدر هنا تقديراً شعبياً كبيراً . وهذا ما لم يحدث قط عندنا ، مهما قيل في ذلك» (ص ٢٤٦)

ولعل فلوبير لا يتجنى كثيراً حين يتحدث عن انتشار اللواط في الشرق ، ولكنه قد يكون مخطئاً في تعليل ذلك بان « الرجال لا يرغبون هنا في النساء » .. وهو يستجيب للحقيقة الواقعة اذ يتكلم عن الاعتدال والتساهل والتفاهم بين المسيحيين والمسلمين ، وعن سلطان الشعور القومي ، ولكنه يعود الى التجني حين يتحدث عن اتيان المنكرات في الشوارع (ص ٢٦٢ — ٢٦٣) .

ومن اطرف ملاحظاته حين يزور صديقه الشيخ بندر انه رأى طاولة بليار في مقهى : « وكان الاتراك في ملابسهم الاوروبية مقتعدين الكراسي ينظرون الى الكرات تتدحرج. انها اوروبا في آسيا ! وهي تدخل بواسطة البليار . ويا لها كم هي تتمدن ! ما عسى ان يكون شأن الشرق بعد حين ؟ ألعله ينتظر البعث عما قريب ؟ »

وانها لنبوءة صادقة !

***

وبعد ، فلعل هذه المذكرات كافية للكشف عن ميزات الرحالة الروائي الكبير ، وعن مساوئه ايضاً . إنه قبل كل شيء مراقب دقيق ، ومراقبته المحسوسة تتركز على السمات

١ يقصد المسلمين . ٢ الذي اغتاله اليهود في دير اللعازاريين ، وكان فلوبير قد عرف قصته .

الخاصة التي يتسم بها انسان او شعب ، فانما يستوقف نظره رأس بارز او هيئة غير مألوفة : فنحن نراه يترصد حركة كاهن ، ويسجل ما تتفرد به امرأة ، وما يلحق بسياسي من زيف وتصنع ، وما يأتيه تاجر من ارجاع .. والحق ان هذه الخطوط الموجزة توحي بمسلك او بمزاج برمته . وهنا تتبدى موهبة مؤلف « مدام بوفاري » . ان الاشخاص الواقعيين الذين تحاذيهم في الشوارع يكتسبون بفضل مراقبته الدقيقة خلقاً جديداً ، فينمون ويتحركون ويتميزون بطوابع خاصة ، ولولا ان فلوبير يولي المستغرب والمسترذل اهمية مبالغاً فيها ، لدنت نماذجه البشرية من واقعها الصحيح . انه يستشعر انبساطاً عجيباً في سرد التفاصيل الشهوانية والحكايات البذيئة ، وهو يجمع صور المسالك الخلقية الشاذة والفكاهات الخليعة ، ويكلف بوصف المشاهد التي تبعث على الذعر ، ولعله في ذلك اوفر الروائيين الفرنسيين واقعية . وهو من غير شك اكثر الرحالة الذين زاروا الشرق واقعية . فلقد اختلق جيرار دو نرفال مثلاً رؤية للشرق استمدها من « الف ليلة وليلة » ، ولهذا كان في حديثه شعر اكثر مما كان فيه من حقيقة

لقد كانت خلة الشرق الموضوع الامثل الذي داعبته مخيلة فلوبير زمناً طويلا ؛ ولئن كان قد اصيب بخيبة من مرأى البشر ونماذجهم ، فان هذا الشرق ظل في نظره بلاد الشمس التي هي ينبوع كل حياة ومصدر كل جمال . ومثل هذه الرؤية نجدها في أثر هام من آثار كاتب معاصر هو كامو الذي يحن الى النور في كتابه «الصيف» حنيناً محموماً ويعده رمز الحياة والتفاؤل في بلاده الجزائر ، هذه البلاد التي لا يغادرها الا وفي قلبه اسى ورهبة وخوف من ظلام اوروبا .

ولقد استشعر فلوبير ، هو ايضاً ، مثل هذا الاسى اذ غادر بلادنا ، فكانت آخر عبارة كتبها ، في الساعة التاسعة والنصف من صباح العاشر من ايلول ١٨٥٠ ، هي العبارة التالية :

«اشعر بالحزن حين اذكر اني قد قلت «وداعا» للصحراء واني بعد ردح من الزمن ، لن ارى مرة اخرى جمالا»[١]

سهيل ادريس

(١) الرحلة الى الشرق، ج ٢ ، ص ٢٤٧

هولاكو الجديد

[ما بين الثامن من أيار والحادي عشر منه عـــام ١٩٤٥، قتل قائد فرنسي خمسة واربعين الف طفل وامرأة وعجوز من أخوتنا عرب المغرب وأحال ثلاث قرى حطاما منثوراً بينما كان الرجال في الجبال . وهذه المأساة تـــكاد تتجدد في أيامنا هذه !]

تركوا السنابل والمناجل في الحقولْ
ومضوا يجرون الذيول
والزرع ينتظر الحصاد
والبيدر المهجور يحلم بالغلالِ
وصغارهم يتهللون لغلة العام الخصيبِ
ويبددون طيوف امسهم الرهيبِ
أمس المجاعة والخطوبِ ؛
لكن أغنية الجهادْ
انستهم الحلم الجميل
فعلت هتافات النضال
ومضوا كتائب في الجبالِ
ليحققوا حرية الوطن الحبيبِ

***

وهناك في صمت الصعيدِ
اغفت ثلاث قرى على حلم شرودِ
وعلا رصاص الثائرين موقعاً نغم الخلودِ
واذا (هولاكو) على ابوابها وفر العديدِ
متحفز للبطش .. والاجرام ... خفاق
[البنود
وعلا دوي المدفعية فاختفى طيف الرقودِ
واستيقظت مذعورة من نومها ذعر الطريد
أشباحُ اطفال تفر من الوقود الى الوقودِ
وعويل غاداتٍ ممزقة البرودِ
يلطمن شاحبة الخدودِ
ويصحن صيحة يائس فزع شريد
« يا رحمة الله الوحيد »
وفحيح السنة اللظى وخرير اكواخ العبيد
وجسوم قتلى قد نثرن نثار ذابلة الورودِ
وهرير كلب من بعيد
ودبيب شيخ حامل احقاد مظلمة العهودِ
ومضت دقائق خلفتها مثل (عاد) أو (ثمود)
نارٌ وأشلاء مبعثرة على هام النجودِ

* * *

وهناك أطلال القرى وحطام اخوتنا
[الهجود
وصدى صراخ المدفع المسعور والتنك
[العنيد
وانين أتباع الرغيف المرغمين على السجود
للظلم .. للاجرام .. (لله الجديد)
المؤمنين برحمة الله الوحيد
التاركين الارض للكفار اتباع الجحود
الحالمين - كما يقال لهم (بجنات الخلود)
يلقون فيها الحور تسرح في ذرا العيش
[الرغيد

* * *

وهناك قهقهة الجنود
وغناء ليل العربدات يطن في اذن الوجود
وسرور (هولاكو) الجديد
بالموت .. بالدم .. بالدمار .. بفعله السامي
[الحميد
وهتافهم للنصر .. «للنصر المجيد»
وكأن «نابليون» عاد يجر زاهية البنود
ويعيد «للافرنج» تاريخ البطولة والسعود

* * *

وهناك ترتفع انتفاضات الحشود
وتصيح بالسفاح .. بالوغد الحقود
ما أنت «نابليون» ذو العرش الوطيد
ما أنت قهار الفيالق والكتائب والعديد
ما أنت عملاق القضاء فنستنيم الى الركود
أو ما درست مصير سيدك المريد؟
أو ما درست الشعب في تاريخ امتك التليد
كم فيه مثلك من بليد
صنع القيود فكان قربان القيود
وأراد تمثال الخلود فكان تمثال الكنود
لا .. لن تكون اعز من «عبد الحميد»
عرف الوجود أعز منك فلم تردّ خطى
[الوجود
كم قد رأينا - يا مغرور - من «مترنيخ»
[بليد [1]
أمثال سيدك العتيد .

* * *

يا من تقوم على القساوة والحديد
انا لنهزأ كلنا .. بالنار .. بالدم .. بالحديد
وببطش زمرتك الشديد
ولسوف تبصر ثورة الحقد المبيد
وترى علاك على دروب الموت كالعفن
[البديد
وتمر عنك مواكب التاريخ صاخبة النشيد
متغنيات بالمنى .. بالمجد .. بالغد .. بالصمود
وتصيح بالسفاح .. بالعبد الحقود
بحطام عزتك البديد
مهلًا فراعنة النذالة والقذارة والجحود
« إنا نهاية كل جبار عنيد »

***

وهناك لم تزل السنابل والمناجل والحقولْ
مجنونة الاشواق تنتظر الحصاد
وفلول قافلة الجهاد
لكنها ظلت نداءً في الجبال وفي السهول
للطير .. للارض الحبيبة .. للذبول .

ناجي علوش
الفحيص (الاردن)

---

١ مترنيخ صاحب سياسة التدخل الذي اراد ان يمنع قيام الثورات في اوروبا كلهـــا ولكنه فر بجواز سفر مزور سنة ١٨٤٨ عند اندلاع الثورة في المانيا التي كان رئيس وزرائها.

إجهدي بالدعاء الآخر ...

قصة بقلم م. زيتون

[الى الذين يعيشون في الخيام ،الذين قدموا من ارض عربية ، والذين ينهضون كل يوم على صدى جرس كنيسة مجاورة . الذين يمضغون القربان المقدس] .

البارحة ياامّ كنت في صلاة الاحد .. اليوم هو الاثنين يـا ام . ولكن البارحة كان أجدى للدعاء .. ان الله يضحك .. ماذا كان دعاؤك يا أم في يوم الاحد ؟

— «الخبز . والسبـــانخ والحليب والدبس وزيت الزيتون يا الله ... وولدي الصغير يالله ... وكذلك ارزق زوجي حامد الذي يعمل بالمدينة يا أبت ..»

ورجعت يا أم مطرقة خجولة صفراء .. ماذا اخجلك يا أم ؟ انك لم تفضحي المنزل كثيراً ... ومع ذلك فـــانه هو الله ، وليس من أحد يستطيع ان يسمع ماذا ارسلت له من اماني .. لقد نسيت أن تطلبي ملحاً للخبز ... زيت زيتون ؟ أي طمع هذا يا أم .. هذا الغالي ؟ لقد استثمرت براءة الله يا أمي ..

ماذا دهاك يا أمي ..؟ الزيت والحليب .. وعصير العنب .. والسيارة . أية براءة مضحكة هذه ايتها العجوز الطيبة ؟

وعدت أيتها الام الطيبة كالظـــافرة ... كنت تمضغين الكلمات التي رددتها أمام الله — ذلك القابع في ناحية ما في اطراف الكنيسة . . كنت تمضغينها كالحالمة بالخبز الجوهري ، الخبز الذي يكفينا يومنا ...

لا تغضبي يا أم ، لقد سألته كل شيء ، حقاً انك تفكرين . هل نسيت أن تذكري له أمانيك الاخرى ؟.. ملح للطعام يا أم .. وبقرة حلوب .. لقد فاتك البعض : ان الخيرات كثيرة أيتها العجوز الطيبـة ... والآحاد ... والاحـــاد كثيرة ايضاً . !

وأتيت بقطعة خبز مكعبة .. وانتظرت ان نلتهم ذراتها مع التسابيح الطويلة الرحمانية «اعطنا خبزنا الجوهري .. واترك لنا ما علينا .. أيها المسيح الرب» ..

هذه الخبزة يا أمي هي التي تحمل الى قلوب العـــائلة الطيبة الثقة بوعود الالـه ... لقد أكلنا جسد المسيح كي يعطينا الخبز الجوهري .. ويترك لناما علينا .. وتكلمنا كثيراً في انفسنا .. ووصفنا الاماني بألف صورة . أية صورة قد منحناها للخبز يا أمي ؟ لقد أصبح الرغيف قطعة من نور ، وولدك الصغير ، لماذا يختلف عن أبناء الناس ؟

لقد بحثت عنك يا أم كثيراً ، لانني لم استطع ان أقاوم الجوع المقيت اكثر من الليـــل بطوله . وعرفت انك في الكنيسة كعادتك .. لماذا هددتني بانك ستغضبين علي ..؟ هل أخطأت في حضرة المصلين أيتها الأم الطيبة ..؟ انني لم أقل شيئاً في الكنيسة يثير غضبك ، لقد قلت لك انني أريد أن آكل ولم يسمعني ، ولا حتى ذلك المصلي المجاور لنا ... لقد همست همساً يا أم ، هل أخطأت ..؟ لم أكن أفهم أن ذلك ممنوع في حضرة الله ؟

ونهرتني ... وخرجت ، ألم أطع امرك ؟ وعـدت مرة أخرى ، لانني كنت جائعاً للغاية ، وكانت الصلاة طويلة ذلك اليوم . والدعاء ، لقد سئمت دعـــاء ذلك العجوز .. عمي .. وأحسست أن دعاءك كان اصدق من أي دعاء آخر . كان مركزاً يا أمي وصادقاً أبداً ، كما لو أنني أتكلم عما أريد .. لكن عمي ، لقد كرهت دعاءه بقدر الخليط الغريب الذي جاء - الرحمة ورضاء الوالدين والاصدقاء والشرف مع الباذنجان والبصـل وحليب الجاموس — .. أي دعاء سمعته على لسانك يا امي .؟ هذه المطالب العادلة ، لقد انستني أني أتيتك للمرة الثانية ، وانني جائع لكل ما هو جاهز وسريع .

ورأيتك تتخطين المصلين الى ابي ، وتقبلين يده النورانية . فعرفت أن ذلك أوفق لأمانيك .. آه ايتها العجوز الطيبة ! لقد كنت تحكمين الطريق على الله ... كي يضطر ... كي يضطر أن يعطيك خبزك الجوهري ، ويترك لك ما عليك ، ما أجمل كل هذا ايتها الام الطيبة !

وعدت في ذلك الصباح مسرعاً الى خيمتنا ، ولقد سبقتك كثيراً في طريقي الى هناك . ولست أدري كم كنت مرتاحاً لكل ما طلبته من الله ! لقد تطاير الفرح من ذهني كالشرر ، ونسيت لبضع ساعات أخرى حاجتي للاكل .. اي أمـــي الطيبة .. ما هذا الذي تدركينه عن الله .. مستودعاته .. ومكان حضرته .. والطريق المؤدي الى رضاه .. ؟

أي امي الطيبة .. ! لقد خلفت لي الآمال المزهوة ، أحقاً ان الله يفي بالوعود ؟ اي امي ! هل ينبغي للاطفال ان يطلبوا

إشياء صغيره ... صغيرة للغاية .؟ لقد حدثت اخي الصغير وكذلك سميح – سميح ابن ام وليد – لقد اتفقنا ان نضرع الى الله .. ان نقول له « ايها الاب العالي .. امنحنا الذي كانت امي تطلبه » ذلك الدعاء يا امي ، كان اصدق دعاء يمكن ان نعيده على مسامع أبينا العالي .. أن نعيده دوماً .

وعندما اتيت الى الخيمة .. كان طرف منديلك يحمل الينا قطعة خبز مكعبة ، وكنت تضغطينها في راحتيك . ولقد كنت لا اعرف كل ذلك يا امي . وقلت لنا ان هذا هو القربان ، هذا « جسد المسيح » الذي يحب الناس يا أبنائي ، وقلت ان قطعة منه تكفي لان يبقى احدنا دون جوع يوماً كاملا ...

وقسمتِ القربان المقدس بيننا ، وكانت حصتي – لست ادري لماذا – اصغر من غيري بقليل ... وعندما التهمتها – وكنت جائعاً منذ الليلة الماضية كما تذكرين – شعرت انها لم تحقق في فراغ معدتي رغبة ما . ولكنني سكت على ذلك – وكنت اخاف ان تغضبي علي . . وبقيت يوماً كاملاً في جوعي الصامت .

آه .. يا امي الطيبة .. اليوم هو الاثنين ، وما من سبيل يا أمي . ففي كل بقعة من جسدي يقع ألم مريع .. ألم حرمان مخدر . وما من سبيل يا امي الطيبة . ليس هناك صلاة كبرى اليوم . وليس من أمل في قبول دعاء الاطفال بمعزل عن امهاتهم ... وأنت غائبة منذ الصباح الباكر .. اين ذهبت . ؟

انني اعلم الآن صلاة اليوم .. أين سأبحث عنك ؟ لم تذهبي فيما سبق الى مكان اخر سوى الكنيسة .. ومع ذلك فقد كنت تخلفين لنا في « المعجن » قطعاً من الخبز اليابس. أما اليوم ، فليس في خيمتنا الا حيرة وتساؤل .. أيجوز انك ذهبت لتقابلي الله في مكان آخر .؟ ذكريه اذن « بالمعجن » . آه يا امي الطيبة ،انك لن تنسي ذلك مطلقاً ...

هل ستعودين حقاً يا امي ؟انني اخاف عليك من الوحوش التي تتربص في الطريق . من سيعنى بنا بعدك ؟ من .. من ايتها الام الطيبة ؟

انني جائع الآن .. واخاف ان تتأخري كثيراً . فلقد ارتقت الشمس قبة السماء بكلل بادٍ ، واستبدت اشعتها المحرقة بكل المخلوقات ، وبعد قليل ستنحرف – حتى بأمانينا – نحو العالم الآخر . ولسوف اطير جنوناً عندما يستبد بنا الليل ...

لقد اتى الصغار الي وكلهم يسألون عنك ، وسميح ابن ام وليد ايضاً. يريدون ان ترددي الدعاءعلى مسامع الله ... ولكنني اشعر الان بعدم جدواه ، لست ادري لماذا .! فقط لأن الله بطيء لاستجابة . ثم اننا بحالة خطر ..

لماذا لا تظهرين الآن ... فنحن مرتبكون أيتها الام الطيبة .. هل اغراك الوحوش فذهبت .؟وماذا نعمل نحن .. كيف يستجيب الله للاطفال بمعزل عن امهاتهم ؟ عودي يا أمي ... فها هو الليل .. الليل المخيف ، هل سنتوزع في الطرقات للبحث عنك ..؟

– « هل فهمتم ايها الاطفال؟ كل منكم يبحث في الطريق التي أشرت » .. ما هذا الجرس .. هل هناك صلاة .. اليوم عيد ؟.. ايتها الام الطيبة لعلك تهمين بارسال دعاء آخر .؟

الجامعة السورية – كلية الحقوق — م . زيتون

الأديب الميت !..

بقلم اسمى طوبي

الاديب ملك الامـــة ..
لست ادري من الذي قالهـــا اول مـــا قيلت فوضع في فم الكثيرين عذراً لتطفلهم على حياة الاديب ميتاً ...

والتملك كما أعلم مضى عهده.. وحتى تملك العبيد .. الا ان يكون صـــاحب القول عدّ الاديب شيئاً تافهاً .. حجراً او حفنة تراب يتملكها من يشاء دون ان يخشى حساباً .

ان الاديب الذي يريد هو ان يكون ملكاً للامة يكتب مذكراته ويضمنها كل اسراره ثم ينشرها او يوصي ان تنشر بعد وفاته .. اما ذاك الذي لا يفعل فقد قال صراحة ان اسراره هي ملكه الخاص ويجب ان تذهب معه الى قبره .. وإرادة الميت تحترم دائماً .

لقد عثر الباحثون بين آثار ميّ على مئة رسالة غرامية ارسلت اليها من ادباء تعشقوها عرباً او اجانب. وسروا باللقطة لانها تؤلف كتاباً مضمون الرواج يجذب القراء ... ولكنهم فضلوا لامر ما — لعله الخشية من الاقلام الثائرة — فضلوا استشارة فيلسوف الجيل لطفي السيد .. او عـــلى الاصح ضمان موافقته سلفاً .. واجاب ابو الجامعة : لا .. قالوا : ولماذا ؟ قال : ان اسرار ميّ هي اسرارها الخاصة .. وحتى كاتبو هذه الرسائل لم يعد لهم حق التصرف بها بعد ان ارسلت اليها .. قالوا : يا استـــاذنا ولكنك رجل مستنير سبق عصره بخمسين عاماً !. قال بحزم : هذه مؤامرة عـــلى سر امرأة وكفى .. قالوا : ولكن للتاريخ .. قال : ومن الذي وكلكم بالتاريخ ؟..

ان اصحاب الرأي القائل بان الاديب هو ملك الامة او ملـــك قرائه انما يستندون الى حجة قوامها ان انتاج الكاتب انما يتأثر بحياته الخاصة .. اي انه ينتج انتاجاً قوياً او رقيقاً ، عاطفياً او عقلياً ، وفق الظروف التي تحيط به وقت الانتاج .. ومن حق من يقرأون الاديب ان يعرفوا كيف كانت ظروف حياته عندما انتج هذا المؤلف او ذاك ..

واصحاب هذا الرأي كأنما يريدون ان يتأثر القارىء لا بالكتـــاب بل بمن كتبه .. فكأنهم نسوا الحكمة القائلة .. «انظر الى ما قيل لا الى من قال» طالع ما بين يديك مجرداً من كل المؤثرات؛ ليكن تأثرك انت بمقدار ما فيه من حكمة او عاطفة ، ولا تدع لصاحب القول ، حيـــاً او ميتاً ، لا تدع لشخصيته ، ان تؤثر عليك .

ولست ادري من اين جاءتنا هذه البدعة .. بدعة نبش جثة الميت من قبرها ثم وضعها على المشرحة ، وغرز السكاكين فيها ، بينما نحن لم نغرز هذه السكاكين وصاحب الجثة حي يستطيع الدفاع عن نفسه ... ولكن اغلب ظني اننا اخذناها عن الغرب ، فمن المألوف هناك ان يكتب الكتاب عن حياة الاديب الخاصة ما يشاؤون كما فعلوا مؤخراً بمدام دوستايل وعشاقها ..

ولكن من يحذون حذو الغرب في هذا المضمار ينسون أهم نقطـــة في الموضوع ، وهي ان مزاج الناس في معظم تلك البلدان لا ينفر من هذا .. ففكتور هيجو مثلاً صاحب البؤساء ترك زوجته واولاده وعاش مع مدام دوره اعواماً ، ولما توفيت سار في جنازتها حاسر الرأس يتلاعب الهواء بشعوره البيضاء . ووقف الناس يعزونه على ضريحها .. لا هو بالخجول ، ولا مزاجهم بالمشمئز .

ومدام دوستايل عاشت حياتها مكشوفة لا تستر فيها .. كانت تعايش وهي في الخمسين عشيقاً دون الثلاثين ، الى غير ذلك مما هو معروف عنها .

وازاء هذه النقطة الهامة الاولى تجيء نقطة هامة اخرى وهي ان الاديب الذي يعيش حياته مكشوفة لا يبالي ما يقوله الناس عنه في حياته لن يضيره اي شيء يقال عنه بعـــد مماته .. بل الواقع ان من يكتبون عن هؤلاء الادباء لا يفشون اسراراً اذ لم يكن في حياتهم اسرار وكل معاصريهم يعرفون كيف عاشوا .

ولقد عرفنا نحن في فترة من التاريخ العربي شيئاً كهذا .. كان عندنا ادباء بل شعراء يفاخرون بمباذلهم . فبشار بن برد مثلاً الذي فاخر بالفسق والفجور والذي قُتل تلك القتلة المشهورة بسبب فجوره .. وعمر بن ابي ربيعة الذي عاش غزلياته واذاعها شعراً ، هذان وامثالهما لم يشنهم ان يكتب النـــاس عنهم كل شيء وليس في حياتهم اسرار لم يفاخروا هم بها .

ولكن حالنا اليوم قد تغير ، فمحيطنا لا يستسيغ الفضائح .. وادباؤنا واديباتنا على الاخص اولئك اللواتي تكتمن ، ومن يدري اي حرب دارت بين عقل الواحدة منهن وبين عاطفتها .. واي جهاد جاهدت وتضحيات ضحت لتبقي على سمعتها نقية وعلى احترام الناس لها حية ثم ماتت فجاء من يعتدي على قدس اقداس نفسها لا يرعى للموت حرمة .

ان مصيبتنا هي اننا نأخذ عن الغرب كل شيء ولو تصادم مع خلقنا وتقاليدنا .

والاديب ملك التاريخ ، ولا اعلم من الذي قالها ايضاً ، ولكنها غريبة على مسمعي .. ترى ماذا يهم التاريخ من حياة اديب ؟.. حياته الخاصة..؟ هب ان دي موباسان مات مجنوناً حقاً وهولدرلين مضطرب الاعصاب فقط والفرد دي موسيه مصاب بالصرع الى غير ذلك ، ماذا يهم التاريخ اذا لم تكشف حياتهم الخاصة مادام انتاجهم بين يدي التاريخ يضيف الى خزائن الادب ثروات ثمينة ؟ ولكن هب القول حقاً ، فهل كل من حمل قلماً ليكتب عن اديب ميت هو مؤرخ ... وهو انما يكتب للحقيقة وللتاريخ..؟

ان للمؤرخين صفات خاصة بهم اولها البحث الدقيق ... وفي عشرات الكتب التي كتبت عن مي لم اقرأ لكاتب قابل اطباءها في مستشفى الامراض العقلية وعلم منهم بدقة ماذا كان مرضها ..: او بحث عن خدمها في ايامها الاخيرة واستقصى منهم شؤونها ..؟ فهل وجد من فعل هذا وفاتني الاطلاع عليه.؟ اتمنى ذلك !

ثم ان التجرد عن كل هوى هو صفة اخرى من صفات المؤرخ .. وأغلب ظني ان هذه الاشياء كانت امام عيني لطفي السيد عندما قال لمن وجدوا رسائل مي فودوا نشرها ، كان هذا امام عينيه عندما قال ، ومن الذي وكلكم بالتاريخ؟

ان ابن ياقوت صاحب المعاجم الثلاثة الشهيرة ، معجم الشعراء ومعجم الادباء ومعجم البلدان ، قضى حياته يسير على حماره من بلد الى آخر وينام في خان كل مدينة يبحث ويدقق قبل ان يكتب كلمة في معاجمه .

وهيرودتس ابو التاريخ كان ايام الفراعنة يتنقل من قطر الى آخر على جواده براً وفي المراكب الشراعية بحراً ، وبعد البحث والاستقصاء يكتب بالحرف الواحد.. « هذا ما رأيته بعيني رأسي » او يكتب « هذا لم اره ولكن قيل لي عنه » فتصور دقة المؤرخ .

وبعد فتلك ارائي الخاصة ، وكم يسرني ان اسمع آراء الادباء في الموضوع فهو هام يستحق المعالجة .

اسمى طوبي

الجرذان .. والرواية المعاصرة



بقلم محيي الدين محمد

تبدأ حياة الانسان منذ لحظة وعيه ، ثم لا تنتهي أبداً الا بالنسبة لوعي الآخرين . فالموت ، ذلك القانون الذي غزا الصحراء ، وبابل ، وقارة في بطن الاطلنتيك ، ومحا تواريخ عديدة ، وحضارات قامت على ضفاف النيل والفرات ، وثقافات تأطرت أمام الكوارث واتخذت لها أشكالا ميتة .. ذلك الموت يُهزم امام وعي الفرد ، ويقف قريباً وبعيداً ، كأنه السحر ...

وما زال الجند يدفعون في خطوط النار ، وكلهم يمسكهم حنين للعودة ، أشدّ أسراً من أعتى منطق ، ولا يخلصون من مثل ذلك الحنين الا بقانون واحد : فقد آمن كل جنديّ بأنه هو الفريد الذي يعود سالماً للوطن ... ما ابعد الموت ! حتى وهو في صميمه ..

لم نعش تجربة ما ، امام الموت، فهي مرة واحدة واخيرة، ولكنها مؤجّلة باستمرار .. فما دمنا نقتنص اللحظة، فهناك متسع امام امل جديد ، وحنين جديد .

ان الفناء يحضر العالم من داخل العالم نفسه ، وليس من أذرع تمتد كي تحمل الرجاء .. فما من رجاء !

الوعي الناضج المتأمل ، يلاحظ الطابع الحياديّ للعالم ازاء آلامنا وعذاباتنا ، فهو يقف في جهة مسمّراً .. ذلك « المافيستوفول » يلاحظ « فاوست » المسكين ، وقد أغمي عليه من الرعب ، وتمتد يد كريهة تشد اليها أباً من هنا ، ورفيقاً من هناك .. مخلفة باستمرار من يعي موتهم..! اولئك هم الغرقى .. ليس من يموت .. بل الذي يبقى .. ويلاحظ موت الآخرين ، فماعاد بالنسبة للموتى ألم او ذكرى او حنين ..

صراع غير متكافىء ، ولا تجدى حتى طريقة « ڤابيوس » لوقف ذلك الغزو ..

أهو خارج على الحياة ؟ ابداً ! إنه من صميم الحياة ضمن أحشاء تتلوى برحيق لايؤلف الا محض الحياة . أليس الظلام محمولاً على نفس الكتف التي تحمل النور ؟ ولم تعطنا الحياة الا هذه العظة ، تدبّرهاقسس أرضيون، وعاشها فلاسفة أحرقت الحروف السود ماء اعينهم .

البشر أقوى من قانون الحياة وإذا لم يُنحّ النبل ، فهم أنبل كذلك !! ان الحياة تمنحنا وعياً خاماً يصبح رائعاً وضرورياً خلال صراعاتنا كبشر في قلب العالم . وهي لا تفتأ تسترده ، كلما اربى على الستين والسبعين ، تسترده في صورة موت ، في حين وسمها هذا الوعي النبيل صفة اصبحت لفرط شموها غير لائقة : ان الحياة كاملة ، وزمانها خالد ..! على أننا قد أُعطينا زماناً ضئيلاً ، ليس إلا دورات حول ذلك الجرم الملتهب ،ثم خاتمة من عندنايؤلفها دود قميء اصفر .

خلة ما ، رائعة تؤلف عنصراً هاماً يجمعنا كبشر ، فنحن قد رُكبنا فيما يبدو من النسيان ، ولا يصبح الحزن بعد ساعات إلا ذكرى .. ها هو الالم القاتل الذي دفع (سبارتاكوس) لتحرير امة ، يقعس به مباشرة، وفي لحظة، عن تحرير نفسه .. لقد قُدّ بأكمله من حليف يوشك ان يعود به حيواناً .!! على انه النعيم الواحد الذي يسرّ به .. اننا نعلم كما يعلم « الجيرانيوم » عن أيامه المعدودة ، والذي سيطفيءلهيبها ذلك المدّ الطافح من بحر الموت .. ثم نصرّ بالحياة ، ونتذوق الخمور : كنتكي ١٨٨٥ ، بوردو ١٨٣٠ ونطلق اكاذيب رائعة ومكشوفة ... ونغش في النرد ، ونصادق فتيات جديدات ، مظاهرات عجيبة لاياد وعيون تود ان تعيش للأبد وتفكر فيه .

ويمضي البشر يمارسون العابهم ، ولا يكفي ان يختار الانسان الساعة الملائمة ، فهم فيها كل وقت ، كأنهم قد كلفوا بان يذكّروا بعضهم بالنسيان ..!

شيء ما يأخذ في نهش هذا المسطح الساكن واللزج : يقرضه ، فيما نحاول الامتلاء منه ، دقيق ، ولكنه صميمي من قلب هذا الكون .. غشاء ظاهري لفكرة عميقة ، رمز ونداء .. لآلهة شدها العذاب .!! تكوين رقيق ، ولكنه يملك ان يقلب كل حركة جموداً .. ان يريق ماءالعين ويمتصها

متشفياً حتى الهلام .

شيء ما ، هو بين نتن الجيفة ، وزخم الاحياء ...

« كنت استطيع ان اسمع طيلة الوقت ، الجرذان وهي تنهش جثمان الوالد . وفي النهاية استبدت بي العصبية حتى أوقفته منتصباً في الركن كأنه ساعة بندولية ولكن سرعان ما شرعت الجرذان في نهش قدميه ، وساقيه .. ولم اطق لذلك صبراً .. وكدت ان يغشى علي من الرعب ، فهرعت فراراً ... »[1]

لمن يكن قرص الشمس ، أو الكف التي تمسح ، او الصليب ، الا رموزاً تصوّب هياكلها للسماء .. تطلب الخصب ، او تستنزل الغضب .. وكان ثمة ما هو اكبر من الطقوس ، واعتى من قدرات الرمز والادعية .. يستمع صامتاً ، لكل هذا النحيب ، وتلك الدعاءات ... ولم يكن ليستجيب .. فثمة قانون لكل شيء ... وقد رُسمت حتى لحبات العنب ، وديدان الارض اقدارها ...

على ان الجرد يصبح رمزاً حديثاً لفكرة الموت التابع من الحياة . ذلك الخبيث الناري .. الكاحت باستمرار لهذه الجدران المؤلفة لعالمنا ، والذي يهشمه ، ويحوله اطلالاً .. ذلك العابد المتطرف للقذارة ، والجيف والنتن ..

وكما يمثل ذلك البطين البوذيّ ، ذو الانف الرائع ، والذي يقبع في سهوب الصين والهند ، إلـهاً يسكن تلك السموات الزرقاء ، استطاع ذلك الجرذ الشائن ، والمعلم للبشر ، ان يحتضن فكرة الموت وان ينذر بها .. اخيراً .. هذا هو الغضب الحق . ان نصبح فجأة قادرين على الذكرى ..

« غير ان خوفي لم يكن من الكوليرا بمفردها ، بل كنت ارتعد من البدء للنهاية من الجرذان . فقد كانت تبدو كأنها في دارها .. »[2] على اننا لا نقنع بمثل هذا النذير ، فقد نرتعد احياناً من الغضب بتأثير حادث ما ، ثم نفيق على النحيب ، نحيبنا .

حياة من الذي يمزقها حزن لارواء له . ؟! انها حياتنا.. اننا احياء .. الآن ، احياء ، نعي ، ونشم وندرك .. لقد بغتته الذكرى ! حتى الحزن لا يستطيع ان يشد اليه عبيداً الى الابد !

الحزن ، والالم ، والموت .. الفرح ، والنشوة ، والحياة! من عناصر متقابلة يتألف حسنا الذاتي .. وما كانت حلاوة سعادة لتجذبنا ، لو لم نذق سغب الالم .. وقد تعلق بصر طبيب بجرح غلام يموت .. فماذا وجد في العمق منه ؟!

« لقد ابصرت ديداناً في حجم الخنصر ، مخضبة بالدماء تتلوى اجسامها وترفع رؤوسها الصغيرة البيضاء ، وتختلج سيقانها الدقيقة التي لا حصر لها في قاع الجرح .. »[1]

.. رمز آخر .. حُمل من ضباب الضربات العفوية ، الى رسوخ الاشارة السديدة ... الدود .. صليب جديد يعني ويؤكد نفس المشكلة البشرية ... ولحم الفتى المسكين يُنهش في سكون ؛ والجرح يعمق ! وطوفان من مناشير دقيقة تحك الاعصاب واوعية الدم والنسيج الحي المؤلف لكل ذلك الشكل الانساني ، والمحكوم عليه بالموت ..، ولا يمد الطبيب ، ولا يفكر بان يمد يمناه لينتزع تلك الرموز البيض .. فقد اهملت افواهها ، ووقف البشر : العلم والخرافة عاجزاً امام هذا الصنم الضئيل الذي يعمل بدون فكر ومع ذلك بارادة كاملة .

وحتما تُخلق ديدان أخر ، تكمل المأساة، ديدان لاحصر لها ،يتألف منها الجرح الذي يفتك بالمسكين. وكما يفر ذكاء الانسان امام اتفه ظاهرة طبيعية ، كمطر ، أو زلزال ، او مدّ عال ، يسرج الطبيب جواديه ، ويهرب في الثلوج ، كما هرب الطبيب الآخر من الكوليرا في صيدلية « سان جنارو »

الم يعثروا على ذرّة التقابل الاخرى ، التي تؤلف عنصر الموت ؟ وامام الكارثة لا يستطيع حتى الدين ان يمنح عزاءه . !

« – ألا تنقذني ؟! »[2] ..صيحة البشر امام عنف الضربات ولكم تسع الصدور . ! وهذه اشد المعارك وحشية .. فقد كان يعطى للعبد الروماني خنجر صغير ، يقف به امام فهود لا يجندلها حتى الف سهم ، وكان محكوماً عليه بالموت ، فأن يموت باقل امل ، هو اشد ارضاء لارادة البشر من ان يقف اعزل مجرداً ، وبلا امل ، امام ما هو اقل إضناء من الموت .

. ولكم يطلب البشر الانقاذ!

١ فصل (الكوليرا في نابولي) من كتاب (احدوثة سان ميكيل) لاكسيل مونتيه.

٢ احدوثة سان ميكيل .

١ (طبيب القرية) فرانز كافكا .

٢ كانت هذه صيحة الغلام ، ودعاءه للطبيب في قصة كافكا. (طبيب القرية)

« اينبغي ان اقنع بمثل هذا الاعتذار . ؟ إني مرغـم للاسف على الرضى به ، بل لا مفر لي من الرضى في جميع الاحوال . فلقد اتيت الى هذا العالم لا املك غير هـذا الجرح الجسيم .. ولم اجلب للعالم شيئاً سواه .. » [١]

الم عميق ووحيد .. يستطيع نزع هذا الاعتراف .. ! ايدلي الخاطيء بكل اوزاره امام المذبح ؟ . وماذا يبقى لذاته .؟! وما الذي يبقيه ما هو .. إذا منح كل نفسه للآخرين .؟!

وكذلك .. فليس .. إلا حزن واحد يستطيع ان يبرز للسطح كل الكنوز الغارقة والدفينة منذ لمسات الوعي الاولى. إنها احزان جراحاتنا كبشر ، امام لامنطقية الحياة ..

مكنة واحدة ، استطاعت في تاريخ البشر ان تصارع بأمل .. وقفت امام الطغيان الاقل ، لتمنحه تصوراً اعنف واشد دموية . ، ولكنها صمدت تاركة اثراً غير ذي خطر ، ولكنه مرضي عنه ... انها رغبة ذلك الفارس الاسباني النبيل « الدون كيشوت » . ولم يلبث حتى وجد معنى للشر ، فقابله بابتهاج ، وبلا يأس ، ولم يقم حول دعوته اسواراً : فاما هو .. واما هم ؛ ولقد مات شريفاً .!

كان بعض الجند البواسل [٢] ، الذين قدموا من مقاطعات (الروهر) وعلى طول (الراين) والغابة السوداء، يلقون مصيراً بشعاً فيما يناضلون من اجل ارضهم ضد تدخلات أجنبية غاصبة . فقد قامت ، من بطن ارضهم ، من ارض الذكريات ، والصلابة ، جرذان من حجم مهول ، تخترق الخنادق كالشهب ، وتلتهم اللحم الذي ما زالت تئن فيه الروح ، مكتنزة ، سمينة ، غير مبالية ... وكان ثمة الجرحى ! آه .. ها هي دغدغات مؤلمة تمر كما يمر طرف السكين على العنق ، باعضائهم ، فيما يحدقون في زرقة السماء .. يحاولون الفهم ! وكانت الجرذان تنهش الاذرع والارجل ، والاحشاء فيما يحدق فيها اصحابها !

هي هنا الخيانة ! لقد امتصوا .. وما عاد هناك امل .. أيمسكون بأعواد قش ؟ وكانت تطارد بدون فائدة .. فهي في كل شيء : في علب الطعام ، وفي الخوذ وفي النفس وفي حراب العدو .. عند اي منعطف ، وفي اكمام شجرة تفاح ومن قلب اي طلل ..

انه يظهر عقب كل مأساة بشرية .. في الحروب ، والاوبئة والفيضانات .. وهو ليس حظاً يضرب هنا ، ثم لا يضرب هناك .. ففي تلك الايام التي كانوا يحسبون فيها تقدم البندقية مظهراً لنهاية البشر كان الاحساس ضئيلاً بالكارثة ، بل كان احساساً تاريخياً اكثر منه معاشاً .. ، ولم يلتفت – من قلب عزلتهم – الى تلك الجراحات .. فلم تكن المأساة قد غزت بعد كل البشر .. اذ كانت فكرة الخلاص الدينية تؤلف مصير فريق ، وتحرق مصير الفريق الآخر ..

اما الجرذان ، فقد ظهرت في (بومبي) بكل قسوتها ، بعد الطوفان المهلك للصخور ، واللافا من الثقب الجهنمي لفيزوف .. وقد بدت اثر كل خطوة تقدمتها جحافل (أتيلا) و(جنكيز خان) ، وطفت مع مياه (الكنج) و(بو)... وصخور (فوزي ياما) ..هي..هي لم يتخلف عنها واحد .. فهي مدعوة من كل شق وجحر ومن كل امتداد لأنبوبة مجاري ، لتحيل ارض الجمال هذه خراباً وركاماً ..

وليس الصراع اخيراً بين الجرذ والانسان ، فمتى كان الجرذ نداً لهذا المخ الرائع بكل فولاذه ، ومصانعه واسلحته؟

اما الامل .. فقد دفن ، ولم تبق الا ارادة الصراع .. وقد نسي ذلك الشيخ الجليل الذي شال يوماً سيفه الرائع ، ووقف بدرع اجداده يدافع عن كياننا وكيانه ، ونسيت رغبته في ان يظل الشرف يحكم لا المنفعة ، وقد كاد ان ينجح في توصيل رغبته للاجيال من بعده .. ولكن الطمع يؤلف انسجة البطن والدماغ .. اذ نسي البشر مغزى المأساة .. فاكتنزوا الذهب . بلا ضمائر ، ثم ماتوا كالخراف .. ولم يكن كل مساء بالنسبة لهم ، الا فترة للتفكير في نصب احبولة جديدة .. في حين كان كل مساء بالنسبة لكونفوشيوس .. هو آخر مساء ..

وفي مبدأ الامر كان البشر يستجيبون لرغبة الفضول ، فيتساءلون ، ويعجبون ، ويشتمون ! فها هو عدو لبيب يحصرهم في واد املس ، ولا يملكون حجراً للدفاع .. وقد يكفي غموض هذا العدو ، لحملهم على الاستسلام ، ومع ذلك فقد رفضوا ان يقتلوا في نفوسهم كل إرادة وكل حس .. ولقد علمنا هذا العدو بعض المزايا ، فقد علمنا الا نقيم وزناً للامل او البهجة ..

---

١ نفس المصدر

٢ (كل شيء هادىء في الميدان الغربي) ماريا رمارك.

وهو ليس كياناً تُستطاع مغالبته ، او الفرار منه ،وهو ليس الا وعاء مُنح حق هزمنا ، واعطيت له اسهم مسمومة، وحراب ثقيلة ، ثم اشير له نحونا . وهو يتسلل .. غير انه مكشوف، و كأنه غير جدي.. بعيد ، وقريب ..

وكما مُنحت لنا نتيجة الصراع ، مُنحنا ارادة الصراع .. وهذا الود الذي نقابل به مأساتنـــا ، ليس الا نتيجة حس فائق بعدم جدوى النواح . فبعد ان كانت الشعور تقطع ، وتمزق الجيوب ، وتلطخ الوجوه بالطين والتراب، اصبحنـــا نضع زهرات الياسمين ، ونوّار البرتقال على جثث موتانا ..

فقد قبلنا ان نعيش ، وكان من نتيجة هذا ان سكنت الحضارة عالمنا بشكل ذي مغزى، وكانت الثقافات الدينية هي الغالبة ، ايام حروب الجياد ، والنوق، اذ كانت حاجة البشر للاطمئنان أشد من حاجتهم للعيش الطيب . وقـد ساهمت «يوتوبيا» ما بعد الموت في شد هذا الوتر ..

واذ عرّفنا الثقافة المعاصرة بانها اتجاه لقتل روح القطيع ، وانماء الوعي الفردي ، ندرك لمـــاذا لم ينبثق روح العلم من ارض الكهانات !

وقد ظهرت الجرذان في (وهران)[1] ، كأنها غزو مغولي ولا يصدق الحارس شيئاً،فكم تبدو له الردهات هادئة،طويلة، نظيفة. ثم يفاجأ بموتاها تملأ الدرجات لقد كان الحكم سديداً، وجُلب كل ما ينفع للقتال من صُلب ونار ، ووضعت خطط رائعة ،وقُلب كل ذلك العالم الذي كان موشكاً على النعاس.

ويُقبل الطاعون ، ويدلف للمدينة ، خفيفاً وبلا جلبة.. ثم تُعزل(وهران)، وما تفيد العزلة؟ انه موجود في(وهران) وفي غير (وهران) من المدن والقرى .. ألم تلفظهـا مجاري (نابولي) ? أما كانت هي التي التهمت مكتبـــتي (بغداد) و (الاسكندرية) ? .. أليست هي التي ظهرت في (يننا) و(اوسترلتز) و(قادش) و (ميسولونجي) ? ولكن الصراع لا يفتأ يستمر ..وتهيأ المصائد،وتربى الهرر ..وتقتنى البنادق ويوجه الاطفال : هذه البراعم التي في قدرتها ان تغنّي الشعر، وان تعزف الموسيقى ، وان تساهم في تفجير كل ضياء .. هذه البراعم تعد منذ الفتح ، كي تستقبل الحقد والاسى !

وقد جُند حتى اللصوص لمنع غزو الكوليرا، والطاعون في نابولي و(وهران).. ولكنه لا يجدي ،فهذا الغزو ابدي، وهو يحضرنا كل لحظة ، فان ارضاً تخترقها المياه ، لا تعدم ان تنبت حتى العشب الضار ..بدون داع لوجود الانسان.

لقد ضمت الرواية المعاصرة كفها على الحشرة السامة ، و كشفت عن الموت الصميمي القابع في لب الحياة نفسها،وهي لا تعرض لنا حلاً . فما من نهـاية لكل بدء ، وبدؤنا كبشر بلا نهاية ، وهنا ، في هذه الارض الشريفة ،لا يتكرر منظر مرتين ، فقد كانت امم تغزو بعضها على ظهور الخيـل ، ثم اصبحت تتبادل الثقافات .. تمنح وتعطي.. وليس الانسان وحده من يملك ان يقتل ؛ واذا استجبنا لرغبة الطبيعة في ان تنتهي كل حياة بعد مائة عام، فقد يعني هذا ان نموت حقيقة قبل مائة عام ،وما هو الانسان اذا بترنا عنه ارادة الصراع ?

ألا يصبح كاهناً ? وما زال هنــاك مئات من كهنة (الدالاي لاما) يبحثون ، وينقبون عن الحقيقة ، في جوف وديان لا قمم لها . هم اخيراً ، والصمت ..

ولا يستطيع الصمت ان يهب الحياة شيئاً .. وكما يمثل العمل حقيقة النمل، والعبق حقيقة السوسن ، يمثل وعي المأساة حقيقة البشر ..

عالم خرب ، ولكنه مُعاش ، عالم جرذان ، ودود .. ولكنه يمتلىء رغبة ، زاخر بحرارة اللهاث امام الوعي المباشر، ودفء الايدي ازاء ضخامة العمل ، ورسوخ المخ المصمم تجاه جسامة المسؤولية..برغم حتمية الموت التي تؤلف نهاية المصير.

أنصارع الحياة نفسها ، ام نصارع انفسنا في الحيـاة ، ام نصارعها معاً ?

ان الصراع موجود،وهو لا يطلب الا مزيداً من وضوح البصيرة ، وحنيناً اقل .. وحرارة اكثر ..

كان الانسان حين يموت يطلب صارخاً ان يشهد الضياء، وذلك التفتح الذي يأتي بعد الميعاد ، لم يكن مقبولا ، ولم يكن نفيساً ، كالتوبة الفارغة للص امام المشنقة ! وكانت بضع ذكريات كفيلة بان تعود به من سكون وحدته الجليلة ، الى ضجة علاقاته بالحياة والكون .

أخيراً .. ان الحياة متجددة دوماً .. واولئك الاطفال الذين لعبوا بالاسلحة قد ماتوا .. وامامنا اطفـال جدد .. ووعي جديد ...

.. الجرذان والصراع : ... وكانت الجرذان ، في البدء تلتهم كل شيء !

القاهرة

محيي الدين محمد

---

١ الطاعون : البيركامو .

هي .. ومدينتي

وفرشتِ دربي ..
يا نبع حبي ..
بعيونك المخضوضره ..
تلك التي شربت حياة القاهره ..
ضوضاءها ، وهناءها ..
وضميرها ، ومصيرها ..
وجعلتني قلباً كناري الغناء ..
فضضته بالنور من قلب الهناء ..
اطلقتني حراً اعيش ..
احيا طليقاً في سماكِ ..
كمنى صباكِ ..
حتى هواكَ ..
ذاك الوليد ..
طفلي الوحيد ،
لم تجعليه كأي قيد في ضلوعي ..
يا خبز روحي بعد جوعي ..
بعيونك المخضوضره
اطلقتني .. حراً كقلب القاهره ..

***

وجديلة من فوق فستان تطيش ..
لم تجعليها كالحبال لتخنق القلب الطليق ..
كيما اعيش ،
طفلاً ربيعي الحياه
يا طفلتي الاولى ويا شط الغريق ..
وهواك كان تميمتي ..
حتى اذا عصفت بنا هوج الرياحِ ،
كان الهوى ستر الرياح ، .
يا دفء قلبي ، يا وشاحي ..
يا عمري الآتي إذا اتضح الطريق ..

***

والحب يولد في عيونك اخضرا ،
بالسلم كان مدثراً ..
وجلستِ في قربي بدفئك يا شعاعي ..
وهمست لي ..
« الضوء لي ، والحب لي
وعيونك السمراء لي ما دمت لي
وتكسرت كلماتك السمراء في الثغر الصغير ..
وسألتني ..
« كم ذا تراني يا رفيق العمر يا لحن السنين ؟ »
فأجبت : « مثل مدينتي ..
اني أراك صغيرتي ،
كمدينتي »
فغضبت من قولي اللعين ..
وهتفت بي : « كمدينتك ؟!
تلك التي تلغ الدماء وتنتشي ؟!
تلك التي تلد الفساد وترتشي ؟! »
لكن صديقتيَ الحبيبه
حقاً ، مدينتيَ الحبيبه
تلد الفساد وترتشي ..
وتضم آلاف اللصوص ، تضم آلاف اللصوص ..
لكن صديقتي الحبيبه ،
ما زال فيها ابرياء وطيبون
تلك الملايين البريئه ..
وعيونهم ، كعيونك المخضوضره ،
تلك التى شربت حياة القاهره ،
تلد الاماني الوضيئه ..
هم يا رفيقة عمريه
شعب كناري الغناء
فضضته بالنور من قلب الهناء
اطلقته حراً يعيش ..
حراً طليقاً في سماكِ
بعيونك المخضوضره
اطلقتهم .. أطلقتني .. حراً ، كقلب القاهره !

القاهرة — **مجاهد عبد المنعم مجاهد**

حرية الارادة عند برتراند رسل

بقلم الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا

القانون العلمي (او السببي) هو كل قضية كلية عامة يمكن بواسطتها استنتاج شيء او حادثة من وجود شيء او من عدد من الاشياء او الحوادث الاخرى. فاذا سمعت رعداً او لم تر برقاً استنتجت وجود هذا الاخير استنتاجاً، نظراً الى القضية العامة التي تقول : « كل رعد مسبوق ببرق » وكذلك اذا رأيت وقع اقدام على الارض استنتجت وجود انسان . واذا رأينا غروب الشمس توقعنا شروقها في الغد، الخ ...

هذا ولما كان القانون العلمي عاماً من شأنه ان يصدق على حالات كثيرة ، فالمعطى Datum الخاص الذي يستنتج منه يجب ان يخولنا حق الاستنتاج من حيث ان فيه مميزاً عاماً لا من حيث انه شيء جزئي، اذ المسائل الجزئية لا اهمية لها في القانون العلمي لانه بحكم التعريف قضية كلية . وحسب الجزئيات ان تمت الى نوع معين : فنحن نستنتج البرق الذي لم نره من محض الرعد من حيث انه مشابه لبروق اخرى . فالقانون العلمي يجب ان يقرر اذن ان وجود شيء من نوع خاص من شأنه ان يتضمن وجود شيء آخر له علاقة بالاول، وهذه العلاقة ثابتة ما دام الاول يمت الى هذا النوع . وبعبارة اخرى ان ما هو ثابت في القانون العلمي ليس الشيء او الاشياء الجزئية ، وانما هو الاضافة (او العلاقة) بين الشيء المذكور والشيء المستنتج . فالمبدأ القائل : « نفس العلة ، نفس المعلول » والذي يزعم البعض انه مبدأ العلية لا صحة له، لان « نفس » العلة لا تتكرر ابداً . وانما الذي يتكرر هو العلاقة او الاضافة .

ولما كانت العلية تجري في زمن، فلابد من وجود اضافة زمنية من التعاقب بين الحادثة – علة، والحادثة – معلول . وهذه الاضافة الزمنية يجب ان يتحقق فيها بعض الدقة .

واول ما يعنى به برتراند رسل هو تحليل طبيعة اليقين الذي تشتمل عليه القوانين العلمية . فيقول ان اول خطوة يخطوها فكرنا في هذا السبيل هي اكتشاف وجوه التعاقب المطرد في سير حوادث الطبيعة . فتكرار هذه التعاقبات يولد فينا احساس التوقع الذي يظهر كلما تحققت الحادثة الاولى ، اي الحادثة – علة ، فنتوقع الحادثة – معلول .

حتى الآن لم يأت برتراند رسل بجديد . فكل ما قاله قد سبقه اليه الفيلسوف الانكليزي داود هيوم الذي وقف في تحليله للعلية عند هذا الحد . ولكنه على ما يبدو يشعر بامكانية التوسع فيه .

لكن فيلسوفنا يضيف على هيوم ان هذه التوقعات ولو انها تصدق في الغالب ، الا انها تحتمل دائماً بعض الاستثناءات . فالاجسام التي تترك طليقة في الهواء تسقط . ولكن المنطاد والطائرة يرتفعان . ففي هذه الحالة يمكننا ان نستبدل الاطراد الذي لم يصدق باطراد آخر اوسع نطاقاً منه ينطوي على عدد اكبر في الظروف وتندرج فيه الحالات الصادقة والخائبة من الاطراد السابق : ان الاجسام المتروكة في الهواء تسقط مالم تكن منطاداً او طائرة . وهذه مبادىء الميكانيكا تقدم لنا اطرادات تنطبق على المناطيد والطائرات كما تنطبق على الأجسام التي تسقط في العادة سواء بسواء . فهي اذن تفسر لنا لم ترتفع المناطيد ؟

هذا وان الكلمة « علة » ترجع الى المراحل الاولى من تفسير العالم تفسيراً علمياً حيث كان مبلغ الناس من العلم وضع تعميمات صغيرة بدائية تقريبية على امل الوصول الى قوانين لاحقة لا تتغير اكثر ثباتاً : فمثلاً نحن نقول ان الزرنيخ « علة » للموت ما دمنا نجهل العملية الدقيقة التي تؤدي الى هذه النتيجة . لكن هذه الكلمة المطاطة لن يكون لها من وجود عندما يتقدم العلم شوطاً بعيداً وتصاغ قوانين الاشياء . ومع هذا فالكلمة « علة » على رداءتها وذبذبتها يمكن الاحتفاظ بها . هنالك يمكن النظر الى الحادثة السابقة على انها « علة » والى الحادثة اللاحقة على انها « معلولة » . ففي هذا المعنى فقط يمكن استخدام الكلمتين « علة » و « معلول » شريطة الا تتمثل الرابطة بينهما ضرورية بل محض احتمالية . وهذا ما نقصده عندما نقول ان حادثة خاصة « علة » لحادثة اخرى .

والآن بمَ نبرر اعتقادنا بقوانين علية صحيحة في المستقبل وفي حالات غير مشاهدة من الماضي ؟ اي كيف نبرر اعتقادنا بكلية قانون العلية؟ وبعبارة اخرى هل هناك ما يجعلنا نعتقد بأن قانوناً علمياً خاصاً – ناموس الجاذبية مثلاً – سيظل صحيحاً في المستقبل ؟

لقد يقال ان جميع استنتاجاتنا المتعلقة بالمستقبل لا قيمة لها . وهذا القول لا غبار عليه في نظر فيلسوفنا . ولكن مع التسليم بصحة استنتاجاتنا جميعاً يمكننا ان نتساءل : اذا كانت استنتاجاتنا الخاصة بالمستقبل صحيحة فما هو المبدأ الذي نستند اليه عند صياغتنا لها ؟

يجيب رسل بأن هذا هو مبدأ الاستقراء Induction وهو مبدأ سابق على التجربة a priori، اي لقد فطر الانسان عليه ولا يمكن للتجربة ان تثبته ولا ان تنقضه . ورغم صعوبة هـذا المبدأ فهو يحاول صياغته على الوجه التالي كيما يوجد ضمانة للاستنتاجات التي نأمل استخراجها منه : « اذا كان شيء من نوع ما مرتبطاً على نحو ما في عدد كبير في الحالات بشيء من نوع آخر فمن المحتمل ان الشيء من النوع الاول يظل يرتبط دائماً على نفس النحو بالشيء الذي من النوع الآخر، وكلما كان عدد الحالات المترابطة كذلك كبيراً اقترب الاحتمال من درجة اليقين » .

لقد نتساءل عما اذا كانت هذه القضية صحيحة . ان من الصعب جداً الاجابة على هذا السؤال . لكننا اذا سلمنا بصحتها فيمكننا ان نستنتج ان ما كان خاصاً بمجموع الماضي يجب ان ينطبق كذلك على المستقبل وعلى حالات غير مشاهدة من الماضي . وهكذا فاذا كانت القضية صحيحة فسيكون فيها ضمانة لأن نستنتج ان من المحتمل ان القوانين العلمية صحيحة في كل لحظة سواء في الماضي ام في المستقبل . ومن غير هذا المبدأ فان الحالات المشاهدة التي تشهد بصحة القوانين العلمية لا تبرر صدق الحالات غير المشاهدة .

وهكذا فان مبدأ الاستقراء – لا مبدأ العلية – هو الاساس في كل استنتاج متعلق باشياء ليست في متناول ايدينا مباشرة ، وبفضله يمكن اثبات كل ما يراد اثباته وبدونه تظل استنتاجاتنا لاقيمة لها . ان هذا المبدأ يجهله اصحاب المنطق الاستدلالي . لكن اولئك الذين يعولون على الغاية من الاستقراء يؤكدون ان كل منطق هو تجريبي واذن فليس من المتوقع من هؤلاء ان يتصوروا ان الاستقراء نفسه يفتقر الى مبدأ منطقي آخر لاثباته . واذن فيجب ان يكون هذا المبدأ سابقاً على التجربة – هو لا مبدأ العلية . وهكذا فاذا تساءلنا عما اذا كانت الاستنتاجات من الماضي الى المستقبل صحيحة ، فالجواب يتوقف على مدى صحة مبدأ الاستقراء : فاذا كان هذا المبدأ صحيحاً فاستنتاجاتنا صحيحة واذا كان خاطئاً فهي كاذبة .

هذا وان فكرة العلية كانت مرتبطة دائماً في الماضي بالارادة الانسانية . فكان الناس يتخيلون العلة فاعلة والمعلول منفعلاً . ومن ثم اصبح المعلول غاية تهدف اليها العلة . وهذا ما يفسر ان فلسفة الاوائل وفي اذيالها فلسفة القرون الوسطى كانت موسومة دائماً بطابع الغائية teleology وهذا ما جعل ماخ واوجست كومت واصحاب المدرسة الوضعية ينادون بضرورة الاقتصار على تفسير حوادث الطبيعة تفسيراً وصفياً Descriptive لا تشوبه اي شائبة غائية : فالفيزياء ليس من شأنها ان تقول لنا لماذا تحدث الاشياء ، بل وظيفتها مقصورة على ان تقول لنا « كيف » هي تحدث ، اي ان نصفها فقط .

واخيراً الى اي حد تخضع الارادة الانسانية للقوانين العلمية ؟ وبعبارة اخرى هل الارادة الانسانية حرة ؟ يجيب فيلسوفنا : انها حرة مع خضوعها خضوعاً تاماً لهذه القوانين .

اننا عندما نمعن التفكير في هذا الامر نجد ان فينا احساساً ذاتياً عميقاً بحريتنا . وهذا الاحساس جعل البعض يعارضون ان يكون للارادة الانسانية علل . ان هذا الاحساس ليس غير شعورنا بالقدرة على ان نختار من بين عدة امور الأمر الذي يروق لنا . إلا انه لايثبت لنا عدم وجود رابطة علية بين ما يروق لنا اختياره وبين حياتنا الماضية . ان ما يخيل الينا من عدم وجود اتفاق بينهما مصدره تعودنا على تصور العلل كاراداتنا : فنحن نزعم ان العلة تجبر المعلول . وقد رأينا الا اجبار في الامر . فلا العلة تجبر المعلول ولا المعلول يجبر العلة . فكل ما في الامر ان بين العلة والمعلول اضافة (اي علاقة) تبادل لا اضافة اجبار ، بمعنى ان ايا منها يمكن استنتاجه من الآخر ..

ان ما يخيل الينا من ان المستقبل غير متعين بعد – وهذه دعوى القائلين بحرية الارادة – مصدره جهلنا بما سيقع لا أن المستقبل غير متعين بعد . فحرية الارادة لا تتعارض ابداً مع المعرفة العميقة . من الواضح ان المعرفة الكاملة تشمل المستقبل كما تشمل الماضي . ولو اطلعنا على المستقبل لرأيناه متعيناً تعين الماضي بالضبط . فلو قدر لنا ان نرى حوادث المستقبل كما نرى حوادث الماضي فما علاقة حرية الارادة بهذا؟ ان هذه الحرية مستقلة غاية الاستقلال عن الحتمية بل انها لاتتعارض مطلقاً مع ان يكون للعالم ناموس علي لا يتغير ولايتزحزح . إن حرية كهذه – لو وجدت – من شأنها ان تحتوي على كل ما تحتوي عليه حريتنا ، لان من المستحيل ان يكون محض الجهل شرطاً ضرورياً للحرية الفعلية .

لنتصور كائنات على احاطة تامة بالمستقبل ولننظر فيما اذا كان لديهم شيء يشبه ما نسميه بحرية الارادة . ان هؤلاء لن ينتظروا وقوع الحادثة لمعرفة القرار الذي سيتخذونه منها في المستقبل . فهم يعلمون الآن ما ستكون عليه ارادتهم فيما بعد . ترى هل يأسفون على هذه المعرفة؟ يقيناً لا ، إذ ان معرفة هؤلاء بالمستقبل ليست هي التي خلقت المستقبل ، كما ان الذاكرة ليست هي التي خلقت الماضي . فنحن يمكن ان نكون احراراً في المستقبل ولو عرفنا ما ستكون عليه ارادتنا فيه .

وخلاصة القول ان قانون العلية الصارم الذي ينادي به الكثيرون هو في نظر فيلسوفنا قانون مثالي لا يصار الى الوقوف عليه الا باكتشاف علاقات جديدة يوماً بعد يوم من شأنها ان تخفف الاستثناء في حوادث الطبيعة بتوسيع دائرة البحث في كل فرع حتى يتناول القانون عدداً اكبر من الجزئيات . وستظل قوانيننا قابلة للاستثناء ما لم تتسع العلة حتى تتناول الكون بأسره . واذن فالقانون العلي ليس امراً يقيناً حتى الان . واما الارادة الانسانية فوجودها لا يتعارض في شيء مع خضوع الكون لقوانين علية صارمة تجري الحوادث على مقتضاها ، لان الارادة مستقلة عن سير هذه الحوادث سيراً حتمياً ولا صلة لها بها البتة .

محمد عبد الرحمن مرحبا — طرابلس

صندوق الدقيق

قصة بقلم فاضل السباعي

انطلق مفيد ، في ذلك الصباح ، من بيته في طريقه الى قصر العدل ، وقد تأبط محفظة أحال لونها البني ما توالى عليها من سنين، تنوء بما احتملت بين احشائها من اوراق ووثائق واضابير ... وان مفيـــداً لحريص كل الحرص – اذ ينطلق الى عمله كل صباح – ان يخرج من بيتـــه في « حي الجديدة » مبكراً ، لئلا يفوته التمتع بميزة التخفيض الممنوحـــة لركاب الحافلات فيما قبل السابعة والنصف صباحاً ، حيث يمنحون تذكرة تخولهم حق الاياب الى بيوتهم مجاناً في الوقت الذي يشاؤون !.

وخلف مفيد الزقاق وراءه ، قبيل السابعة من ذلك الصباح ، يحدوه في ذلك نشاط واقتدار – على غير عادته – ولكن يخالطهما غير قليل من القلق والخوف والرجاء ... ماراً في طريقه بسوق الخضار في الحي ، متسمعاً – برغمه – الى الباعة،كل ينادي متحمساً على ما اصطف امام دكانه من سلال الخضرة والفاكهة ، فكلها يافع طازج قد اقتطف في الليل المنصرم ووصل منذ هنيهات !.. حتى تناهى به المسير الى«جادة الخندق ».. وهناك وقف يترقب مقدم الحافلة من صوب « باب الفرج » لتقله الى قصر العدل «تحت القلعة».

قالت له امه قبل ان يغادر البيت منذ لحظات :

– ابني ... ان صندوق الدقيق قد شارف على النهاية ... فحبذا لو مررت ، في طريق عودتك في الظهيرة ، بابي يوسف الخانجي ، فبعثت لنا بشوال حنطة !.

فتفكر مفيد في قولها قبل ان يجيب ... وتخيـــل ذلك الصندوق الحديدي الرابض منذ عديد من السنين في جانب من القبو ، قد ورثته امه عن والدها الكريم ، واختصته لان تضع فيه الدقيق ، لتحول – صنيع والدها ! – بين قوتهم الشحيح وبين الفئران التي تصول في القبو على غير طائل لتموت في آخر الامر غير مأسوف عليها من لسعات الجوع المريرة !. تصور مفيد هذا الصندوق يبين للرائي قاعة من خلاء وخواء ، او يكاد يبين !. لكم نغص هذا الصندوق عليه عيشه!..إنه دائماً يحث خطاه الى ان يفرغ سريعاً ويخوي مما يودع فيه من قوت يمسك عليهم الحياة !.. ومفيد ليس يدري ، اهو وامه وحدهما يبتلعان محتوى الصندوق جميعاً ، ام ان الصنـــدوق ذاته يشاركهما في ذلك ، فيتناول في كل يوم وجبة منه عظيمة لا يكاد يبقى معها في الصندوق من الدقيق شيء ؟.. وها هوذا اليوم قد خوى ، وليس في جيب مفيد ما يكفل لان يرد على الصندوق امتلاءه ورواءه .. على انه – مع ذلك – قال لامه بلهجة كلها صدق وتأكيد :

– حسناً ... لسوف اقبض اليوم خمسين ليرة ... وستكون الحنطة عندك مع الظهر !.

وليس يدرى مفيد – الآن – كيف القى الى امه بهذا الوعد الذي ادخل الى نفسها السرور والرضا والارتياح ، والذي ينطوي على كثير من التجوز والمغالاة ، كما لو كانت « ذات الخمسين » الليرة في جيب سترته الداخلي ساعة ان قال ما قال ، والحال إنهـــا في كف عفريت ، او هي معلقة ما بين الارض والسماء!..

وقصارى امر الخمسين الليرة ، ان همس الاستاذ المحامي في اذن مفيد مساء البارحة :

– ألست تعرف الحـــاج بكريا الخوام ، تاجر الاقمشة في « سوق المدينة » في اول « سوق الزرب »...الذي دفع الينا منذ حوالي الشهرين بدعوى « تحصيل دين »؟

– بلى ...

– إن المكتب في ذمته خمسين ليرة سورية رصيد حسابنا بخصوص تلك الدعوى ... فامض اليه صباح غد ، وبلغه صدور الحكم لصالحه ... وإن انت حصلت منه الرصيد فهو لك !..

كان مفيد محامياً تحت التمرين ، يعمل في مكتب أستاذه هذا . ولقـــد مضى عليه فيه – منذ تخرج من الجامعة – ثلاثة اشهر ما تنشق خلالها عبير « العملة » ، وما تذوق للكسب طعماً ، على كثرة ما يقوم به من عمل في قصر العدل ، ويرافع فيه من دعاوي !.. كان يعمل لحساب استاذه دون ان يدفع له هذا مقابلاً ، بدعوى انه يحقق له فرصة تحصيل المعرفة والالمام بتفاصيل المهنة واسرارها ، وذاك حسبه !

وهو – ايضاً – ما كان يقدم اليه من ذوي المشاكل إلا الصديق الذي يطمع في صداقته ، والقريب الذي غدا اليوم – فقط – يعتز بقرابته ... وهؤلاء ايضاً لا يدفعون له على خدماته اجراً ... ولا دامت وشيجـــة الصداقـــة ، ولا كانت آصرة القربى ، إن هو ألمح لهم بان جهوده تلك ينبغي ان يكون لها ثمن يتقاضاه كيما يسد على نفسه واهله الرمق ويدفع في عروقهم دم الحياة !.

وفي ذلك ، كان مفيـــد يتندر، بينه وبين نفسه ، على بؤس حاله فيقول: إن « العملة» و « أختي » سواء ، كلاهما علي حرام !

واقلت الحافلة من صوب «باب الفرج » تنوء بما احتشد فيها من خلائق واكتظ من بشر ،تسير لاهثة مبهورة الانفاس ... فاذا حطت امام مفيد دلف اليها واندس فيها بين من اندس من ناس .

واستغرق التفكير مفيداً ، اذ راحت الحافلة تتسارع به وبمـــا حوت من اخلاط واوشاب .. فتذكر استاذه وقد رق له قلبه – يوم البارحة – ورثى لحاله !.فعهد اليه بتحصيل المتبقي من اتعاب قضية الحاج بكري الخوام، على ان يكون حقاً خالصاً له !.

ولقد عرف مفيد ، منذ قدم الى مكتب الاستاذ ، في الحاج بكري الخوام هذا ، رجلاً في مستهل الشيخوخة ، ناحل الجسم طويلاً ، يرتـــدي « الصاية » الحريرية ومن تحتها « السروال » الفاصون الاسود ، يتبدى في حديثه جشع وخسة وخبث !. وقد طال جدله مع الاستاذ من قبل ان يصلا الى اتفاق على الاتعاب ، فلا هو راض ان يدفع المبلغ المنـــاسب ، ولا هو بمستعد ان يبرم عقداً ينص فيه على ما تقدم من الاتعاب وتأخر ، وانما هو يريدها على « البركة ».. وما دفع للاستاذ سوى مائة ليرة بالرغم من اهمية الدعوى « متعللاً بان حركة السوق مشلولة والربح معدوم !..» ثم انطلق خارجاً من المكتب ، بينما كان الاستاذ يرددمن ورائه مؤكداً:

– اما الخمسون الليرة ، فسوف تدفعها بعد صدور الحكم ...

وكان يجيبه الحاج بكري الخوام .

– صل على النبي يا استاذ .. خلها على الله .. بيني وبينك مـــا في

« تكيف » !

***

وصلت الحافلة بمفيد الى منتهى الخط خلف قصر العدل ، فهبط منها ، وجاز دار الحكومة ، ماراً من « تحت القلعة » ، في سبيله الى دكان الحاج بكري الخوام .

فلما اصبح في اول « سوق الزرب » ، بصر بالحاج بكري الخوام في دكانه يتوسط عدداً من الزبائن مقتعدين كراسي قش واطئة ، ينتقون قطعاً من الجوخ متناثرة امامهم ، يحملها اليهم الحاج بكري الخوام ، في الفينة والعينة ، من طرود ضخمة قائمة في فم الدكان ، يحل من حولها الاطواق ، ويستل منها قطع الجوخ .. ثم يعرضها على زبائنه عرض البائع الحاذق الصناع .. ينشر احداها على المنضدة امامهم .. ثم يروح يتمدح ذلك اللون الضارب الى زرقة السماء .. مشيداً بما يستورد من اميركا من « بالات » تضم خير ما يفيض عن مصانع الاجواخ فيها من فضلات قماش ! وهو – في ذلك – يشد طرفاً من القطعة بين يديه شداً يبين للرائي عنيفاً من اجهاد يتبدى على قسمات وجهه اذ يشد ، وليس الشد في الواقع من العنف في شيء ، وانما هو بعض من حذق وفن ومهارة امتاز بها الباعة في « سوق المدينة » في حلب !!

القى مفيد التحية على الحاج بكري الخوام .. فرفع الشارون اليه رؤوسهم يحدوهم في ذلك تطلع وفضول ، وردوا السلام ، ليعودوا بعده الى ما كانوا فيه من انشغال في بيع وشراء ... اما الحاج بكري الخوام ، فقد رفع الى مفيد عينين لم يبق فيهما من الرضا والارتياح شيء ، ليردهما في الحال الى ما كان يشغله من تزويق وشد وطي وتطبيق ، من دون ان يكلف نفسه عناء رد التحية على الضيف الوافد ان كان في رد التحية من عناء .. فكأن الامر لا يعنيه من قريب او بعيد !.. وآية ذلك ، ان الحاج بكريا الخوام عرف – بحاسة التاجر التي لا تخطىء – ما تنطوي عليه هذه الزيارة من معنى ، انه مطالبة بمؤخر الاتعاب ، ولانه ليريد الى ان يروغ من تأديتها فلا يدفع منها قرشاً ! اما نجاح دعواه ، فامر سلم به لديه كل التسليم ، لكونها مدعمة – في اثبات موضوعها – بوثائق واسانيد مكتوبة لا مطعن فيها ولا جدل ، فضلا عن ان حضور هذا الاستاذ اليه في دكانه لبرهان على نجاحها ، فلو كانت خاسرة لما اتاه مع الصبح اليه ينعي حقاً له لفظ انفاسه في ساحات المحاكم !

وظل مفيد واقفاً حيث كان في مدخل الدكان ، في انتظار الشيخ بكري الخوام ، فيقوم اليه يسأله في لهفة عما تم في امر دعواه .. فيزف اليه خبر نجاحها ، ثم لا يحتاج بعد ذلك الى ان يلح في طلب ماله في ذمته من حق . فلا ريب ان الفرصة ستدفع الحاج الى ان يهرع الى اقصى الدكان ، حيث تضم خزانته الحديدية بين جوانحها ما تكاد تمجه من اوراق نقد .. فيسحب من بينها ورقة من ذات الخمسين يدفعها الى مفيد شاكراً له حسن مسعاه !.. ولكن الحاج بكريا الخوام ما بارح مكانه .. بل ما رد التحية ، وهي اضعف الايمان !!

وطال بمفيد الوقوف في باب الدكان ، وقد فهم من ظروف هذا الاستقبال ما يبطنه الحاج بكري الخوام من نية هي التهرب من دفع المتبقي من الاتعاب !.. ولكن ، اما يجدر بالرجل ان يسأل – بالادنى – عن مصير دعواه ؟!

وجعل مفيد يتململ في مكانه ، والحاج بكري الخوام في تشاغل عنه .. الى ان نادى عليه بصوت ارعشه التردد واوهنه الخجل من موقفه ذاك ... ولكن الحاج بكريا الخوام ظل مصماً اذنيه عن النداء ، متشاغلاً بالعرض تارة والمساومة اخرى !

فلما استطال تشاغله كثيراً ، رفع مفيد من صوته اذ جعل يناديه .. فالتفت اليه الحاج بكري الخوام بلفتة خاطفة كما لو كان يسمع صوته ويحس بوجوده للمرة الاولى .. وقال بلهجة تطفح بالاستعطاف مخالطاً بضجر واستكراه :

– عدم المؤاخذة يا استاذ .. انني مشغول كما ترى هذا النهار .. مر علي في وقت آخر !..

وما رأى مفيد بداً من الانصراف ، ولكنه احب ان ينهي – قبل ان ينصرف – الى الحاج بكري الخوام نجاح دعواه ، وان امسك هذا عن السؤال ، فقال :

– على كل .. يهمني ان اخبرك بان الدعوى نجحت !.

فلم يبد على الحاج بكري الخوام انه سر ذلك السرور الذي قدره مفيد .. كل ما بدا عليه ان رد على مفيد بكلمة شكر مقتضبة ، وهو يقلب البضاعة بين يديه !..

وتظاهر مفيد بالرضا ، وتكلف الابتسام ، وسلم ومضى على ان يعود في الظهيرة بعد ان يقوم بعمله اليومي .

وفي طريقه الى قصر العدل ، كان يحس بيد رعناء تتسلل الى صدره لتعتصر له قلبه .. انه عرف طوية الحاج بكري الخوام !.. أتراه سيفقد الخمسين الليرة ، كسبه الاول من المحاماة ، فلا يدخل اليوم خان ابي يوسف ليشتري شوال الحنطة الذي وعد به امه في الصباح ؟!

ووصل الى قصر العدل ، فصعد الى قاعة المحامين ، حيث ارتدى ثوب المحاماة .. ثم ارتد نازلاً الى الطابق الاسفل يتنقل من محكمة الى اخرى ، تراود خياله – في ذلك – صورة الحاج بكري الخوام في جلسته بين زبائنه وتشاغله عن وجوده بالعرض والمساومة ، يدفعه الى ذلك لؤم في الطبع وجشع كريه ..

ولما قاربت الساعة الثانية عشرة ، كان مفيد قد ادى كل ما عليه من واجب . فغادر قصر العدل الى « سوق المدينة » .. فلعل الحاج بكريا

الحوام قد تخففت دكانه من الزبائن ، فيستطيع مفيد ان يطالبه بما له عليه من دين !.

فاذا اصبح في اول « سوق الزرب » ابصر بالحاج بكري الحوام مقبلا من بعيد ، وفي يد منه صرة صغيرة وفي الاخرى رغيفان ، متوجهاً الى دكانه .. وقد لمح هذا بدوره مفيداً فتسارع في مشيته ، ودلف الى الدكان . وتناول في الحال صحناً من « الالمنيوم » من على الرف ، ودلق فيه بمحتوى الصرة ، واذا هو عنقودان من العنب وقطعة من الجبن.

وعندما غدا مفيد في باب الدكان .. كان الحاج بكري الحوام يتربع على « طراحة » فوق سجادة قد انهكها القدم وعضها البلى في كل ضرس وناب .. وامامه طعامه ذاك .. ثم تناول كرسيا من القش من جانبه وجعله فيما بين طعامه وبين انظار المارة لئلا تقع عليه عين .. وشرع يطعم .. وبعدها رفع رأسه الى الضيف ، واللقمة في فمه ، وصاح مرحباً مؤهلا بالاستاذ المحامي .. ثم قال مشيراً الى طعامه :

ـ تفضل شاركني ، يا استاذ ..

ـ صحة وعافية ..

ـ طعامنا كما ترى على قدر الحال : خبز وجبن وعنب .. ونحن جماعة على باب الله !..

ـ فيكم البركة ، يا عم ..

وبعد بضع لقمات انشأ يقول :

ـ عدم المؤاخذة « دخيلك » يا استاذ .. انا اليوم صباحاً كنت مشغولاً كما رأيت .. الشغل كثير والربح معدوم .. وفوق هذا لا يدفع الزبون الثمن نقداً ، بل الدين ولآجال .. ولما نطالبه في الاجل يتهرب من الدفع .. فنقيم عليه دعوى ، اما نكسبها او نخسرها ، فان كسبناها فقد اضعنا فرصة استثمار مبلغ الدين ، كما نضيع وقتنا عند المحامين وفي المحاكم !!.

وسكت ريثما يزدرد لقمة جديدة ، ليقول بعد ذلك مؤكداً :

ـ السوق واقف يا استاذ .. ما في شغل .. اصبح القرش اليوم في فم السبع ، والشاطر الذي يمد يده اليه !..

ولاذ مفيد بالصمت لا ينبس .. وقد ملأت عليه رائحة الجشع نفسه ، فضاق منها صدره . وانقبض قلبه .. وكادت كرامته ان تعاف المضي في مطالبة الحاج بكري الحوام .. ولكن تصور قاع صندوق الدقيق ، فطابت نفسه ، وتطامنت كبرياؤه .. وفتح فاه ليتكلم ، ولكنه ما استحسن ان يطالب بالمتبقي من حقه والرجل ما زال يطعم .. يطعم بالرغيفين والعنقودين وقطعة الجبن ، فلا هو يشبع ، ولا الطعام ينفذ ! ..

وبعد دقائق خالها مفيد ساعات ، شبع الحاج بكري الحوام .. وتجشأ .. واستغفر الله وحمده على نعمائه كثيراً .. ثم قام الى ابريق في طرف من الدكان ، فرفعه الى فمه وجعل يكرع .. وبعدها يسحب قدميه من « صرمايته » .. وشمر سرواله عن رجليه ، وحسر كميه عن ساعديه وجعل يتوضأ ويطيل في الوضوء .. ومفيد في ذلك يستحي ان يقطع على الحاج بكري الحوام ! وضوءه !.. ثم شرع هذا في صلاة الظهر ، وتنفل ما شاء له التنفل ... وجلس ـ بعد كل ذلك ـ الى طراحته في مدخل الدكان قبالة مفيد ، وقال مرحبا :

ـ اهلين استاذ ..

فرآها مفيد فرصة مواتية ليفاتح الرجل بالامر من قبل ان ينهمك في عمل جديد قد لا ينتهي منه الا والمؤذن يدعو لصلاة العصر .. قال :

ـ معلوم لديك ، يا حاج بكري ، ان الدعوى ربحت ؟ ..

فقال الحاج بكري الحوام ، وهو يضع كفه على رأسه صنيع من يروم التعبير عن الشكر والامتنان :

ـ نحن حافظون لكم هذا الجميل يا سيدي .. على الرأس والعين !.

ـ وانك دفعت مقدم الاتعاب فقط ؟ ..

فاتسعت في وجه الحاج بكري الحوام ، الاحداق .. ثم زوى ما بين عينيه وهو يقول بكثير من الدهش والاستنكار :

ـ اي مقدم للاتعاب ومؤخر ؟!.

ـ انت ، يا حاج ، دفعت مائة ليرة ، وباق خمسون !..

ـ اية خمسين ؟!

ـ الخمسون الليرة التي امهلك الاستاذ في دفعها حتى صدور الحكم !..

ـ يا اخي ، اطال الله عمرك .. كل ما فعلتموه ان حضر احدكما جلسة في المحكمة او جلستين !!

ـ وما في ذلك ؟.. اكنت تدفع لنا ، اذن ، كامل حقنا عن طيب خاطر ، او نحن عمدنا الى طلب التأجيل كلما هم القاضي بالفصل في دعواك فلا نستصدر لك الحكم قبل مضي سنة او سنتين ؟!.

وهنا .. بدا ان هذا القول لم يرق للحاج بكري الحوام ، فقد سد عليه منافذ الروغ والتهرب . فقال يريد ان يختتم النقاش :

ـ يا استاذ .. انا دفعت ما ينبغي علي دفعه .. ولستم تملكون حق مطالبتي بشيء !.. أمعك سند يثبت ان لك في ذمتي حقاً ؟؟ .

وما عرف مفيد بما يجيب .. لانه ـ في الحق ـ لا يملك مثل ذلك السند الذي يخوله مطالبة الرجل امام القضاء ، فقد كان الحاج اذكى من ان يمكن خصمه من حق مقاضاته وابعد تفكيراً او تدبيراً ! .

اذن ، فلن يدفع الحاج بكري الحوام الخمسين الليرة ، على الرغم من ان الاستاذ قد اشترط عليه دفعها بعد ان يصدر الحكم ، وقد اجاب في حينها ، « صل على النبي .. خليها على الله » .. ام ترى هذه الاجابة تعني ـ في عرفه ـ الرفض وعدم القبول ؟!. ربما كان الامر كذلك .. وربما كان الاستاذ على علم به ، وانما كان يخامره بعض الامل والرجاء في ان يدفع الحاج بكري الحوام لو طولب ... فتبرع بتلك الحشاشة من الامل الى مفيد !!.

***

ومضى مفيد مخلفاً وراءه « سوق الزرب » . ولما كان يطرق الشارع في طريقه الى الحافلة ، كانت شمس الظهيرة تصب عليه جمرا ولهيبا يسح منه ـ معهما ـ عرقه سحا .. بينما كان يقطع قلبه حنق والم واسى مرير!

ولما مرت به الحافلة في « باب الحديد » ، حيث تعج الخانات عجاً ... القى بناظريه الى خان ابي يوسف .. فرأت عيناه اكياس الحنطة يحملها العتالون الى داخل الخان من شاحنة كبيرة رابضة ازاء مدخله .. واستذكر مفيد قوله لامه في ذلك الصباح .. وتصور صندوق الدقيق وتراءى له قاعه من خلاء وخواء .. وايقن كل اليقين انه لم يعد في وسعه اليوم ـ على الاقل ـ ان يحجب هذا القاع عن ناظري امه وان يعيد الى الصندوق الرواء والحيوية والامتلاء !..

حلب　　　　فاضل السباعي

النتاج الجديد

١ ــ معنى الحرية في العالم العربي

تأليف أنيس قاسم

دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ١٥٩ ص

•

مؤلف هذا الكتاب فلسطيني عربي، درس الحقوق في لندن، ومارس الوظائف القانونية في مملكة ليبيا: هذه صفات تخوله البحث عن معنى الحرية في العالم العربي، كما يحسب الدكتور إسحاق موسى الحسيني، الذي قدّم الكتاب الى القراء.

ينقسم هذا السفر إلى ثلاثة أقسام: ١ – اليقظة الواعية. ٢ – صوت الحقيقة. ٣ – عود على بدء.

القسم الاول ينطوي على ثلاثة فصول: معنى اليقظة، باعث اليقظة، وبوادر اليقظة، وينطوي الثاني على أربعة فصول: صوت الحرية، سوط الرقابة، حرية تقرير المصير، ومنبر الحرية. اما الثالث فلا يضم غير فصل واحد هو نظرة الى المستقبل.

واول ما الاحظ ان المؤلف اخفق في بيان موضوعه الاساسي الذي يضعه عنوان الكتاب امام القارىء. فقد درس الاستاذ القاسم اكثر الموضوعات السياسية والدستورية مما له مساس بالحرية كحق قانوني، ودستوري، وسياسي؛ اما معنى الحرية وفي العالم العربي بالذات – لان للحرية معنى يختلف باختلاف كل عالم – فهذا ما لم يوفق الى ايضاحه. وانك لتبحث عن جواب للسؤال الذي يطرحه العنوان امامك، في جميع صفحات الكتاب وفي مختلف فصوله، فلا تجده!

ذلك بان هنالك فكرة كانت تستحوذ على المؤلف – كما يظهر – قبل وضع تصميم كتابه، وهو انه «لا بد من فلسفة» جديدة للعرب «اذا اردنا ليقظتنا ان لا تكون يقظة عابرة، واذا اردنا لنهضتنا ان لا تعتمد في دوامها او تأثيرها على بقاء اشخاص معينين بدلاً من ان تعتمد على فلسفة امتدت الى عقول الناس وقلوب الناس واستولت عليها واكتسبت لنفسها قوة ذاتية دافعة لا يقف امامها من يرغب في العودة الى الوراء. ولقد كان هذا شأن جميع الحركات التي تركت اثراً في التاريخ الانساني، فالحركة التي لا تسندها فلسفة او فكرة معينة لا تقوى على تطورات الزمن، ولا تترك اثراً باقياً في حياة الناس.»

هذه الطريقة في التفكير خاطئة – وهي التي تكمن وراء اخفاق المؤلف في بيان موضوعه الاساسي – فالفلسفة لا تنشأ لاننا نريدها، او لانه لا بد منها لتحقيق غرض سياسي او اجتماعي معين، وانما تنشأ عفواً، وسط ظروف معينة، على يد رجال يعبرون بها عن امتهم وعصرهم وتطلعات جيلهم ومواقفهم من الكون والحياة والمجتمع والدولة والكائن الانساني، اي ان نشوء فلسفة ما مشروط، مقيد، وما هو بمعلق ابداً على ارادة فرد، او رغبة جماعة، فاذا اصطنع فرد من الافراد «فلسفة» وراح يفرضها على الناس، في بيئة من البيئات – وهذا ما فعله انطون سعاده مثلاً – كان هذا الفرد كفلسفته، تعبيراً عن العبوديات التي تملأ نفسه من جهة، وعن القصور الفكري لدى أتباعه من جهة ثانية.

هذا يفيد ان الحرية النفسية، الصادقة الواعية التي تؤمن بحرية الآخرين، وتفسح لهم المجال لتحقيق حريتهم، اول شرط من شروط نشوء فلسفة ما، ويفيد ايضاً، ان وعي الكثرة، او الشعب وتمرسه بالحضارة، والثقافة، واطلاعه على ما يجري لدى غيره من الشعوب، وتفهمه للآراء السياسية على اختلافها وتنوعها وتعددها – كل هذه الامور تشكل بمجموعها «الشرط الثاني» لنشوء فلسفة. والشرط الثالث والاخير، هو تحقق نوع من الوحدة الثقافية والتاريخية والمدنية لدى مجموعة معينة من الناس تربطها ثقافة واحدة، وتاريخ واحد، وآمال في الحياة المدنية واحدة، ورضا مشترك بالواقع القومي والانطلاق منه نحو التقدم.

اذا تمت هذه الشروط الثلاثة نشأت في الامة فلسفة تصطبغ بصبغتها أولاً، وصبغة العصر ثانياً، وبحاجاتها ومطامحها الروحية أخيراً...

وهذه الشروط تنقص العالم العربي اليوم، فالحرية تجتاز فيه «حالة مفجعة» كما وصفها الدكتور طه حسين في حديث له مع صاحب صحيفة «الاوريان» الفرنسية عام ١٩٤٨، والكثرة من ابنائه ينقصها الوعي والمراس والاطلاع والتفهم، وسياسة الغربيين في معظم اقطاره تهدف الى تفكيك وحدته،

وزرع الشقاق بين جماعاته ، وتضليل النـــاس عن حقيقتهم وتاريخهم وصرفهم عن اهدافهم الوطنية والقومية والانسانية الصحيحة ...

إزاء هذه الاوضاع ، لا يكون للحرية في العالم العربي « معنى » سوى التخلص من سيطرة الاجانب، والحؤول دون تدخلهم في شؤون الاقطار العربية ، ومقاومة الضلالات الشعوبية ، ومكافحة الصهيونية على جميع الجبهات ، وفي جميع بلاد الارض . وكل معنى آخر يعطى لكلمة « الحريـة » في العالم العربي في المرحلة الراهنة من التاريخ ، إنما يكون من قبيل الرياء والدس والتضليل . وهـــذا ما فطن إليه الاستاذ انيس القاسم في آخر فصل من كتابه ، وكان جديراً به ان يضعه اساساً لكتابه ، وينتقل منه الى غيره من الموضوعات الفرعية التي عالجها ، وكان قوياً ، واضحاً في تناولها .

على ان وراء الحرية في العــــالم العربي ، اذا تحققت على النحو الذي يصفه الاستاذ القاسم في كتابه ، معنى خطيراً ، جليلا ضخماً ، يستمد خطورته وجلاله وضخامته ، من الموقع الجغرافي الذي يشغله العالم العربي . فان قيام الامة العربية في قلب العالم القديم وامتداد اقطارها في اطراف آسيا الغربية واطراف افريقيا الشمالية ، يلقي عليها من التبعات الانسانية والحضارية ، ما يحملها دوماً على متابعة الجهد لتحقيق نفسها، والاستمرار في اداء رسالتها ، اذ ليس ثمة من شك في ان تحرر هذه المنـــاطق من الارض ، يؤدي الى تحرر جميع الاسيويين وجميع الافريقيين ، كما انه يفضي الى رفع مستوى الغرب ، وتخليصه من المستنقعات التي يتخبط اليوم فيها ان من ناحية الاستعمار ، وان من ناحية الدجل والكذب ، وان من ناحية الانهيار الخلقي الذي يجعله مستثمراً لثروات الشعوب وجهودها ، مجرماً في الاعتداء عليها .

هذا المعنى « الجيوبوليتي » الذي يكمن وراء حرية العالم العربي ، هو الذي يجعل مهمة العرب شاقة ، عسيرة ، قاسية ، وهو الذي تواجهه النفوس الضعيفة فلا تقوى على التحديق فيه ، وهو الذي يرد الافراد والجماعات عندنا الى حـالة هي الى « التخبط » اقرب ، اذ لا بد للعربي ، لكل عربي ، كي يبلغ مستواه الانساني الصحيح ، من معالجة المشاكل البشرية ، والتهيؤ لمقاومة اكبر عدد من العداوات ، في الداخل والخارج على السواء.

وحسب الاستاذ انيس القاسم من جهده ، في كتابه هذا ، انه اثار هذه القضايا إثارة موفقة ، وعرض اكثرها عرضاً واضحاً غنياً بالمعرفة ، بليغـاً في الاسلوب . ولا غرو ، فهو العربي الفلسطيني ، ومن اجدر من ابناء فلسطـــين العرب، بنشدان الحرية ، والدعوة اليها والدفاع عنها ؟!

•

٢ ـ هذا التاج

تأليف واصف البارودي

المكتبة العلمية - بيروت - ١٧٨ ص.

وهذا مفكر آخر يعالج «حرية الشعب» وطريقة وصوله اليها ، ووسائله الى تحقيقها باسلوب قصصي ، اسطوري، يعتقد انه اقرب الى قلوب العامة ، وابلغ اثراً في نفوسها ، فالكتاب كما يصفه عنوانه «قصة اجتماعية انتقادية» ، أريد منها ، في الدرجة الاولى ، تعليم الشعب ، واطلاعه على تدجيل الحكام ، وتدجيل المشعوذين ، واساليب اولئك المضللين الذين يستثمرون طيبة الناس للتنعم بخيراتهم ، والانتفاخ على حسابهم.

تتلخص هذه القصة ـ الاسطورة في حكاية ملك عادل محب لرعيته ، يريد لكل فرد منهم ، الخير والطمـــأنينة والسعادة ... اعتقد ان العدل اساس الملك فاتجه لتحقيق العدالة بكل شعوره ، وبكل تفكيره ؛ ولكنه لقي من الدجالين والطامعين والمستوزرين والمستثمرين ما افسد عليه خططه ، غير ان العناية قيضت له حكيماً صالحـــاً يرشده وينصحه ، ويعلمه ، الى ان افاق الشعب بجملته بعد احداث كثيرة ، وتجارب اليمة ، وهزم اعداءه والخونة من ابنائه ، ثم انتكس الملك نفسه من بعد على يد الوصوليين والانتهازيين و«الاذكياء» المتحذلقين ، فثار الشعب من جديد، وطرد الملك ، واقام حكماً جمهورياً يحكم فيه نفسه بنفسه ...

تلك هي خلاصة الحكاية التي لم تؤخذ الا « اطاراً» لبث الافكار التربوية ، والآراء الاجتماعية والسياسية والاخلاقية، وهذا ما يسميه العلماء «الادب التعليمي» او «الديدكتيكي» ، وهو الادب الذي يراد منه ارشاد الناس ووعظهم ووضعهم في اجواء يهتدون بها من تلقاء انفسهم الى اخطار الحياة ، ومزالق الشبهات .

هذا النوع من الادب الذي يعرفه العرب في «كليلة ودمنة» وكانوا اول من نشره في العالم ، ينطوي على امكانات هائلة ؛

ولكن فن القصة الحديث ، ومدارسه المتنوعة ، قضت عليه، فلم يملك ان يتطور ، الا اذا اعتبرنا القصة الحديثة اسطورة متطوّرة .

ولكن المربي – وهذا هو شأن الاستـــاذ واصف البارودي – غير الفنان . الاول مفكر ، عملي الـــنزعة ، هادىء الاعصاب أمام الوقائع . والثاني مـــأخوذ بالوقائع ، منغمس في آفاقها العاطفية والاجتماعية ، يهمه ان يصورها ، ان يبرزها ، ان يعبر عن الذات الكامنة فيها . الاول يستثمر التجربة وما يجري فيها وطريقة وقوعها لينشر فكرة سبق له ان انتهى اليها ، والثاني لا يفكر بالتجربة على انها تجربة ، ولا يهمه ما فيها من افكار وآراء بمقدار ما يحياها في نفسه او في ابطال قصصه.

هذه الفروق بين القصاص المربي ، والقصاص الفنان تبرز على اوضح ما تكون في قصة «هذا التاج» اذ تجد نفسك وانت تطالعها انك لا تطالع قصة ، ولا انت تسمع خطاباً ، ولا انت امام ابحاث علمية وفكرية ، ولا انت تقرأ دراسة، وانما تشعر انك حيال هذه الاشياء جميعها ممزوجة ، مخلوطة بشكل عجيب فيه ما يجذبك احياناً ، وفيه ما ينفرك .

والامر في جملته لا يعدو ان يكون شيئاً من « حيرة المعلم» المخلص لافكاره، امام تلامذة ، او اناس لا تهمهم هذه الافكار، فهو يحاول بشتى الطرق ومختلف الوسائل والاساليب ان يجذب انتباههم وان يثير اهتمامهم . وهذه المحاولة نفسها تصبح اذا بولغ فيها ، اداة إضجار واثقال ...

ولقد وقع افلاطون نفسه في هذا « المـأزق التعليمي »، فكان يلجأ الى « الاساطير » والحكايات ، لانها تمثل له شيئاً مهماً ، ولكن اخلاصه للناس واعتداده بصلاح افكاره ، هو الذي قاده الى التفكير الاسطوري ، ولكن افلاطون ، كان على جده ساخراً ، « خبيثاً » في بعض المواقف المضحكة التي لا سبيل الى الخروج منها الا بالهزل والتهكم .

والظاهر عند الاستاذ البارودي كمرب ، لا كقصاص، انه يتناول الامور بكثير من الجد، وقليلاً ما تجده ساخراً فيما يلقي من نصائح ومواعظ، وما يعرض من حالات ومواقف.

على ان هناك، الى جانب هذا الجد التربوي ، روحاً ثائرة، متمردة ، ناقمة على الافك ، والدجل ، والشعوذه ، مخلصة في حبها للشعب ، قوية في دفاعها عن الشباب المتحرر الواثب نحو تحقيق حياة افضل ، ووجود اغنى واعدل .

وحسب المربي ان يكون بهذه المنزلة من التأثير في نفوس الناس، ومن القدرة على اذكاء حماساتهم الفعالة، ليكون قد ادى افضل رسالة يمكن ان يفيد منها الآخرون في حياتهم العملية .

عبد اللطيف شراره



أحمد زكي ابو شادي

للاميرالاي أركان الحرب محمد عبد الفتاح ابراهيم

مكتبة الشعب – القاهرة ، ١٩٥٥ – ٥٩ ص

•

اوضح ما يتميز به مؤلف هذا الكتاب وفاؤه النادر ... وفاؤه للادب رغم الاعباء الجسام الملقاة على كاهله في الجهاز العسكري والاداري للدولة، فانه لا يسكت لحظة عن الشعر او الكتابة او التأليف .

.. ووفاؤه لرواد الادب الذين كان الحقد يعصف بجهادهم المجيد في دنيا الفكر والفن .

ولقد سبق المؤلف إلى تمجيد ابي شادي و كفاحه حينما اصدر هذا الكتاب ، اذ هو اول كتاب يصدر عن حياة الشاعر الراحل بعيد وفاته .

ولا غرابة ان يكون هذا الكتاب انفعالا سريعاً ، وتعبيراً متجاوباً عن الفجاءة التي هزت كيان المؤلف ، وهو يتلقى نبأ سقوط ابي شادي البطل في حومة الجهاد ، فان المؤلف كان من الملامح البارزة لشخصية معنوية ولدتها الحركة الفكرية اول الثلث الثاني من هذا القرن باسم « أبولو » فكانت مدرسة ، وكان اتجاه ثوري في الادب والفن ، حمل لواءه ابو شادي ، وزامله طائفة من الشباب الامجاد . لم يكن عبد الفتاح ابراهيم من ابرزهم ، فحسب ، ولكنه كذلك من اوفاهم لابولو وزعيمها .

والكتاب الذي اصدره في الاسابيع الاولى لوفاة الشاعر

تعبير نابض عن هذا الاتجاه ، يحيي ، ويمجد ، ويكشف عن الاهداف في نتاج ابي شادي .

وقد قدم له بكلمة تأبينية تفيض شاعرية وعاطفة ، ثم بدأ بالرجل وعصره ، ليسرد الجوانب اللامعة لتاريخ مجيد عاصره وعاشره ، واقتبس من اضوائه ، ولينسق من هذه الفرائد عقد حياة خالدة موجهة نافعة ، يبرز من بدايتها نبوغ أبي شادي ، وتتوالى في ميدانها روائع ابي شادي ومؤلفاته وأعماله وتوجيهاته للحياة الادبية الى اهداف عليا .

ويثني المؤلف بفصل عنوانه « الشاعر الثائر » يتحدث عن تعدد جوانب اللماعية في أدبه ، وعن الطاقات القوية التي اطلقها في عديد الاتجاهات ، وكيف كان يقف على قمتي الشعر والنثر في العربية والانجليزية معاً ، ثم يبرز خصائص اسلوبه الفلسفي الحيوي الواقعي الرصين ، مع سرعة خاطفة وتأثر عميق ، وتقديس للفكر والحرية ، وثورة على الاوضاع مع تحديد الهدف ، ونزاهة القصد ، وإيمان بالقيم الفكرية والمثل العليا لا يزيغ ولا ينحرف .

يتبع هذا حديث عن ايمان ابي شادي وتصرفه المنبعث عن التجربة المعملية والدراسات العميقة في حيوات الكائنات دقيقها وجليلها ، والمواءمة بين العقيدة والعلم ، واعتبار العالم وحدة كهربائية فنية .

ويبلغ القمة حين يعقد فصلاً رائعاً عنوانه « استاذ جيل » يحدثنا فيه عن زعامته الموفقة لجيل من الادباء ، زعامة تتنزه عن الانانية ، وتمضي في حركة كفاح تعاوني اشتراكي ، لا يبالي سوى الجهاد ، كما يبرأ من السيطرة او التعالي او حب الذات .

ويستمر وراء هذا ما كان يبذله ابو شادي من نفسه وماله لتحقيق الفكرة التعاونية في الادب ، والبلوغ بمواهب تلاميذه الى الذروة .

ويختم بفصل بارع عن ابي شادي « الناقد المتحرر » يفصل فيه بأيجاز مذهب ابي شادي في النقد الحر العف الذي تبلور في اتجاهات مدرسة « ابولو » التي كان من اهدافها ان تخلص الادب من فوضى النقد ، وتدفعه الى السمو والكمال والتحليق في آفاق الانسانية .

وكان لابي شادي من سعة معارفه ، وغزارة اطلاعه ، وعمق نظرته ارض ممهدة لارساء مبادىء جديدة في النقد الادبي الحديث ، يأخذ بها نفسه وأنصاره ، ويبشر بها بين كتاب العرب ونقادهم في ايمان وقوة .

وهكذا يتسلسل الكتاب من مقدمته الى فصوله الخمسة تسلسلاً منطقياً ، هادئاً قوياً ، مركزاً مفصلاً ليحيط — بحركة دائرية وسريعة — بجوانب حياة شاعر عالم ، وطبيب ناقد ، ومتصوف فيلسوف ، بحيث يجد القارىء في كل كلمة وفي كل عبارة نبضة قوية حارة من حياة ابي شادي .

وقد اوفى — على صغر حجمه — بما أراده مؤلفه حين اعلن في تواضع انه لا يزيد على « كتاب مدرسي مبسط » .

غير ان حرص المؤلف على السرعة التي أصدر بها هذا الكتاب جاءت على حساب عمقه وتنسيقه واخراجه كما اعجلته السرعة ان يقول ما كان ينبغي ان يقال ، اذ لم يتريث به اكثر من اسابيع ، وهذه الحياة التي امتدت عرضاً وطولا ، أجلّ من ان تتسع لدراستها السنون .

ولو افسح المؤلف لنفسه الوقت ، وعني بتتبع نهايات هذه الحياة كما عني بمباديها لجاء الكتاب مرجعاً وافياً في موضوعه .

فان المؤلف باسلوبه القوي الآسر ، ومنهجه الموفق ، وطول عشرته للفقيد — كان قادراً ان يتعمق الجوانب التي لمسها لمساًهينا ، وأن يشبعها إشباعاً يرضي تاريخ الادب .

وهو جدير بما كان له من مكانة في نفس ابي شادي ان يشارك مشاركة اكبر في تاريخ حياة جليلة لو وزعت بين عشرات الكتاب والباحثين لأثقلهم ان يلموا بها .

الا ان فضل السبق لكاتبنا القدير لا ينسى ، وحسبه انه بهذا الكتاب قد دفع اصدقاء الفقيد ان يقولوا وأن يكتبوا وان تجلجل اقلامهم واصواتهم بالوفاء لابي شادي ، فجاء على اثره كتاب « شاعر الانسانية » للكاتب الاردني الكبير الاستاذ روكس العزيزي .

ونحن نرجو للمؤلف القدير ان تتاح له فرص كثيرة يواصل فيها حديثه العذب الشائق عما لمسه في صحبة ابي شادي وان يكشف لنا عن هذه المواهب الجبارة في عبقري كانت حياته اسطورة .

القاهرة — رضوان ابراهيم

كتب وردت الى المجلة

(وسينقد بعضها في اعداد قادمة)

* بين البقاء والفناء
بقلم قدري حافظ طوقان
سلسلة اقرأ – دار المعارف
بمصر – ١٦٠ ص

* النقد الادبي بقلم الدكتورة سهير القلماوي
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة – ٨٦ ص

* الادب ومذاهبه بقلم الدكتور محمد مندور
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة – ١١٦ ص

* الشعر المصري بعد شوقي بقلم الدكتور محمد مندور
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة – ٩٤ ص

* المغرب العربي بقلم علال الفاسي
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة – ١٩٨ ص

* احمد فارس الشدياق بقلم الدكتور محمد خلف الله
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة –١٩٢

* الميراث عند الجعفرية بقلم محمد ابو زهرة
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة – ١٤٤ ص

* القانون المدني اللبناني بقلم اميل تيان
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة – ٩٨

* الاقتصاد اللبناني بقلم الدكتور البرت بدر
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة ٨٤ ص

* الصحافة في العراق بقلم رفائيل بطي
محاضرات القيت بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة – ١٦٨ ص

* تاريخ الفقه الاسلامي (٢) بقلم الدكتور محمد يوسف موسى
محاضرات القيت بمعهد الدراسات بالقاهرة – ١٨٠ ص

* في دروب المغيب بقلم فؤاد رفقه
ديوان شعر – توزيع المكتب التجاري ببيروت – ٦٤ ص

* نداء الاعماق بقلم عبد الخالق فريد
ديوان شعر – مطبعة دار المعرفة ، بغداد ١١٤ ص

* قضية البحرين بقلم يوسف الفلكي
دراسة – مطبعة ... (؟) – ١٢٠ ص

* شاعرات العراق المعاصرات بقلم سلمان هادي الطعمة
دراسة – مطبعة الغري الحديثة ، النجف – ٥٨ ص

* نداء الارض بقلم جان الكسان
مجموعة قصص – منشورات مكتبة دار اللواء القامشلي –١٠٠ ص

* أعلام الافارقة بقلم الهادي مصطفى التوزري
دراسة ادبية – رابطة التضامن الادبي ، تونس – ٦٤ ص

* التطور الكبير بقلم فردريك لويس ألن
ترجمة الدكتور عبد المنعم البيه – مكتبة الانجلو المصرية – ٢٨٤ ص

* لهيب الروح
للشاعرة فطينة النائب
ديوان شعر – مطبعة المعارف
بغداد – ١٥٦ ص

* بالحب بقلم فاندا فاسيليفسكا
روايةسوفياتية–ترجمة احمدغربية – دار الفكرالجديد –١٧٥ ص

* درب القمر للمرحوم فؤاد سليمان
خواطر – الطبعة الثانية – دار الثقافة ببيروت – ١٣٢ ص

* انا عائد من جنوب الجزيرة العربية بقلم محمد احمد زين السقاف
رحلة دراسية – مطابع دار الكشاف ، بيروت ١١٦ ص

* نحو كيان جديد بقلم محمد حسن عواد
ديوان شعر – دار المعارف بمصر – ٢٤٤ ص

* رسالة قلب بقلم خضر الحمصي
ديوان شعر – المطبعة الاهلية بحماه – ٦٤ ص

* مفيستو (او اوديب يعلم) بقلم جورج كروس
مسرحة شعرية – مطبعة اتحاد الجامعات ، اسكندرية –٩٦ ص

* راهب الفكر بقلم عبد السلام هاشم حافظ
ملحمة شعرية – شركة التضامن للطباعة ، القاهرة – ٦٠ ص

* لحظات قلقة بقلم هاشم الطعان
ديوان شعر –المطبعة العصرية بالموصل – ٥٢ص

* قضية العرب بقلم علي ناصر الدين
الطبعة الثانية – دار الحكمة – ٩٦ ص

* اذينة والزبّاء بقلم علي ناصر الدين
سلسلة الثائرون في التاريخ – دار الحكمة – ٩٦ ص

* هتاف الاودية تأليف امين الريحاني
شعر منثور – دار ريحاني للطباعة والنشر – ١٥٠ ص

* الميثولوجيا عند العرب بقلم محمود سليم الحوت
دراسة – مطبعة دار الكتب – ٣١٨ ص

* رجال وظلال بقلم مير بصري
قصص وصور قلمية – شركة التجارة والطباعة بغداد – ١٦٠ ص

* صاحب الزنج بقلم جميل المدفعي
دراسة – مكتبة الاستقلال عمان – ٣٤ ص

* المحاضرات العامة بالجامعة السورية (١٩٥٢ – ١٩٥٣)

* آراء ابي العلاء المعري
عني بجمعها المرحوم معروف الرصافي – مطبعة المعارف بغداد–١٧٨ص

* مقدمة في الاقطاع ونظام الاراضي في العراق
بقلم الدكتور صلاح الدين الناهي
مطبعة دار المعرفة بغداد – ٧٨ ص

* الوجود بقلم مدني صالح
بحث في الفلسفة الاسلامية – مطبعة المعارف بغداد – ١١٤ ص

بحث الشهر

لورنس في الميزان

بقلم **سليمان موسى**

« هل كان لورنس عبقرياً جديراً بالشهرة العريضة التي ذاعت له؟ ام كان بارعاً في استغلال الظروف، قادراً على حبك المؤامرات ؟ هل كان رجلاً قديراً ام كان بهلواناً دجّالاً ؟ هل كان مخلصاً للعرب محباً لهم، ام كان يقوم بينهم بتمثيل دور مسرحي في خدمة امته وبلاده وغروره هو ؟ » .

هذه اسئلة تدور في اذهان كثيرين. وهذا المقال يحاول ان يجيب عليها .



الكولونيل لورنس

تمهيد*

ظهر في انجلترا اوائل هذا العام كتاب بعنوان « لورانس العرب - تحقيق في سيرة حياته[1] » بقلم ريتشارد الدنجتون. وقد ثارت حول هذا الكتاب ضجة كبيرة في صحف لندن بين المعجبين بلورنس وبين النقاد المحايدين الذين يبحثون عن الحقيقة . وكتاب الدنجتون هذا هو نتيجة بحوث طويلة مستفيضة قام بها اذ اتصل بجميع من عرفوا لورنس في جميع ادوار حياته ، ودرس جميع مؤلفات لورنس ورسائله التي نشرت والتي لم تنشر، وخاصة تلك الرسائل التي كان يبعث بها لشارلوت شو قرينة برنارد شو والتي ضمنها الكثير من اسرار حياته المطوية ، وحقق الدنجتون ودقق في تاريخ سيرة هذه الشخصية التي مجدها الرأي العام الانجليزي . وقرّ رأيه اخيراً على ان لورنس لا يستحق كل الشهرة التي احيط بها اسمه ، بل ولا يستحق الا القليل القليل منها .

---

* عنوان المقال مستعار عن بحث كتبه الدكتور شهبندر في المقتطف ١٩٣٢ .

١ Lawrence of Arabia by Richard Aldington
ولد ألدنجتون عام ١٨٩٢ في انجلترا ، وكتب في شبابه عدة روايات ونشر ديوان شعر ثم اشترك في الحرب العالمية الاولى واصيب بصدمة عصبية نتيجة لانفجارات القنابل . وعانى من هذه الصدمة مدة ثماني سنوات حيث كان في حالة ذهول اشبه بالجنون . ثم شفي وعاود نشاطه الادبي .

وكنت قد طالعت كتاب لورنس « اعمدة الحكمة السبعة » منذ عدة سنين ، واستلفتت نظري يومذاك تلك العبارات التي كتبها يوم كان العرب يهاجمون معان ، عندما قصد هو والضابط جويس في رحلة استكشاف بالسيارة دون ان يكون معهما احد من العرب . قال : « قضينا تلك الليلة الباردة في العراء وبعد ان تعشينا وشربنا الشاي، اخذنا نتحدث بالانجليزية ونضحك على طريقتنا الخاصة حول النار . وعندما راودنا النعاس اضطجعنا على الرمال الناعمة . لقد كانت تلك الليلة لي عيداً من الاعياد ، اذ لم يكن احد من العرب قريباً مني فاضطر ان امثل امامه دوري الشاق . »

ثم طالعت الكتب الثلاثة التي الفها عنه لويل توماس ، وصديقه روبرت جريفز ، والمعلق العسكري الكابتن ليدل هارت . واستلفت نظري ذلك التمجيد البالغ الذي احاطوه به حتى بلغت المغالاة باحدهم انه قال : « لولا لورنس لما كانت هناك ثورة عربية . »

وبحثت في الكتب العربية فلم اجد ما يشفي غليل الباحث ، وكنت شديد الاسف اذ لم اعثر على مذكرات لجعفر العسكري او نوري السعيد او مولود مخلص او غيرهم من الضباط العرب الذين اشتركوا في القتال وعرفوا لورنس معرفة وثيقة ، وكان بمقدورهم ان يزودونا بملاحظاتهم الشخصية وينيروا السبيل امام طلاب الحقيقة التاريخية المجردة .

وكتاب جورج انطونيوس الرائع « اليقظة العربية » يحاول الكشف عن حقيقة خدمات لورنس للعرب ، الحربية والسياسية منها ، ولكنه يعتذر عن امكانية اعطاء قول فصل في هذا الشأن لانعدام الشواهد العربية الوافية ، ولان المعلومات المتوفرة هي من كتابات لورنس واصدقاء لورنس وهي لا تمثل الا جانباً واحداً للموضوع . ويعرض انطونيوس قضية احتلال العرب للعقبة – كمثال على مجهود لورنس – فيقول ان الوقائع التي لا يرقى اليها الشك هي ان فكرة احتلال العقبة طرأت في الحديث الذي دار بين فيصل وعوده ابي تايه شيخ عشيرة الحويطات في اول لقاء لهما ، وان عوده ورجاله هم الذين قاموا بالجهد الحربي كله ، ولم يكن لورنس الا مراقباً للاحداث . ولكن لورنس استغل مجهود العرب وقدم تقريراً الى الجنرال اللنبي قال فيه ان هذا العمل الحربي الباهر قد تمّ بناء على خطته هو، وانه قاد القوات العربية بنفسه واشرف على جميع التفاصيل .

اما الدور الذي لعبه لورنس في المجال السياسي فاكثر وضوحاً لدى العرب ، اذ من المعروف انه هو الذي عمل على اجتماع فيصل وحاييم وايزمن في باريس عام ١٩١٩ ، وانه هو الذي كتب الاتفاقية التي وقعها كلاهما مع ان فيصل لم يكن يعرف الانجليزية . وقد قام بدور الترجمة بين الاثنين مع ان مرافقي فيصل كانوا يجيدون الانجليزية اجادة تامة . ولكنه حال دون حضور احد منهم . ودلل فيصل على بعد نظره بتلك الملاحظة التي كتبها بخط يده بالعربية على صفحة الاتفاقية ذاتها وقال فيها ان هذه الاتفاقية لا تعتبر ملزمة للعرب الا اذا نفذت جميع العهود التي قطعت لهم خلال الحرب . وقد كشف وايزمن في كتابه « التجربة والخطأ » النقاب عن المساعدات القيّمة التي قدمها لورنس للقضية الصهيونية .

وفي مذكرات الملك عبد الله نجد انه اول من عرف لورنس على حقيقته ، اذ قال « لقد سلمت العشائر الجنوبية من الكثير مما لحق بعشائر الشمال ، يوم ان اطلقت للورنس الحرية في جيش فيصل فاصبح ، بما بذل من مال ، وما قال من اقوال ، ملك العرب غير المتوج ، وانه صاحب الثورة ، وانه لولاه لما نال العرب اي شيء ... وفي الحق انه كان المزهو بنفسه الغريب الطباع . ولقد دس الي من يغريني بملك الحجاز ، بحجة ان الوالد المرحوم عنود في فكره متمسك برأيه ... وقد خدمني بقوله ان والدك عنود متمسك برأيه ، اذ يظهر انهم يطلبون من لا رأي له من الناس كي يعمل لورنس ما يشاء ... وقد كنت معترفاً بثمين مساعداته غير راض عن تدخلاته فيما لا يعنيه . وعرفت كثيراً من الضباط الانجليز ومنهم الميجر جويس وهو من اخلص الناس للانجليز والقضية العربية ، وقد خدم اكثر من لورنس خدمة حقيقية قاسى فيها انواع الشدائد . »

وهذه اقوال معبرة تحمل المعاني الكثيرة الواضحة ، ولكنها لا تشفي غليل الباحث عن التفاصيل .

كتاب الدنجتون

يكشف المؤلف في مستهل كتابه عن حقيقة هامة كان لها اثر كبير في تصرفات لورنس وولوعه بالشهرة . تلك الحقيقة هي ان لورنس ابن سفاح لم يولد من زوجين شرعيين . فوالده نبيل ايرلندي يدعى شابمان تزوج عام ١٨٧٤ ورزق باربع بنات ، ثم اغرم بساره جونر مربية بناته ففر

معها عام ١٨٨٥ وانتحل اسم لورنس وعاشرها معاشرة الازواج دون ان يستطيع العقد عليها شرعياً بسبب رفض زوجته تطليقه . وقد اثمرت علاقته خمسة اولاد كان ثانيهم توماس ادوارد لورنس . ولم يستطع احــد منهم تغيير هـــذا الواقع اذ توفي الوالد عام ١٩١٩ قبل وفاة زوجته الاولى بخمسة اعوام . اما الزوجة غير الشرعية فهي لا تزال تعيش حتى الان وهي في الرابعة والتسعين من العمر .

وقد كشف لورنس عن هذه الحقيقة المروعـــة في رسائله لشارلوت شو وهي الان في المتحف البريطاني بلندن . وفي احدى رسائله تلك قال ان امه كان يتملكها شعور جارف بالاثم والخطيئة لان اباه غادر زوجتـــه الشرعية ليعيش معها ، وانهـا كانت تعوض عن شعورها هذا بمحاولتهـا ان تنشيء ابناءها نشأة دينية صارمة ، وقد اثمرت محاولتها فصار احدهم قسيساً وذهب الى خارج انكلترا في إرسالية للتبشير .

واخذ الصبي ينمو ، ثم اخذ يدرس في احدى جامعات اكسفورد ، وكان مجداً محباً للاطلاع ، ولكن روبرت جريفز كتب عنه في هذه الفترة يقول : « لا شك في ان معلومات لورنس واسعة جداً . ففي خـلال ست سنوات قرأ جميع الكتب الموجودة في مكتبة اتحاد اكسفورد – حوالى ٥٠ الف مجلد – وكان يستعيرها بمعدل ستة مجلدات كل يوم . وكثيراً ما قطى ثماني عشرة ساعة في القراءة »

ويقول الدنجتون اننا لوافترضنا جدلاً انه قرأ ستة مجلدات كل يوم لمدة ست سنوات فلن يزيد المجموع عن ١٣ الف مجلد . فاذا اردنا ان نأخذ معدلا للخمسين الف مجلد لاكتشفنا انها تشكل ٢٥ مجلداً يومياً . فهل هذا ممكن ؟ وكيف كان يواصل دراسته في الجامعة ؟

وقد انحى بعض النقاد على جريفز لمغالاته . ولكن يمكن ان نعدل في توزيع الملام اذا قرأنا اعـــتراف جريفز بأن « لورنس قرأ ووافق على كل كلمة من الكتاب . هذا مع العلم انه طلب مني ان اضع عبارة في مقدمة الكتاب تشير الى انه لم يطلع عليه . »

وقد تحدث المعجبون به كثيراً عن عبقريته وذكائه خلال فترة دراسته، وقالوا انه كان يجتاز جميع دروسه بنجـــاح وتفوق ، ولا يمكن نكران مواهبلورنس، وانما يستطاع القول انه لم ينجح في فرع الرياضيات فاضطر للتحول الى دراسة التاريخ .

واصيب في اوائل شبابه بصدمة عصبية عندما اكتشف « حالة الخطيئة » التي تعيش امه في ظلها مع ابيه . وكان لهذه الصدمـــة النفسية اثر عميق في جميع تصرفاته المقبلة . فقد قال في احدى رسائله لشارلوت شو ان شخصين كأبيه وأمه ما كان يحسن بهما ان ينجبا اطفالا قط . وقد غـــادر المدرسة وخدم في سلاح المدفعية مدة ستة اشهر احتجاجاً وغضباً . ولم يعــد الى المنزل الا بعـــد ان بنى له ابوه غرفتين خاصتين به في حديقة الدار ليعيش فيهما .

ودفعته دراسته التاريخية الى القيام بخمس رحلات على الدراجـــة في فرنسا . ولكنه سمح لجريفز ان يجعلها في كتابه ثماني رحلات ، وان يقول ان سياحاته لم تكلفه شيئاً ، والواقع يدحض ذلك . على ان مؤلفاً آخر ذكر انه كان يعيش على نصف فرنك فقط في اليوم الواحد . وفي ١٩٠٩ قام برحلته الاولى الى سوريا للتفرج على قـــلاع الصليبيين ودراسة الفن المعماري فيها .

وقد اشاد الذين كتبوا عن لورنس بالصعاب الكثيرة التي لاقته في سوريا وصوروه بصورة البطل الذي يقتحم الاهوال ويستهين بالمخاطر . وفي هذا كثير من المبالغة اذ من الثابت ان اباه اعطاه مبلغاً من المال قيل انه لم يقل عن مئتي جنيه ، ولو كان المبلغ زهيداً ما اشترى مسدساً وآلة تصوير دفع ثمنها اربعين جنيهاً . وفي احد اسفاره استأجر عربة بمبلغ سبعة جنيهات كما ذكر في احدى رسائله ، وهذا يدحض القول انه لم يكن يملك مالاً .

اما من جهة معرفته بالعربية فلا شك انه كان يعرف اكثر من الثمانين كلمة عربية التي قال انه بدأ اسفاره بها وذلك عن طريق القس العربي عوده الذي اتصل به في بريطانيا ولا شك كذلك في مبالغته عندما ادعى فيما بعد ان محصوله من العربية بلغ اثني عشر الف كلمة .

واعترف في رسائلهانه زار ستاً وثلاثين قلعة من قلاع الصليبيين . وقد زاد لدل هارت عددها الى خمسين . وعند عودته الى انكلترا قـدم رسالة حول الفن المعماري في القرون الوسطى ونال على رسالتــه تلك براءة في التاريخ الحديث بدرجة الشرف .

وعاد لورنس الى بلاد العرب عام ١٩١١ ليعمل في حفريات كركميش مع بعثة الدكتور هوغارث ، ولا بد من التعرض لعلاقته بالشيخ احمــد او داحوم الذي تعرف عليه هناك . وكان داحوم هذا فتى جميلاً واصغر من لورنس سناً ، وكانا يسافران معاً ، ويعيشان معاً . وقال ان داحوم هذا هو الذي اهــدى اليه لورنس كتابه « اعمــدة الحكمة السبعة » (Sheikh Ahmed — To s.a.) ولكن الدنجتون لم يتعــرض لما ذكره اخرون ، بان الاهداء كان باسم ساره ابرامسون وهي الجاسوسة اليهودية الحسناء التي لعبت دوراً هاماً في حركات التجسس خلال الحرب . وقيل انها كانت على اتصال مع لورنس عندمـــا كان في مصر ١٩١٥ – ١٩١٦ . وذكر لورنس في رسالة كتبها لجريفز بعد الحرب ان S.A. هي فتاة احبها وايد هذا الدكتور ركنس الذي عرف لورنس في القـــاهرة واكد انه كان على معرفة بساره وغرام لورنس بهـــا . وقال انه ساهم في الثورة العربية لاجلها كي ينتقم من الاتراك الذين اكتشفوا امرها في فلسطين . فاطلقت المسدس على نفسها وماتت . والذي يقرأ عبارات الاهداء يجــد فيها من حرارة العواطف ما يؤيد هذا القول .

وخلال اعمال الحفريات في كركميش حدث خلاف بين المهندسين الالمان – الذين كانوا يعملون في تمديد سكة حديد بغداد – وبين العمال الاكراد الذين كانوا يشتغلون معهم ، وادى هذا الخلاف الى مقتل احد الاكراد . وكاد يستطير الشر لولا ان تدخل وولي المسؤول عـــن حفريات كركميش ومساعده لورنس والعمال الذين معهما وعملوا على اصلاح ذات البين . واغتنم لورنس هذا الحادث فتباهى فيما بعد قائلا ان الحكومة التركية عرضت عليه وساماً مكافأة له على انقاذه المهندسين بينما لم يذكر زميله وولي شيئاً من هذا القبيل .

ومن امثلة مبالغته في التحدث عن نفسه قوله انه استطاع مرة ان يهزم ثلاثة من الجنود الاتراك وان يأخذ منهم سلاحهم ويسوقهـم امامه الى ديوان الحاكم التركي . وما ذكره احد المعجبين به – نقلا عنه طبعاً – انه كان في تلك الانحاء بمثابة سفير انجليزي لا يستطيـــع الحكام الاتراك مخالفة رغباته . وقد ذكر توماس وجريفز ان لورنس زار مصر وقابل كتشنر وبيّن له خطورة استيلاء اية دولة اوروبية على خليج الاسكندرون بالنسبة لمواصلات بريطانيا . ويشك كثيراً في ان لورنس قابل كتشنر اطلاقاً ، ولكن لورنس ادعى ذلك بعد وفاة كتشنر . اما لدل هارت فقال ان بغضه للاتراك حببه للاكراد والارمن والعرب ، وانه اختلط بجمعياتهم السرية ، واشترك معهم في تدبير الخطط الثورية . وهي اقوال من نسج الخيال .

الحرب العالمية

عندما اعلنت الحرب سعى لورنس بواسطة صديقه الدكتور هوغارت للحصول على عمل ما ، فمنح رتبة ملازم ثان واخذ يعمل في قسم الجغرافيا بوزارة الحربية . وكان لورانس في حياته محظوظاً تؤاتيه الظروف بالفرص النادرة التي لا تتاح الا لقليل من الناس . ولولا دخول تركيا في الحرب لكان من المحتم ان يمضي الى ميدان القتال في فرنسا . وربما لاقى هناك حتفه كاخويه الاصغرين وكمئات الالاف من الجنود . ولكن دخول تركيا في الحرب وحاجة الجيش الانكليزي في مصر الى ضباط استخبارات دفعا بلورنس الى الشرق مرة اخرى . وبانتقاله هذا منح رتبة رئيس (كابتن) بعد سبعة اسابيع من تسجيله في الجيش ، بينما لم يكن يحصل احد على هذه الرتبة الا بعد قضاء عدة سنوات في ميدان القتال .

واقام لورنس في القاهرة يعمل في قسم الخرائط والاستخبارات، وادعى فيا بعد انه اسدى يداً في احتلال الروس لارضروم عام ١٩١٦ اذ قال انه كان وسيطاً بين الامير نيقولا وبين بعض الضباط العرب في ارضروم، وان نجاحه في هذه المهمة دعا القيادة الانجليزية لتكليفه مرة ثانية للقيام بدور مماثل في العراق لانقاذ الجيش الانجليزي المحاصر في كوت العمارة. ومن الثابت تاريخياً ان سقوط ارضروم لم يكن عملا من اعمال الجاسوسية اذ ان الجيش الروسي احتلها لتفوقه على القوى التركية المدافعة عنها .

ومن اسخف الادعاءات القول بان لورنس هو الذي « رسم خطوط الثورة العربية » اذ انه لم يضع قدماً في الجزيرة العربية الا بعد اعلان الثورة ببضعة اشهر . وقد ذهب لاول مرة خلال اجازة له بعد ان طلب الى صديقه ستورس ان يصطحبه معه لتمضية الوقت . وعندما طلب الى رؤسائه ان يبعثوا به للعمل مع العرب في الجزيرة وسمحوا له بذلك قال مباهياً انه ضابط الاركان الوحيد الذي يصعب الاستغناء عنه في قيادة الجيش الانجليزي بمصر .

وقد يفسر لنا نجاح لورنس في بلاد العرب ما قاله الميجر يونغ احد الضباط الذين عملوا معه في الثورة : « ان لورنس كان يملك الصفات التي تتوفر عادة في السياسي الناجح ، واولها ان لا يتردد المرء في اعتناق الفكرة الداعية الى ان الغاية تبرر الواسطة » .

ويفخر لورنس كثيراً بانه هو الذي اقترح على العرب احتلال الوجه والعقبة وبذلك حال بين الاتراك وبين امكانية الزحف من المدينة الى مكة . ولكن ما ذكره المؤرخون الاخرون يكذب ادعاءه فالذين قاموا بالثورة العربية لم يقصدوا ابداً حصرها في الحجاز ، بل كان همهم الاول ان يمتد لهب الثورة الى بقية الاقطار وخاصة سوريا .

وبالرغم من ادعاءات لورنس المتكررة ، فانه اعترف في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » انه لم يلامس قضبان سكة الحديد لاول مرة الا في اواخر ايار ١٩١٧ ، اي بعد عشرة اشهر من اعلان الثورة . هذا بينما كان لويس توماس يدعي ان لورنس ، ولورنس وحده ، كان يعمل في تخريب السكة ، وان الضباط الآخرين كانوا يلازمون قواعدهم. وعندما احتج الميجر يونغ على هذه الاقوال وعده لورنس ان يصحح اقوال توماس ولكنه لم يفعل .

وعندما مضى الشريف ناصر ومعه عوده ابو تايه ونسيب البكري لاحتلال العقبة ، طلب لورنس ان يرافقهم ، فاجابه فيصل الى طلبه . وقبيل احتلالهم للعقبة اصطدموا بقوة تركية وهاجمها رجال عوده ، وحاول لورنس الاشتراك في القتال وكان على ظهر ناقة فاخذ يطلق النار من مسدسه ، ولكن الطلقة الاولى اصابت رأس الناقة فسقطت واصيب هو ببعض الرضوض واغمي عليه ، ولم يفق الا بعد ان انتهت المعركة بهزيمة الاتراك .

ثم احتلت القوة العربية العقبة في اوائل تموز ١٩١٧ ، فرأى لورنس في هذا فرصة نادرة ، وغادر العقبة مع جماعة من البدو بطريق الصحراء الى قناة السويس حيث قابل الجنرال اللنبي وبشّره باحتلال العقبة مدعياً بانه هو الذي رسم خطط هذه الحملة وهو الذي قادها ، ونتج عن هذا ان منح رتبة ميجر مع وسام فيكتوريا ووسام رفيع آخر ، ومنحته الحكومة الفرنسية وساماً ثالثاً ، وهكذا استغل لورنس دماء العرب وجهودهم كي يظهر على مسرح الاحداث ، وادعى الفضل لنفسه بينما لم يكن في الواقع سوى مراقب عادي ، اما الفضل الحقيقي فلم يكن الا للشريف ناصر ولعودة ابي تايه ورجاله من عشيرة الحويطات .

ويتعرض جورج انطونيوس لادعاءات لورنس في هذا المجال فيقول ان عوده هو الذي اقترح على فيصل احتلال العقبة وان فيصل وافق على ذلك ، وان لورنس قد رافق الحملة كي يستطلع اخبار داخلية سوريا ويتصل ببعض زعمائها . ويقول الجنرال بريمون في كتابه « الحجاز في الحرب العالمية » ان ادعاءات لورنس هذه كانت تثير حفيظة الضباط العرب وانهم كانوا يقولون دائماً « اننا اذا فشلنا في المعارك انحى باللائمة علينا واذا انتصرنا كوفيء الضباط الانجليز » .

وقد بلغت وقاحة لورنس ذروتها عندما طلب خلال رحلته الى قناة السويس من الجنرال كلايتون ، ان يعطى رسمياً قيادة البعثة البريطانية في بلاد العرب . وقد رفض كلايتون طلبه لانه كان ادنى رتبة من بعض الضباط الاخرين . على ان مركزه تحسن كثيراً اذ صار الاتفاق على ان ينفصل جيش فيصل عن القوى العربية العاملة في الجزيرة ويعتبر جناحاً ايمن لجيش اللنبي ، ويصير لورنس مستشاراً سياسيا له، وتزداد المونة المقدمة لهذا الجيش زيادة لا بأس بها . وعاد الى العقبة يحمل بشرى زيادة الاموال والمعدات، فلا نستغرب اذا ازدادت اهميته في عين فيصل ورجال فيصل ، ولا نعجب اذا رأيناهم يثقون بمقدرته واهميته لدى القائد العام ، وبمركزه العظيم لدى حكومته خاصة بعد ان ايقنا ان لورنس لم يكن يتقيد كثيراً بالحقائق في اقواله وهكذا اجاد تمثيل دوره واستغل دماء العرب وادعى عند العرب انه يمثل بريطانيا ، كما ادعى عند الانجليز انه صاحب الكلمة الاولى عند فيصل والعرب .

وقد وصف لورنس نفسه في كتابه بانه صار « جنرالاً » للقوات المحاربة ، ويعدد الدنجتون الايام التي تغيب فيها عن ميدان القتال فيجد انها تساوي ثلث التسعة الاشهر الاخيرة التي قضاها في الشرق ، ويقول متسائلا اي نوع من القادة هذا الجنرال الذي يتغيب عن جيشه ثلاثة اشهر من جملة تسعة اشهر ؟

وفي معركة الطفيلة التي هزمت فيها القوة التركية وقتل قائدها حامد فخري ، قدم لورنس تقريراً قال فيه انه ادار العمليات الحربية التي ادت الى هذا النصر ، ونتج عن ذلك انه منح وسام الخدمة الممتازة (D.S.O) ولا يمنح هذا الوسام الا لمن يبدون بطولة خارقة خلال المعارك .

ومن امثلة ادعاءات لورنس قوله ان الاتراك اعلنوا انهم يدفعون جائزة تتراوح بين خمسة الاف وخمسين الف جنيه ذهبي لكل من يلقي القبض عليه . والغريب ان لا جمال باشا ولا ليمان فون ساندرس ذكرا

هذه المكافأة في كتابيها عن الحرب . بل ولم يذكرا اسم لورنس بتاتاً فلو كان بالاهمية التي يصور بها نفسه، فلم لم يتحدثا عن بطولاته واعماله ؟

وازداد نفوذ لورنس عند الطرفين الانجليز والعرب ورقي الى رتبة كولونيل ، واعطي حساباً خاصاً في حدود ٣٠٠ الف جنيه ، فانشأ حرساً خاصاً به ، واخذ ينثر الذهب يميناً وشمالاً حتى اخذت البادية تلهج باسمه . واهداه الشريف خنجراً ذهبيا قيل ان ١٥٠ ليرة عثمانية استعملت في سبكه . وقال بعض المعجبين بلورنس ان هذا الخنجر كان يعني ان الملك حسين قد اعطى لورنس رتبة شريف وهذا امر غير معقول لان لقب شريف لا يمكن ان يمنح الا لمن هم من سلالة النبي محمد . والعجيب ان لورنس ادعى انه قصد الى مكة خصيصاً لاجل صنع هذا الخنجر ، وقد ذكر هذا في رسائله الخاصة التي كانت احداها للجنرال وايفل. وقال انه كتم خبر هذه الرحلة خوفاً من غضب الحسين الذي سمح له بهذه الزيارة بصورة مكتومة . وهو امر لا يمكن ان يصدق .

وبالرغم من ان لورنس لم يستعمل الطائرة الا قليلاً فقد اكد للدل هارت انه قضى اكثر من الفي ساعة في الجو وان الطائرة سقطت به سبع مرات ، بينما المعروف ان الطائرة لم تسقط به سوى مرة واحدة في ايطاليا بعد انتهاء الحرب .

ويتناول المؤلف محاولة لورنس في الظهور بمظهر الشهيد الذي ضحت به حكومته في سبيل غاياتها ، عندما رفض قبول الاوسمة محتجاً بانه اعطي امراً خلال الحرب ان يعد العرب بوعود الحرية والاستقلال ثم تبين بعد فوات الاوان ان حكومته لم تكن جادة في وعدها . ويستشهد المؤلف بفقرات من تقارير لورنس السرية وفيها اقتراحاته الشخصية بان يعضد الانكليز حلفاءهم العرب كي تكون طرق المواصلات ومراكز التجارة في هذا الجزء من العالم تحت نفوذ بريطانيا . ويقول المؤلف ان رفض لورنس للاوسمة لم يكن الا عملاً مسرحياً آخر من اعماله المماثلة لكسب عطف الجمهور ولاحاطة اسمه بهالة الامجاد الزائفة ، وانه لا يوجد هناك اي دليل على ان شخصاً مسؤولاً طلب من لورنس ان يعطي للعرب اي وعود ، وانه اذا اعطى وعوداً فلا تفسير لذلك الا انه كان يحاول الظهور بمظهر الناطق باسم حكومته بينا لم يكن في الواقع كذلك .

ولا شك في ان غرام لورنس بالمظاهر التمثيلية قد اساء للعرب ، فان مرافقته لفيصل عند مجيئه لفرنسا ، واصراره على ارتداء الملابس العربية قد جعلا الفرنسيين يعتقدون ان له نفوذاً كبيراً عند فيصل ، وانه يرمي الى تسويد مصالح بريطانيا ، وكان ذلك من جملة الاسباب التي جعلتهم يتنكرون لفيصل ويقفون منه ذلك الموقف المتشدد . وعندما اصر لورنس على مرافقة فيصل بالملابس العربية اضطر الافرنسيون لابلاغه انهم لا يرغبون في وجوده بهذا الشكل التنكري ، فغادر فرنسا بعد ان اعاد الوسام الفرنسي علامة احتجاج واستزادة منه للدعاية لنفسه .

وقد قال احد اصدقاء لورنس ان فيصل في مؤتمر الصلح لم يلق خطاباً بل قام بتلاوة آيات من القرآن . وان لورنس هو الذي القى الخطاب الرسمي بالانجليزية ، كما ان لورنس ذاته قال لجريفز انه هو الذي القى خطابات الوفد العربي باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية ايضاً . وفي هذا برهان واضح على الخيال الواسع الذي كان يتمتع به ، لبعده عن الحقيقة .

اما بشأن رفض لورنس للاوسمة وما رواه من انه قال للملك فيصل ان دوره في الثورة العربية لم يكن مشرفاً له ولحكومته ولبلاده ، فان المؤلف يقول ان اعادة الاوسمة لم تكن صحيحة، لان البراءة التي صدرت عام ١٩٢١ بايفاده للمفاوضة مع الملك حسين ، ذكرت جميع القابه والاوسمة التي يحملها ، وكان ذلك بعد ادعائه برفض الاوسمة بعامين .

ومن المعلوم ان لورنس لم يكن معروفاً لدى الرأي العام حتى اواخر ١٩١٩ ، ولم يظهر اسمه في سجل الاعلام الذي صدر عام ١٩٢٠ . وقد قام على اذاعة شهرته صحفي امريكي يدعى لويل توماس اذ اوفدته حكومته لزيارة ميادين القتال بحثاً عن الاحداث الطريفة التي تبين مجهود الانكليز الحربي . وتقابل توماس مع لورنس في القدس عام ١٩١٧ . وسحره هذا باخبار مخاطراته ومغامراته فاستأذن اللنبي لزيارة جبهة العرب . ولم يسمح له اللنبي الا بعد ان توسط لورنس وحصل له على الاذن المطلوب .

وعندما اخذ توماس يلقي محاضراته في اميركا لم يجد من الجمهور اقبالا لسماع احاديثه عن فظائع الحرب في اوربا ، وبدلا من ذلك كان الجمهور يطالب بالمزيد من الحديث عن جيش اللنبي وجيش العرب ، لما في التحدث عن ذلك من صور المغامرات الرائعة وهجمات الخيالة العرب والهجانة بالاضافة الى صور الاماكن المقدسة والنساء المحجبات والجمال . ولقي توماس نجاحاً عظيماً ، ثم انتقل الى لندن وأخذ يكرر القاء محاضراته عن هذا الميدان من الذاكرة ويغذي خيال الجمهور بالمزيد من احاديث المغامرات لمدة ستة اشهر .

وبعد هذه الدعاية الناجحة كتب كتابه المعروف « مع لورنس في بلاد العرب » فبيع من طبعته الانكليزية مئتا الف نسخة . وكانت المحاضرة والكتاب دعامة للشهرة التي ذاعت للورنس . ومن المؤكد ان معظم معلوماته مستمدة من لورنس نفسه .

ويقول الدنجتون ان الحكومة البريطانية كانت مهتمة كل الاهتمام بدوافع سياسية لانجاح محاضرات توماس حتى تتمكن من الحصول على تأييد الرأي العام ، وللحيلولة دون اثارة ضجة بشأن الاموال الطائلة التي صرفت في الشرق الاوسط ، وقد طلب لويد جورج نفسه الى توماس ان يؤلف كتاباً عن الحملة العربية ، ووجد توماس مجالا واسعاً لخياله فغمر لورنس بالاوصاف الرائعة ، وقال انه « امير مكة ، خريج اكسفورد . الشاب الخجول ، الشاعر العلامة ، خبير الآثار اللامع ، صانع الملوك ، قائد الجيش وبطل العالم في تحطيم القطارات . »

وهكذا صنعت دعاية توماس من لورنس بطلا كابطال الاساطير ، وذاعت له شهرة لم يعد بالامكان وقف مجراها .

ومع انه تعاون مع لويل توماس في اعداد المحاضرة واعداد الكتاب الا انه دفع المؤلف لنفي ذلك، وكان يتظاهر امام الناس بانه لا يعرف توماس معرفة وثيقة . اما من ناحية رفضه للاوسمة ، فهو كان حريصاً كل الحرص على استجلاب كل ما يمكن من الاوسمة ، ولم يرفضها الا بعد ان ايقن ان رفضها يكسبه دعاية اكثر من قبولها .

وعندما ابدى توماس تشككه في صحة بعض الروايات، قال له لورنس: « ان التاريخ الذي نعرفه لا يمكن ان يكون صحيحاً كله ، فلماذا تشغل بالك بهذه الفكرة ؟ »

وقد اكد الناشر الذي كان يصدر فهرس الاعلام Who's Who ، ان لورنس كان يزوره كل عام او يكتب له ، كي يعدل المعلومات التي تظهر الى جانب اسمه ، وفي عام ١٩٢١ ظهر اسمه كما يلي : توماس ادوارد لورنس،

كولونيل C. B. ١٩١٧ . DSO ١٩١٨ ، امير مكة ، عـالم آثار ، استاذ في العربية ، رفيق للابحاث في اكسفورد ١٩١٩ ، نظم قوات ملك الحجاز ضد الاتراك ١٩١٧ ، حامل وسام جوقة الشرف ، اركان حرب للامير فيصل الخ ...

وذاعت عن لورنس اقاصيص غريبة ، فقد روى جريفز في كتابه ان لورنس اجتمع مرة باللورد كرزون وزير الخارجية ، وتوجه بالملامة الى الوزير فانفجر هذا باكياً واخذت الدموع تنهلّ من عينيه .

وجاء في رسالة من لورنس الى ليدل هـارت انه هو بنفسه رتب الحلول التي توصل اليها مؤتمر القاهرة ١٩٢٢ قبل قدومه مع تشرشـل وان المؤتمر الذي دعي اليه كل اولئك الساسة الكبار لم يكن الا مهزلة لتغطية الموضوع . اما بشأن اصدار النسخة الاولى من « اعمدة الحكمة » ورفض ارسال نسخ منه للصحف ، فقد كان اسلوباً فريداً في الدعاية حتى ان برنارد شو قال انه كان يحسن به ان يتبع طريقة لورنس في الدعايه لمؤلفاته . وقد جاء في كتاب جريفز ان احد الناشرين الفرنسيين طلب من لورنس ان يسمح له بترجمة كتاب سوف يخصص لضحايا المظالم الفرنسية في سوريا . ويعلق جريفز على هذه القصة مباهياً ان الكتاب لن ينشر بالفرنسية في حياة لورنس . والواقع يكذب ذلك اذ ان هذا الكتاب ترجم فعلا الى الفرنسية ، وقد دفعت ترجمته الجنرال بريمون عند اطلاعه عليها ان يؤلف كتابه للرد على لورنس ، وظهر كتاب بريمون عام ١٩٣١ وادعى لورنس ان ريع الطبعة الانجليزية خصص للجمعيات الخيرية في سلاح الطيران البريطاني (لا لضحايا المظالم الفرنسية) ولكن المؤلف لا يجد ما يؤيد هذا الادعاء .

بعد الحرب

يستغرب الكثيرون كيف ان لورنس طلق الفرص الكثيرة الـتي كانت ستتيحها له شهرته ، واختار ان ينخرط في سلك الجندية كفـرد عادي . لقد قال ونستون تشرشل انه عرض عليه ، يـوم كان وزيراً للمستعمرات ، ان يعينه في احد المناصب الهامة ولكنه اعتذر عن ذلك ، ويفسر الدنجتون تصرفه هذا بشعوره المرير بخطيئة امه والى انه ابن سفاح وان هذا السبب الذي دفعه الى تغيير اسمه الى روس ثم الى شو . ويقول الدنجتون انه كان يكره امه كراهية عظيمة وانه لم ينخرط في سلك الجيش ، الا لكي يحول دون رؤيتها له واختلاطها به .

وهكذا توسط له بعض اصدقائه من ذوي النفوذ فاتاحوا له الانخراط في قوات الطيران ، وبقي بضعة اشهر في عمله هذا حتى بلغ خبر وجوده الى احدى الصحف فنشرت الخبر . واضطر المسؤولون في وزارة الطيران الى تسريحه ، فاعلن لاحد اصدقائه انه عازم على الانتحار قريباً . اما صديقه فقد كتب لبرنارد شو يحيطه علماً بعزم لورنس فكتب شـو الى رئيس الوزراء ستانلي بلدوين يقول له : انه اذا اضطرت الحكومة لورنس ان ينتحر فانه – شو – سيخلق من الحادث فضيحة مخيفة تهز ثقة الشعب بالحكومة خاصة بعد ان جعل كتاب توماس من لورنس بطـلا شعبياً في انظار الجماهير .

واضطر رئيس الوزراء الى اصدار امره باعادة لورنس الى صفوف الجيش ، ويقول الدنجتون « ان في هذا برهاناً واضحاً على المبدأ الاساسي للحكومات البريطانية بان تخضع للتهديد واعمال العنف في المسائل التي لا تجدي فيها براهين العدالة والمنطق » ويضيف الى هذا قوله : ان هـذا العمل كان من ابرع مؤامرات لورنس اذ استطاع به ان يروّع رئيس وزارة بريطانية ويضطره للخضوع لتهديد فرد عادي من افراد الجيش قد يكون جاداً وقد لا يكون .

ونقل لورنس الى كراتشي عام ١٩٢٧ ثم الى مرغشاه قريباً من حدود افغانستان ، وخلال اقامته هناك ذاع في الصحف انه يعمل جاسوساً لاثارة الاضطراب في تلك الانحاء ، فاضطرت الحكومة لاعادته الى بريطانيا . واتهمه احد نواب حزب العمال بانه جاسوس يعمل على تقوية الاستعمار البريطاني .

ومع ان برنارد شو قال ان لورنس كان يكره التحـدث عن الدكتاتوريين مثل لينين وستالين وهتلر وموسوليني واتاتورك ، فان لموته علاقة بالدكتاتوريين ، اذ كتب اليه احد الاشخاص رسالة يقترح عليه فيها ان يرتب مقابلة بينه وبين هتلر ، وطلب منه موعداً للتباحث بهذا الشأن ، فمضى لورنس الى مكتب البريد المجاور لمنزله وارسل برقية يضرب فيها موعداً للقاء صاحب الرسالة ، وفي طريق عودته انحرفت به دراجته وسقط عـلى الارض ثم مات متأثراً بجراحه يوم ١٩ ايار ١٩٣٥ .

لورنس والعرب

ارى ، من وجهة النظر العربية ، ان الدنجتون اخطأ في امرين : اولاً انه وضع لورنس والعرب في كفة ميزان واحدة ، وعندما اخذ يحط من قيمة المجهود الذي بذله لورنس ظن ان ذلك يقتضيه ان يحط ايضـاً من قيمة مجهود العرب الحربي ، ثانيـاً في انه اخـذ بوجهة النظر الفرنسية دون تمحيص واعتمد كلياً على كتاب الجنرال بريمون « الحجاز في الحرب العالمية » .

وقد غاب عن ذهن الدنجتون ان لورنس كان يلعب على الحبلين . وقد قال عوني عبد الهادي الذي كان سكرتيراً لفيصل ١٩١٩ « ان لورنس اوهم الانجليز انه ذو مكانة عظيمة عند العرب فصدقوه ، كما اوهم العرب ان مركزه عند قومه كبير ليشعرهم باهميته ويكسب ثقتهم » . وفي هـذا مفتاح السرّ لكل من اراد ان يبحث في حقيقـة الدور الذي لعبه لورنس خلال الثورة العربية ، وفي كل الزيف والدجل الذي رافق ذلك الدور .

ومن الاوهام السخيفة الظن بان لورنس كان مخلصـاً للعرب وقضيتهم ، او انه كان عـلى فهم وادراك صحيحين للعوامل التي كانت تتفاعل في تربة الذهنية العربية . لقد كان اخلاص لورنس للعرب لا يخرج عن نطاق اخلاصه لبلاده . فاذا ساهم في مجهودهم الحربي فلان ذلك المجهود يخفف عن كاهل الجيش البريطاني الزاحف من سيناء . واذا طالب ان تعضد انجلترا مطالب العرب الاستقلالية فلانه كان ينتوي ان يجعل من بريطانيا حارساً ووصياً شرعياً على ذلك الاستقلال . واذا قاوم محاولات فرنسا في بسط نفوذها فلانه كان يخشى

ان يحول ذلك النفوذ دون تحقيق المصالح البريطانية .

وفي مؤلفات لورنس ورسائله اقوال كثيرة واضحة تؤيد وجهة النظر هذه دون مواربة ، ففي مقدمة « اعمدة الحكمة السبعة » يقول مباهياً : « لقد قصدت ان اصنع امة جديدة وان اعيد للعالم نفوذاً ضائعاً ، وان اعطي عشرين مليوناً من الساميين قاعدة يبنون عليها قلاع افكارهم القومية »

وجاء في رسالة منه الى ليدل هارت قوله « انني كنت ارفض دائماً التحدث عن حلم الوحدة العربية . فالمصاعب المادية تجعل هذه الوحدة مستحيلة . لقد كنت دائماً واقعياً اغتنم الفرص في خططي ، والوحدة العربية فكرة جنونية . ولم احلم حتى بامكانية اتحاد الحجاز مع سوريا . وكان رأيي دائماً تاليف عدة دويلات صغيرة ».

وفي رسالة منه لبرنارد شو (١٧ - ٨ - ١٩٢٢) قال : « بعد ان حل السلام ، اكتشفت انني كنت الشخص الوحيد الذي يعرف حقيقة ما حدث في بلاد العرب خلال الحرب ؛ واذ كنت كذلك الشخص الوحيد في الجيش العربي فقد صار من الواجب المهني علي ان اسجل تاريخ تلك الاحداث . »

اما بشأن العرب واخلاصه للعرب وتفهمه لقضيتهم ، فيكفي ان نأخذ بعض الامثلة للتدليل على حقيقة لورنس . ففي مقدمة « اعمدة الحكمة » قال : « ان اكثر ما يبعث افتخاري في الثلاثين معركة التي اشتركت فيها – هو ان الدم الانجليزي لم يهرق . ان جميع ممتلكات الامبراطورية لم تكن بالنسبة لي تساوي مقتل فتى انجليزي واحد . »

وابن ادعاءات لورنس من حبه للعرب بينما رماهم في كتاباته بكثير من النقائص كقوله مثلاً انهم كانوا يعالجون جراحهم بالبول .

وعندما صار الاتفاق في القاهرة عام ١٩٢١ على انشاء حكومتين عربيتين في العراق والاردن ، اعلن لورنس ان بريطانيا وفت بوعودها للعرب . ففي مسودة المقدمة التي كتبها لمختصر اعمدة الحكمة قال « يجب ان اسجل هنا اعتقادي بان انجلترا خرجت من القضية العربية بيدين نظيفتين » وفي عبارة الاهداء التي كتبها على نسخة « اعمدة الحكمة السبعة » التي قدمها لتشرشل قال « الى ونستون تشرشل الذي وضع نهاية سعيدة لهذه المسرحية » ودعاها ايضاً : « تسوية امينة »

وفي رسالة منه الى روبرت جريفز (٤ - ٢ - ١٩٣٥) قال « لقد انضممت الى سلاح الطيران بعد ان قومت مع ونستون (تشرشل) تلك الورطة الشرقية ، وكان ذلك واجباً علي لانني كنت احد اسباب تلك الورطة . وما أفضل ما تم في الشرق الاوسط . لقد ربح من تلك الحرب اكثر من اي جزء آخر من اجزاء العالم »

اما بشأن علاقته مع اليهود واشتراكه معهم في المؤامرة على عروبة فلسطين ، فيكفي للتدليل عليها القول انه ظهر في احدى الصحف الانجليزية مقال جاء فيه ان لورنس قال لوايزمن عام ١٩٢٢ ان الارساليات الدينية الاجنبية في فلسطين تساهم في تنظيم الدعاية ضد اليهود . وكتب المطران الانجليزي في القدس يطلب من لورنس ان ينفي ما جاء في ذلك المقال . فرد لورانس على المطران برسالة وقحة جاء فيها « ان الدكتور وايزمن رجل عظيم لا استحق انا ان امسح حذاءه وكذلك لا تستحق انت يا عزيزي المطران »

وقد اشترك المؤلف مع لورنس في مجانبة الحقيقة ، اذ سخر من قول فيصل في مؤتمر الصلح ان العرب خسروا عشرين الف قتيل خلال الحرب ، وانهم عطلوا واسروا اربعين الف مقاتل تركي . وقال ان القوة النظامية في الجيش العربي لم تزد على ستمئة مقاتل . ويؤيد الدنجتون ادعاءات لورنس التي ابداها في الفصول الاخيرة من « اعمدة الحكمة » اذ ادعى انه ادار شؤون الدولة في دمشق خلال ثلاثة ايام في الفترة بين انسحاب الاتراك وقدوم فيصل ، كما يقول انه هو الذي عين شكري الايوبي رئيساً لحكومة دمشق ثم ارسله الى بيروت . وقد استوضحت من دولة الاستاذ فارس الخوري عن هذا الامر فنفى جازماً ان يكون لورنس قد تدخل في شأن من شؤون الادارة ، وقال انه وسبعة زعماء آخرين تسلموا زمام السلطة بعد انسحاب الاتراك وانتخبوا شكري الايوبي رئيساً للادارة في دمشق ثم قدم رضا الركابي عليهم فتسلم الرئاسة وعينوا الايوبي حاكماً عسكرياً على بيروت .

وترى المؤلف يدافع عن معاهدة سايكس بيكو دفاعاً حاراً وحجته في ذلك ان الانجليز والفرنسيين بذلوا دماءهم واموالهم في الحرب وانهم اولى بثمرات النصر من العرب الذين لم يفعلوا شيئاً مذكوراً في رأيه ، وهو يوجه اشد اللوم لحكومته لانها حاولت في بداية الامر ان تعضد العرب وتشجعهم على اخراج الفرنسيين من البلاد التي كسبوها بجقهم المشروع !! لا رغبة صادقة منها في استقلال العرب بل لفرض نفوذها وحدها على هذه المنطقة .

ويتحدث المؤلف عن المصالح التاريخية لفرنسا في سوريا حديثاً ملؤه الروح الاستعمارية ، ويدعي ان سكان هذه المنطقة لا يؤلفون امة بالمعنى الصحيح لتعدد الاجناس واللغات. ويقول ان لورنس واصدقاءه تجاهلوا عاملاً هاماً كان سيؤدي الى استقرار الحال في الشرق الا وهو التفاهم الوطيد بين فرنسا وبريطانيا . ثم تراه يهاجم لجنة الاستفتاء الاميركية ويقول انها جعلت همها ايجاد الاسباب للحيلولة دون انتداب فرنسا على سوريا . واتهمها بالتحيز والتقصير ، ثم يمضي في دفاعه عن استيلاء فرنسا على سوريا وعن حكمها بعد ذلك حتى يخرج عن موضوع الكتاب فيتغنى بالنعم الموهومة التي حلت على سوريا خلال فترة الانتداب الفرنسي .

الخلاصة

لقد ثار في بريطانيا جدل عنيف حول هذا الكتاب . واشترك في النقاش المعقب العسكري ليدل هارت فقال ان الدنجتون يحاول اثارة اهتمام الناس به عن طريق كيل التهم للآخرين . وشبهه بمخبري الشرطة الذين يتلصصون على ثقوب الابواب . وقال ان كتابه يحتوي على كثير من الاكاذيب.

وكتبت قرينة المثال كنجستون تكذب ادعاء الدنجتون في ان لورنس هجر الحياة العامة بسبب كرهه لأمه وحنقه على اثمها ، وقالت ان انزواءه لم يكن الا تعبيراً عن سخطه على الوهن الجنسي الذي اصابه نتيجة الضرب المبرح في درعا عام ١٩١٧ عندما كان يتجول فيها متنكراً وحاول احد الضباط الاتراك ان يرتكب معه عملاً شنيعاً شائناً .

ومن الواضح ان لورنس كان ذكياً بارع الذكاء، وكان الى ذلك نشيطاً جم النشاط ، ولكن ذكاءه ونشاطه ما كانا يستطيعان تحقيق كل الامجاد والاعمال الباهرة التي ادعى انه حققها . وقد ترجم كتاب الدنجتون الى الفرنسية بعنوان « لورنس الدجال »

لقد بدأت شهرة لورنس على يد توماس الامريكي . ومن الدلائل الواضحة انه كان يلعب على الحبلين ثبوت تعاونه مع توماس وجريفز وهارت في الكتب التي الفوها عنه ، ثبوتاً لا يقبل الشك ، وثبوت الحقيقة الاخرى بانه طلب اليهم الاشارة في كتبهم الى انه لم يطلع على تلك الكتب .

ففي كتاب توماس نقرأ ما يلي « ان الناشرين والمؤلف يرغبون ان يقرروا ان الكولونيل لورنس لم يكن مصدر ما في هذا الكتاب من معلومات ، وانه غير مسؤول عن محتوياته » . وقد كتب الدنجتون الى توماس يستوضح منه فبعث اليه هذا برسالة عام ١٩٥٠ قال فيها « ان لورنس ساعدني بوسائل عديدة في المحاضرة التي كررت القاءها اكثر من الفي مرة ، وبالاضافة الى هذا فقد عمل في اعداد الكتاب مع انه كان شديد الرغبة يومذاك في ان لا يعلم احد بتعاونه معي. »

اما كتاب جريفز فقد احتوت مقدمته على العبارات التالية « من سوء الحظ انني لم اتمكن من عرض مخطوط الكتاب على لورنس قبل دفعه الى المطبعة ، ولذا فانني اعتذر له عن اية اخطاء وردت فيه » . ولكن جريفز ذاته اعترف بعد وفاة لورنس ان « لورنس قرأ ووافق على كل كلمة في الكتاب ، ولكنه طلب الي ان اذكر في مقدمتي ان الكتاب لم يعرض عليه »

ولا شك في ان شخصية لورنس تنطوي على شيء من الشذوذ ، وقد ابدى اللنبي ووايفل اشتباههما في تدجيل لورنس وتهريجه . اما برنارد شو فقد قال انه ولد ليكون ممثلاً وصانعاً لجميع انواع الاحابيل « ووصفه احسن وصف اذ كان خبيراً بهذا الطراز من الناس فقال « عندما كان في وسط المسرح وجميع الاضواء متجهة اليه ، كنت ترى كل الناس يشيرون اليه ويقولون : انظروا ، انه يكره الشهرة وبعد الصيت » .

ولا شك ايضاً في انه كان يستمرىء الشعور بانه من عنصر سلالي ارقى من بقية العناصر ، فقد قال عن الهنود وهو في كراتشي « ان فيهم دناءة خفية تجعلني حانقاً على كونهم يشبهوننا في هيئة اجسادهم » ، وفي اعمدة الحكمة قال انه « يتأذى لان الزنوج يمتلكون اعضاء لاجسامهم تماثل اعضاء اجسامنا »

اما اختياره لاسم شو نهائياً وبشكل قانوني ، فلانه وجد في برنارد شو وقرينته بديلاً عن ابيه وامه ، وكانا يبادلانه هذا الشعور اذ لم يكن لهما اولاد . وقد اعترف لشارلوت شو بادق اسرار حياته ، وكانت هي الشخص الوحيد الذي باح له بحقيقة مولده . كما اسر لها بالعار الذي لحق به في درعا .

وبعد . فهل كان لورنس عبقرياً جديراً بالشهرة العريضة التي ذاعت له ، ام كان بارعاً في استغلال الظروف قادراً على حبك المؤامرات ؟... هل كان لورنس رجلاً قديراً ام بهلواناً دجالاً ؟... هل كان لورنس مخلصاً للعرب محباً لهم ام كان يقوم بينهم بتمثيل دور مسرحي في خدمة امته وبلاده وغروره هو ؟

هذه اسئلة دارت في اذهان كثيرين . وارجو ان يكون هذا المقال قد وفق في الاجابة عليها .

المفرق (الاردن) **سليمان موسى**

معايدة من باريس

وخدعت نفسك يا صديق ،
فقذفتها عبر البحار الزرق من ارض الاخاء
سهماً تلطخه الدماء ..
من ارض نابليون .. سهماً يا صديق ،
عبر البحار قذفتها ، من ارض لائحة الحقوق:
« في العيد – لا زلتم بخير –
في كل عيد
انتم بخير
تتعانقون .. وتمرحون
وترفرفرن ..
وتغازلون هوى الاحبة بالعيون . »

***

شكراً .. ومعذرة صديقي ، فالطريق
ما زال يجهلها الصديق ..
ما زال يجهل ان بيت العنكبوت
في ارضنا ، عبر الصحارى ، والبحار
ابداً يخيم في البيوت
وعلى السقوف او الجدار ،
ويلوث الحلوى .. فيأكلها الصغار

***

انّا هنا .. في كل عام
في شرقنا – في كل عامٍ .. في العراء
حيث المآسي والملاجيء والخيام –
نلهو مع الموتى هنا .. وبلا حياء
نتبادل القبلات موتى اغبياء ،
ونصافح الايدي على الدم والصديد
في مأتم سمّوه عيد ،
انا هنا . في شرقنا ، نلهو فتبصقنا المدينه
من حمأة الحانات .. كالاقذار ..
تبصقنا المدينه
كتلًا مشوهة حزينه ،
ومن العفونة .. من مواخير الفنـاء ،
عبر الشوارع ، والدروب السود ..
يبصقنا الفناء ..
ويقيؤنا كتلًا من الدم والعفونه ،
فنشد ايدينا الملوثة الحزينه
كالثلج باردة على الدم والصديد :
« عيد سعيد يا سعيد
وهوى جديد ،
لا زلت حياً يا اخي ، في كل عام
تحيا ، وتنعم بالسلام »

***

في كل عام يا صديق نعيش مأساة جديده
صفر الضمائر سادرين ،
نلهو مع الحلم النضير .. ولا نفكر بالمصير
فنصافح الايدي بليده
في شرقنا .. في العيد .. في حلم نضير
نحيا ، وقد روي الحديد
بدمائنا في المغرب الاقصى الجريح
وفي فلسطين الشهيدة .

***

اي يا صديقي .. أيّ تهنئة بعيد
في الشرق ، يقذفها البريد
من ارض نابوليون ، تزخر بالدماء
من ارضهم .. ارض الاخاء !
شكراً .. فما زلنا بخير
في كل عام يا اخي .. في كل عام
نحيا وننعم بالسلام !

بغداد — **محمد جميل شلش**

وجبة خفيفة

قصة لسومرست موم

كانت قد قرأت كتاباً لي كما يظهر ، فكتبت لي تتحدث عن العبقرية الفياضة والملاحظة الدقيقة ، والملكة الانتقادية و .. قالت اخيراً انها تريد مقابلتي ، ولكن وقتها الثمين لا يسمح لها ، ومع ذلك فلا بأس ان اقابلها ، وحددت الزمان والمكان ، في مطعم فوييه . ويظهر ان صاحبتي كانت رفيقة بي . فمطعم فوييه لا يستقبل الا اعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي .. ولم يسعني ان ارفض ، وقد اطرتني ذلك الاطراء البديع ، وهل يمكنني ان ارفض طلباً .. لسيدة ؟ ..

وكان الشهر في اوائله ، فلا بد من مشروع تقنين لمدة لا تزيد كثيراً عن الخمسة عشر يوماً . ورحت اضرب اخماساً باسداس ، واتذكر مبادىء الحساب التي كان المعلم يوصينا باتباعها ..غداء معتدل لا يكلف عادة اكثر من خمسة عشر فرنكاً ذهبياً .. فيتبقى خمسة وستون .. واذا اقتطعت مصروف القهوة ، فيمكن ان تتكفل الخمسة والستون فرنكاً ذهبياً باسعافي حتى نهاية الشهر .

وكان يوم الخميس ..

ونعمت مرآتي الوحيـــدة بمجالستي لزمن طويل ...

لكنها لم تكن جذابة .. كانت تتقدم نحو الاربعين بسرعة فائقة .. وماذا يعمل ابن عشرين في ضعف عمره ؟. وكانت لا تتحدث كثيراً .. اما اذا ذكر الادب .. اذا ذكر الفن .. فيجب ان تنصت باهتمام .. انها تحدثك عن مدارس الرسم .. عن نزعات الادب .. عن الكاريكاتور في الادب .. وعندما وصلت الي تذكرت اني لم انظف اذني منذ اكثر من شهر . يمكنك دائماً ألا تنصت الى الاحاديث .. فبوسعك ان توافق عند كل لفتة .. ولكن عندما يتجه الحديث اليك تتساءل : « لماذا لم يخلق الله للانسان اكثر من اذنين ؟ »

وجاءت قائمة الطعام ، وكانت اعلى مركزاً من مركز اعضاء مجلس الشيوخ .. ويظهر ان صاحبتي ذكية اكثر من اللازم ، فحاولت ان تطمئني قائلة : « انني لا آكل اي شيء في الغداء » وتذكرت آنذاك ان الاطباء كثيراً ما يقننون الوجبات لمرضاهم . وتذكرت ايضاً ان الطب ذو نفع عظيم للانسانية . فاجبتها بلهجة عاتبة ، وقد اظهرت من الكرم ما يندى له جبين حاتم طي : « لا .. لا ينبغي ان تقولي هذا » وكأنها شعرت بصدق لهجتي وكرمي الفياض ، فاستدركت قائلة : « اني لا آكل الا صنفاً واحداً . سمكة صغيرة مثلاً .. ان الناس تأكلون كثيراً في هذه الايام .. وليس هذا من الحكمة في شيء .. ألا يوجد عندهم سمك سالمون ؟ » ولم يكن السالمون قد بدأ موسمه بعد ، ولم يكن له اي ذكر على قائمة الطعام ، لكن الجارسون لا يسعه ان يخيب لي طلباً ، ان سمكة سالمون رائعة قد وصلت الآن .. انها اول سمكة من نوعها تصلهم في هذا العام

وكان الجارسون — والحق يقال — اكثر كرماً واريحية مني ، فسرعان ما عاد وهو يقول : « هل تريد السيدة شيئاً آخر بينما تعد السمكة ؟ » وكان ما رجوته ، فان السيدة لا تأكل الا صنفاً واحداً .. الا .. اذا كان لديهم بعض الكافيار فالكافيار لا بأس به . وخاصة قبل الطعام .. انه يفتح الشهية والكافيـار احد المعجنات السريعة الهضم ، التي يسيل لها لعابك مرات ولا تستطيع الحصول عليها .. وتناولت قائمة الطعام ، واستعرضت الاسعار ، ثم طلبت كافيار للسيدة .. وشرحـة لحم غنم لنفسي .. ولم اكن اعرف ان صاحبتي قد درست الطب ، فقد راحت تشرح لي :« ان مثل هذه اللحوم الحمراء تنهك المعدة ، بينما السمك .. وسمك السالمون خاصة لا يعيقك عن العمل حتى لو اكلت منه كمية كبيرة ، فهو يمر بالترانزيت . » ولم احاول ان ادافع عن نفسي ، اذ لم تكن لي اية خبرة باللحوم ، كما انها لم تترك لي اي مجـال ، فقد انتقلت بسرعة ، هل رأيت الطائرات النفاثة ، من الحديث عن اللحوم الى الحديث عن المشروب ، وهي بالطبع لا تشرب اي شيء وخاصة في الغداء .. اما انا فلم اكن بحاجة لسؤال . ويظهر ان صاحبتي مغرمة بكل فرنسي الاصل ، فالنبيـــذ الابيض الفرنسي لا يعادله في سرعة الهضم الا سمك السالمون . ولم يكن النبيذ الابيض ليكلف غالياً ، لكن الدكتور منعها ان تشرب اي شيء .. ما عدا الشامبانيا .. ولم يكن هناك مجال للتردد ؛ فطلبت نصف زجـــاجة ، فسألتني

قائلة : « وماذا قررت ان تشرب ؟ » ولم اعهد نفسي حاضر البديهة كما كنت في ذلك الحين ، فرحت اسرد لهـــا نصائح الدكتور الذي عادني منذ شهرين ، وحرم عليّ تحريماً باتاً ان اذوق الخمر

وعندما جاء السالمون عادت صاحبتي الى الادب .. الى الفن .. وكانت ذات ذوق رفيع تستسيغ الموسيقى الهادئة التي تنساب في ارجاء مطعم فويبه .. وسرعان ما انتقلنا الى جو آخر حين وصل صحني .. الى جو اللحوم .. اللحـــوم الثقيلة الهضم .. والخفيفة الهضم .. والاديب .. وخاصة اذا كان مثلي يجب الا يأكل وجبة ثقيلة .. ليستطيع ان يعمل بعد الغداء .. وكانت شرحة اللحم لم تفارق صحني بعد بينما كان السالمون قد اختفى من صحنها ، فاومأت للجارسون وهي تقول : « اني لا آكل الاصنافاً واحداً كما ترى ، الا اذا كان عندهم بعض الهليون ، فالهليون لا يدانيه في سرعة الهضم إلا سمك السالمون .. اني لا آكل الا صنفاً واحداً . ولكن اذا الححت فلا بأس ببعض الهليون كسبيل للمحادثة . » ورحت العن الطب والاطباء ، وما يتحفوننا به من نصائح .. يجب ان تمضغ جيداً .. حتى يتخلل اللعاب اللقمة . ويتم الهضم في الفم . وسألتني بلطف وكرم زائد : « ألا تأكل بعض الهليون ؟ » ولم اكن بحاجة لسؤال ، فقالت : هناك اناس – والحق يقـــال لا يحبون الهليون .. ولا يمنعني ان اتصور سبب ذلك .. اما انت فانك تفسد ذوقك بما تأكله من هذا اللحم .. »

ولم يكن بسؤال آنذاك مـــا اذا كانت النقود التي في جيبي تكفيني حتى نهاية الشهر ، بل كان يجب ان اعرف اولاً اذا كانت تكفي لدفع الحساب .. سيكون موقفاً حرجاً لو وجدت نفسي مضطراً للاقتراض من صاحبتي .. ولكن لا يمكن ان افعل ذلك .. كنت اعرف ان جيبي لا يمكن ان تحوي اكثر من ثمانين فرنكاً ذهبياً الا اذا كانت الفرنكات الذهبية تتزاوج وتتكاثر . وكدت اعرف انه ليس امامي الا حل واحد اذا لم ينطبق حسابي على حساب الجارسون .. ان اضع يدي في جيبي .. وانهض مدهوشاً بحركة تمثيلية قائلاً اني قد سرقت .. واذا كانت صاحبتي لا تحمل ما يكفي لتسديد الحساب فما علي الا ان اترك ساعتي كرهينة .. لأعود يوماً ما اذا شاء الله .. ونقص الشهر بضعة ايام .. او عثر الحظ وربحت باليانصيب ..

وجاء الهليون ، فداعبت انفي رائحة الزبدة الذائبة ، تماماً كما داعبت انف يهوه رائحة القرابين المقدمة بين يديه .

وكان لا بد من القهوة ، لتساعد على هضم السالمون والهليون مع انهما لا يحتاجان الى مساعدة .. وقـالت صاحبتي وهي ترشف قهوتها بصوت مسموع كاد يطغى على صوت الموسيقى المنسابة في ارجاء المطعم : انني اعتقد اعتقاداً كليـاً ان المرء يجب ان يقوم عن مائدة الطعام وهو يشعر ببعض الجوع .. »
فسألتها بفارغ صبر : «أولا تزالين جائعة ؟ » فاجابت قائلة : « لست بالطبع جائعة .. ولكني لا احب ان اتخم معدتي في اية وجبة .. اني اشرب في الصباح بعض القهوة .. ولا آكل الا في المساء .. ولكني اتحدث عنك .. فاكل اللحوم الحمراء يثقل على معدتك .. فلا تستطيع ان تكتب او تفكر .. »

ثم .. كان شيء لم احسب له اي حساب .. فقد جـاء الجارسون وعلى وجهه ابتسامة مرضية ، وفي يده سلة صغيرة مغرية كابتسامته .. ومليئة بدراق تزينه بعض الحمرة تمامـاً كوجنة الفتاة الصغيرة لوّنها الخجل بالاحمرار .

وعادت صاحبتي الى الحديث ، وكانت مغرمة بالتحدث عني .. عن شرحة اللحم التي استقرت في زاوية صغـــيرة من زوايا معدتي .. لا عن قصصي وكتبي وادبي : « لقد اتخمت معدتك بشرحة اللحم فلم تعد تستطيع هضم اي شيء آخر .. اما انا فسآكل بعض الدراق .. والدراق مفيد .. وسريع الهضم كالهليون . »

واخيراً .. جاءت قائمة الحساب .. فتذكرت البلديات وفائدتها للشعب ، فهي التي تسعر الاطعمة .. والاقمشة ... وكل شيء .. وانتقلت الفرنكات الثمانون من جيبي لتستقر على الطاولة ، فرمقتها صاحبتي بنظرة ذات مغزى .. كان (البخشيش) متواضعاً .. لا يليق بشاب مهذب ان يدفعه في مطعم فويبه .

ولم يكن هذا كل شيء .. فعندما ركبت السيارة ودعتني بنصيحة اخيرة : « يجب ان تقتدي بي .. فانا – كما ترى – لا آكل الا وجبة خفيفة .. يجب ان تنهض من .. » وانقذني السائق اذ لمح اللون الاخضر .

اني لا احب الانتقام .. ولكن الظروف دوماً بجانبي أتعرف كم تزن صاحبتي اليوم ؟

نقلها الى العربية
عبد الرزاق السيد

النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

الأدب الفرنسي . هل هو في دور الاحتضار ؟

« حذار يا زملائي الاعزاء ! إن من ينظر الى الادب الفرنسي من الخارج يراه وكأنه يحتضر! »

هذا هو نداء التحذير الذي أطلقه في اواخر الشهر الماضي الكاتب الفرنسي المعروف مارك بلانبان Mrac Blancpain السكرتير العام للاتحاد الفرنسي . وقد علل هذا التحذير في مقال هام كانت له اصداء كبيرة في اوساط المثقفين الفرنسين ١ ، ونحن نوجزه فيما يلي :

« صحيح ان لغتنا الفرنسية تُدرس اليوم خارج فرنسا اكثر وخيراً مما كانت تدرس منذ عشرين او خمس وعشرين سنة ، وان بيع الكتب الفرنسية قد نما وازداد في الخارج ، وانه بلغ في العام الماضي خمسة وستين الف قنطار متري ، وان التصدير يشكل اليوم خُمس انتاج دور النشر والطباعة (ستة مليارات فرنك من مجموع ثلاثين ملياراً) ، ولكن هذا لا يعني شيئاً كثيراً ، فانا اعتقد ان هذا الازدهار مهدّد بصورة خطيرة .

« ذلك ان انتاجنا يظل غير كاف ؛ فنحن ننشر اقل مما ينبغي من الكتب الجديدة ، والطباعة الفرنسية لا تخرج منذ عشر سنوات إلا زهاء عشرة آلاف عنوان ، فلا تزيد في ذلك عما كانت تخرجه عام ١٩١٠ ؛ وفرنسا تأتي ، في هذه المنافسة التي تقصد الى اغناء الفكر البشري ، بعد الولايات المتحدة (١٣ الف عنوان في العام) وبعد المانيا (١٤ الف عنوان) وبريطانيا (١٨ الفاً) . وتزداد خطورة هذا الوضع حين نذكر ان النتاج الاميركي والبريطاني لا يتجزأ ان فاذا هما يسبقاننا بواحد وثلاثين الف كتاب جديد كل عام باللغة الانكليزية !

« وهناك خطر آخر : إن اكثر ما يباع من الكتب في العالم اليوم ، ليست هي كتبنا الفرنسية المعاصرة ، ليست هي آثار كتابنا الذين ينتمون الى الاجيال الجديدة ، إلا في ميادين الفن والتكنيك والعلم . ويفضل القراء الاجانب آثارنا الكلاسيكية للقرن التاسع عشر ؛ وجيل مالرو ومونترلان وبرنانوس هو آخر الاجيال الفرنسية الادبية التي اجتازت الحدود. اما كتاب ما بعد الحرب الفرنسيون ، فلا يجتازون هذه الحدود الا بصورة استثنائية ، وبعض الكتب التي ماتلبث ان تفقد مجدها وتنطفيء كشعلة مبللة!»

ويرى الكاتب ان اعظم خطر يهدد الثقافة الفرنسية في الخارج ، كامن في ان الكتب الفرنسية التي تترجم الى اللغات الاخرى تتناقص شيئاً فشيئاً ، وان قراء النتاج الفرنسين يسقط عددهم يوماً إثر يوم . « ولولا الكتيبة الكبيرة المؤلفة من الكلاسيكين والطبيعيين وقصاصي القرن التاسع عشر ، وامجاد القرن العشرين المكتسبة ، لكانت الترجمات من الفرنسية الى اللغات الاخرى لا شيء تقريباً . ومن الاحد عشر الف كتاب التي نخرجها كل عام لا يكاد يترجم اكثر من اربعمئة منها ، وهذا يقل عن نصف ما كان يترجم عن الفرنسية قبل الحرب الاخيرة ، ويقل عن ربع ما كان يترجم في السنوات التي اعقبت هذه الحرب . والواقع ان العالم ، منذ عشر سنوات ، اتجه الى فرنسا بدافع من الفضول والود ، بعد الكارثة التي حلت بها ؛ وكان ينتظر من فلاسفتنا واخلاقيينا اجوبة على قلقه ؛ وكان يؤمل من تفكيرنا ان يسكن تبرمه ، وان تعلمه حكمتنا ، بعد سنوات الصراع والكفاح ، فناً جديداً للحياة . وقد بدا سارتر وكامو امام العالم كأنهما مسيحا العصر الجديد ... والحق ان هذا الفضول وهذا الاندفاع هما الآن يحتضران ، الا في اليابان وايطاليا حيث يظل الناس متعطشين الى « الافكار الفرنسية والآلهة الفرنسيين » على حد قول « التايمس » . اما في كل مكان آخر ، فان رقعة الصحراء تتسع كل يوم ... فالولايات المتحدة مثلاً ، تترجم من الكتب الفرنسية بقدر ما تترجم الارجنتين .. ولا نغتر بنجاح ترجمة بعض الروايات الفرنسية الحديثة : فهذا يشبه في طبيعته نجاح بعض الافلام الفرنسية التي يقصدها الناس في البلاد الانكلوسكسونية او الاميركية اللاتينية ، ظناً منهم انها داعرة ! »

وبعد ان يتحدث بلانبان عن الاقلية الفرنسية التي تقرأ الانتاج الادبي في فرنسا نفسها ، وعن القراء الفرنسيين في بلجيكا وسويسرا وكندا وهايتي الذين يلتهمون نصف الكتب التي تصدرها دور النشر الفرنسية ، يستطرد الى القول :

« ان الترجمة هي وحدها التي تؤمن اكبر عدد من القراء ، وهي وحدها التي تستطيع ان تؤلف الكتائب الكبيرة : والواقع ان هذه الترجمة ، فيما يخص آثارنا اليوم ، تذبل وتموت ... وفي هذا تقهقر خطر لتأثيرنا الثقافي في العالم » .

ويذكر الكاتب انه سأل كثيراً من اصحاب المكتبات ، في كثير من بلدان العالم ، عن سبب هذا التقهقر للثقافة الفرنسية ، وعن ضعف الاقبال على ما يقرأ مترجماً عن الفرنسية ، فتحدث البعض عن « ضعف مهمة النقد » في الادب الفرنسي ؛ فالنقد يهتم بقراءة الكتب اكثر من اهتمامه بدراستها ، وبتقليبها اكثر من قراءتها ! وقد عادت الجوائز الادبية بالضرر على الانتاج اكثر مما عادت عليه بالفائدة « فالجوائز التي تكرس كاتباً معروفاً لا تفيد احداً شيئاً ، بل هي توحي بالعكس ان الادب لا يتجدد ، والجوائز التي تكتشف كاتباً جديداً لا تهتم بهذا الكاتب الا اذا تابع عمله ولم يخيب قراءه ومن اجل هذا قيل لي اكثر من مرة اننا حققنا لبعض الادباء شهرة زائفة وشققنا لهم دروباً لا تفضي الى اي مكان ! »

١ راجع العدد ١٤٦٥ من مجلة « لينوفيل ليترير » .

النشاط الثقافي في الغرب

« ولكن ليست هذه هي أخطر المآخذ ؛ وانما اخطرها انهم يحكمون على ادبنا الحاضر بأنه محدود ضمن اطاعه ، وانه يجترّ بلا انقطاع حكايات الفضائح نفسها ، وانه غريب على عالم اليوم ، غريب على تنوعه غرابتـــه على اعماقه ، بعيد عن قلقه بعده عن آماله ...

– ان الكاتب الفرنسي لا يخرج من ذاته « ولا من بيته ، ولا من مكتبته .

هذا ما قيل لي مرات عديدة ،وقيل لي ايضاً إن القراء باتوا ينصرفون عن ادب فقد حس الانسانية ؛ وان الادب الفرنسي الحديث « ضيق » و « لا روح له » وان الصلة بين القراء الواعين والمؤلف المثقف باتت ضيقة جداً » .

وينهي الكاتب مقاله الخطير بان يتوجه الى الادباء قائلاً :

« حذار يا زملائي الاعزاء ! إن من ينظر الى الادب الفرنسي من الخارج يراه وكأنه يحتضر ! هذا الادب الذي كان الى وقت قصير احد الآداب العالمية الكبرى ، ليس هو الان في رأي الكثيرين الا ادبــاً محلياً ككثير غيره . انه سقط من مكان مرتفع جداً ! فحذار ، يا زملائي الاعزاء ! سوف يأتي وقت ، بل لقد اتى هذا الوقت الذي بتنا لا نهم فيه احداً . فكروا بان جيراننا الانكليز ، اصدقاءنا الذين يمارســون لغتنا كما لم يمارسوها قط، والذين يروننا عن قــرب ، وينشرون في بعض صحفهم صفحات خاصة يكرسونها لآدابنا .. ان اصدقاءنا الانكليـــز هؤلاء يوصدون مكتباتهم دون انتاجنا : فلقد بمنام تسعة آلاف قنطار متري من الكتب الفرنسية عام ١٩٥١ ،واقل من خمسة آلاف عام ١٩٥٢ واقل من الفين وخمسمئة عام ١٩٥٣ .. وفي الوقت نفسه ، باتـــوا لا يترجمون من آثارنا ، وهم من هم في الاقبال على المطالعة، اكثر مما يترجمه اليوغسلافيون او الارجنتينيون !

« حذار ! يا زملائي الاعزاء ! إن الامر سينتهي بنا ان لا نجد بعد قراء غير انفسنا وغير اقربائنا واصدقائنا ، فنشبه بذلك تلك الابقار الـــتي تشرب هي نفسها لبنها ، من اجل ان تتغذى !»

***

دعوة الى الشعر

قام اديبان اذاعيان هما فيليب سوبو وجان شوكيه ، باجراء استفتاء ادبي هام في الشهرين الماضيين عن أجمل خمسين قصيدة فرنسية في القرنـــين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ وقد أجاب على هذا الاستفتاء اكثر من اربعة آلاف مستمع من مستمعي المحطة الباريسية ، وكان هناك سؤال إضافي عن أجمل ثلاث قصائد في اللغة الفرنسية ، فنالت اكثرية الاصوات قصيـــدة « البحيرة » للامرتين و « أنشودة المشانيق » لفيون ، و « في كاساندر » لرونسار .

ومما يثير الاهتمام ان هيغو قد اتى الرابع في لائحة الشعراء المجلين ؛ اما اروع شاعر ، في رأي اغلبية المستمعين الذين اشتركوا في الاستفتاء، فهو رونسار . وتأتي بعد ذلك اسماء سانت بوف ولافونتين وفرلين وفيون وبودلير ودوبللي ، وقد نالت قصيدة هذا الاخير التي عنوانها « حسرات » ثلاثة آلاف وستة اصوات . وبعده لامرتين وموسيه وشينيـــه ودوفيني وشارل دورليان . اما شعراء القرن السابع عشر فقد ذكر منهم مالرب وبوالو وفلوريان ، ولكن المعجب ان مارو يأتي قبل رامبو ، وفولتير قبل هيرديا ، وريمي بللو قبل كورني !

وقد قال سوبو تعليقاً على هذا الاستفتاء : إن جميع القصائد التي كانت موضوع الدرس (وهي ٥٠٠ قصيدة) قد نالت عدداً من الاصوات ، وإن القصائد الغرامية هي اشد القصائد حظوة ، حتى ان القراء اختاروا من جميع قصائد لافونتين قصيدة « الحمامتان » ... الحب ، والشعر ... هل يمكننا ان ننكر ان في صدر كل فرنسي شاعراً يغفو ؟ »

أشتات ادبية

• يزور جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار الصين الشعبية في هذه الايام . وقد سئل سارتر عن المزية التي تنال اعظم تقديره في الناس فأجاب: « الشخصية مع جميع تعقيداتها . إن الرجال والنساء يثيرون اهتمامي بجميع مظاهرهم ، لا بمظهر واحد فيهم . »

• تقوم فرقة الكوميدي فرانسيز ، لاول مرة بعد انشائها منذ ثلاثة قرون ، بدورة كبـــيرة تزور فيهـــا مونتريال وتورنتو واوتاوا ونيويورك ، وتقدم احدث مسرحياتـــها بالاشتراك مع عشرين ممثلاً من ممثليها .

• نشرت مجلة « الآداب الحديثة » Les Lettres Nouvelles في عددهـــا الاخير دراسة هامة بقلم لويس ماسينيون عن«ماري انطوانيت » يكشف فيها نواحي مجهولة من حياة الملكة . وخصصت مجلة «الطاولة المستديرة » La Table Ronde عددها الاخير للوسم الادبي الجديد ، وقدمت نفراً من الروائيين الشباب الذين يخرجون برواياتهم لاول مرة الى السوق الادبية.

النشاط الثقافي في الغرب

الاتحاد السوفياتي

عودة الحب .. الى المسرح السوفياتي !

«ان المسرح السوفياتي «ينفرج» هو ايضاً. لقد انتهت الوان الدراما «الكورنيلية»؛ وانتهت الحشمة المبالغ فيها ازاء كلمة «الحب»، والمداجاة البطولية التي عرفها العهد الستاليني؛ كما زال عنصر الوعظ الذي لا مفر منه والذي كان يجسمه في المسرحيات والافلام امثال «الضربة الثالثة» او «سقوط برلين» شخص ستالين بالذات».

بهذه العبارات يبدأ الكسندر وورث A. Werth مقالاً هاماً نشرته اخيراً مجلة «فرانس اوبسرفاتور» (العدد ٢٧٩) بعنوان «موسم مسرحي حافل في موسكو». ويمضي الكاتب بعد ذلك فيقول:

«لم تعد هناك قواعد «مطلقة»؛ إن كل حالة تستحق ان تدرس مستقلة عن كل فكرة مسبقة. وقد نشرت «المجلة الادبية» Literatournaia Cazeta السوفياتية في عددها الصادر ١٧ آب الماضي مقالاً يتحدث فيه كاتبه سوخاريفيتش V. Soukharevitch عن مسرحية جديدة لا تزال تمثل على احد مسارح موسكو بعنوان «غرام آن بريزكو» بقلم بيستولنكو V. Pistolenko؛ والعنوان هو اسم زوجة شقية لرجل لا ضمير له. ويقول الناقد في تعليقه على المسرحية: «ان القانون يأمرنا ان نحمي الاسرة والاخلاق. ولكن حين تجد الدولة والشعب نفسيهما امام هذه المعضلة: ايهاخير، المحافظة على الاسرة بالقوة، ام انقاذ كائن بشري، فانهما يقفان دون اي شرط الى جانب الكائن البشري».

وموضوع المسرحية هو في ذاته ممتع، ويعد نموذجاً لعدد كبير من المسرحيات الجديدة التي تعالج موضوع «زواج العقل» او بالاحرى «زواج الحساب». وموضوع بيستولنكو هو قصة فتاة طيبة يطلبها احد المدرسين للزواج، وهو يفكر بأن يحوز على مركز مرموق، لكون ابيها عضواً في اكاديمية العلوم. ولكن ما كاد يمضي عام على ولادة اول طفل لهما حتى يموت الاب العالم، فيصاب سرج بخيبة شديدة ولا يعود يرى في الزواج اية مصلحة له. ولذلك يذهب في البحث عن فتاة كان قد خطبها قديماً وتخلى عنها، فاذا هي الآن مرشحة لعضوية المجلس السوفياتي الاعلى وهذا ما يزيد اهتمامه وفضوله. وتعلم زوجته آن بانحطاطه فتتركه، وكذلك تتركه المرشحة المنصب العالي. وبالاختصار فان الفضيلة هي التي تنتصر، وتجد الوصولية عقابها، بالرغم من تقوض الاسرة بسبب مسلك سرج. ولكن القضية، في رأي الناقد، «هي قضية انقاذ كائن بشري».

«ويتابع ناقد المجلة السوفياتية حديثه عن ثلاث مسرحيات اخرى، فيقول تعليقاً على موضوع الحب: إن الحب هو مظهر من ارفع مظاهر الصفة البشرية. فهو ينطوي على اندفاع الخيال، والعطش الى الانتصارات الكبيرة، وتيقظ اهم صفات النفس البشرية... ولكننا اذا عدنا الى الادب السوفياتي، فاننا لا نكاد نذكر عاشقين كانا سعيدين باستثناء بطلي شولوخوف: غريغوري واكسينيا. أمن الممكن ان يكون العالم السوفياتي فقيراً الى هذا الحد بالعواطف الكبيرة؟ او يكون الحب العميق الحار مجهولاً لدى النساء والرجال السوفيات؟»

«لا، ليس الامر كذلك على ما يبدو، والتعليل هو غير ذلك، حسب رأي ناقد المجلة السوفياتية: فان النقاد كانوا يميلون، طوال فترة من الزمن، الى احتقار ما كانوا يسمونه «الاحداث الغرامية» وهذا ما حمل الكتّاب، آخر الامر، على الانصراف عن الحب.

«يقول الناقد سوخاريفيتش: «وهكذا اضحى الحب في رواياتنا ومسرحياتنا عنصراً عرضياً، كقوة ثانوية في الصراع من اجل انتاج الآلات... والواقع انه عالم يستحق اعظم الاهتمام. فليهتم كتابنا وفنانونا بالحب اهتماماً جديا، فان بوسع آثارهم ان تكون بمثابة منبه للقارىء وان تحذره من اختيار رفيق شرير او رفيقة رديئة في الحياة، وبوسعها ان تفضح الانانية والبخل والتفكير البورجوازي وان تعرّض للسخرية الازواج الطاغين والزوجات الثرثارات، وبالاختصار، كل ما يستحق ان يفضحه المجتمع في الحياة الخاصة وكل ما يمنع الازواج والزوجات من ان يتطوروا ويعيشوا حياة جديرة بعصرنا.. وليست القضية بالطبع هي اصدار مواعظ اخلاقية، ولكن الذي يحتاج اليه الرجال والنساء السوفيات، ولا سيا الشبيبة، ان تعالج مسائل الحب والاخلاق والزواج والاسرة معالجة عميقة، وان تطرح القضايا «طرحاً صحيحاً» كما يقول تشيخوف.

«من الضروري إذن تجنب كل تبسيط وسذاجة. ويرى الناقد السوفياتي ان نموذج الوصولي في هذه المسرحية قد بولغ في تصويره باللون الاسود، كما ان البطلة آن، ملاك الطهر، لا بد تفتقر الى الذكاء لانها تركت نفسها منذ البدء تنخدع برجل مزيف الى هذا الحد، ويهاجم الكاتب نقص التحليل النفسي «والاستعجال» الذي عمد اليه المؤلف لالصاق الطوابع النهائية على شخصية كل بطل، فهذا «شخص سلبي» وذاك «ايجابي».

«ومن المسرحيات التي تعرض الآن في موسكو مسرحية «سفاتلايا» بقلم لافرانتييف V. Lavrentiev، وهي تتحدث عن خيانة شخص منحط لزوجته التي يهجرها ليلاحق فتاة جميلة تبحث عن خطيب ذي مركز مرموق فيتوصل اليها وتعلق منه. وهنا يكرهه الجميع ويطرد من عمله كمهندس وتتركه زوجته، ثم يهجره هو نفسه عشيقته. ويرى الناقد السوفياتي ان القصة هزيلة، بالرغم من بعض الاشخاص الثانويين المرسومين بدقة، وهو يجد عقاب مارنيا الجميلة قاسياً اكثر مما ينبغي، لا سيا وان الطفل سيتألم كثيراً من القضية، كما يحتج على الطريقة الساذجة التي تقوم على «رفع اصبع الاتهام» ضد «الشر»، فليس هذا من التأليف المسرحي

النشاط الثقافي في الغرب

الجيد . ويضيف انه ينبغي ان تكون حتى للشخص الكريه شخصية واضحة ذات سمات بارزة يتذكرها المشاهد وتحمله على التفكير والتقدير . »

وبعد ان يتحدث الكاتب عن مسرحية اخرى بعنوان «حديقة الزنبق» بقلم سولادور I. Solador تعرض على مسرح « الدراما والكوميديا » في موسكو ، يعرج على مسرحية « دولاب الحظ » بقلم الاخوين « تور » Tour التي لا تفتأ منذ اشهر تجذب اليها عدداً كبيراً من المشاهـدين ، وهي تصور عدة اشخاص في جو الطلاب بموسكو ، بينهم عـدد من الوصوليين والمشبوهين كتلك المرأة التي تدير وكالة سرية للتزويج . وعند ارتفاع الستار يرى طالبان يتحدثان عن الظروف الممتازة التي يعيش فيها طلاب جامعة موسكو الجديدة ، ويتفق ان تسقط من احدهما ، ويدعى بوريس ، رسالة تكشف عن انه متزوج ، بالرغم من انه يدعي العكس فيلتقطها زميله انطون ، وبعد احداث طويلة معقدة تتصف بروح المرح ، ينفضح أمر بوريس ويسقط من علياء شهرته » .

وينهي وورث مقاله بقوله :

« نرى من هذه الامثلة القليلة (وليست هي الوحيدة) ان ميدان الادب والمسرح قادم في الاتحاد السوفياتي على تطورات هامة نحـو التقدم ، شريطة ان تستمر الروح التي سادت محادثات جنيف ! »

انباء ادبية

● اقيم تمثال من البرونز لمايا كوفسكي امام متحفه ومكتبته في موسكو لمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لوفاته . والتمثال من صنع فنان شاب من جورجيا يدعى غورام كوردزاخيا G. kordzakia .

● انشيء بالقرب من جامعة موسكو مسرح خاص للطلاب يضم قسماً للاوبرا وقسماً للتمثيل . وقد افتتح هذا المسرح بتمثيلية كاتانيان «لقد عرفوا مايا كوفسكي.»

● نشرت « دار منشورات الاطفال » مجموعة من اقاصيـص الكاتب الدنمركي اندرسن مترجمة الى الروسية بمناسبة الذكرى المئة والخمسـين لوفاة الكاتب الدنمركي .

● لا تزال الصحافة السوفياتية تتحدث عن نتائج المؤتمر الثاني للكتاب السوفيات . وقد نشرت مجلة « الادب السوفياتي » في عددها الاخير اجوبة عدد من الادباء عن الانطباعات التي تركها المؤتمر في نفوسهم .

الولايات المتحدة

موسم القرى والارياف

انتقلت حركة النشاط الفني ، في الشهرين الاخيرين ، من نيويورك الى قرى صغيرة كثيرة ، استقبلت معظم الفرق المسرحية التي غادرت برودواي ، كما استقبلت الموسيقيين والرسامين وسواهم . والواقع ان فناني برودواي كانوا يجدون سحراً خاصاً في مسارح القرى المرتجلة ، فيتهافتون عليها في فترة العطلة ليقوموا بما يشاءون من ادوار . وقد اتيح لسكان نيويورك في الشهرين الماضيين ان يهجروا المدينة العظيمة الى القرى بعيدة او قريبة لقضاء امسية لطيفة في احد المسارح مع تناول عشاء خفيف ، كل ذلك كانت توفره لهم بعض شركات النقل الكبرى باسعار مخفضة . وهكذا فان الذين كانوا راغبين بمشاهدة تمثيلية هزلية لنويل كوارد في بانسلفانيا كانوا يتناولون وقعة من السمك ، اما في نيوجرسي ، حيث يستمعون ويشاهدون هزلية موسيقية ، فقد كان يحق لهم أن يأكلوا طعاماً صينياً ، واما الذين كانوا يفضلون مهرجـان شكسبير في الكونكتيكوت ، فقد كان عليهم أن يكتفوا بساندوتش ، ذلك ان هذه المقاطعة تفخر بقرية صغيرة تدعى ستراتفورد ، نظمت في هذه الاثناء مهرجاناً ضخماً لشكسبير عرضت فيه مسرحيته « يوليوس قيصر » و « العاصفة » ، وهما من المسرحيات التي قلما تعرض في مسارح برودواي الصاخبة التي تفتش عن الموضوعات الطريفة ، المسلية ، المضيعة للوقت في كثير من الاحيان !

واذا كان معظم الممثلين معروفين في ابعد القرى ، بفضل التلفزيون ، فليس الامر كذلك بالنسبة الى الرسامين والنحاتين المعروفين في نيويورك ، وقد احدث هؤلاء ثورة حقيقية حين نصبوا مراسمهم واقمشتهم ذات اللوحات التجريدية بين الفلاحين المشدوهين ... ولكن هؤلاء الفنانين ما لبثوا ان اكتسبوا القلوب فراحوا يبيعون لوحاتهم ويقيمون مسابقات مختلفة في الرسم والنحت بين الجمهور الهاوي .

الفن كقيمة ايجابية

نشرت مجلة « شيكاغو ريفيو » في عددها الاخير مقالاً هاماً بقلم كاتب فني معروف هو بن شان Ben Shan يتناول فيه بالدراسة عدة مسائل فنية ، ويطرح عدداً من الاسئلة الهامة عن الفن : « ما هي قيمة الفن ؟؟ ولمن هو قيمة ؟ وهل الشكل الصرف مطلق في الفن ؟ » ويصرح بن شان انه يعارض معارضة كاملة اولئك الذين يجيبون على السؤال الاخير بالايجاب ، ويقول في ذلك : « إن الاشكال الجديدة تولد على الارجح من حاجة المضامين الجديدة ، لا من البحث عن الشكل الصرف . »

وفيما يتعلق بالمستقبل ، يتنبأ الكاتب ويرجو ان تكون للفن ردود فعل ضد ما تنتجه حضارة الجماعة من نتائج ضد البشرية وضد الفن ، وان يتوجه اكثر فأكثر الى نزعة انسانية جديدة تعيد للانسان مركزه الرئيسي واهميته .

دراستان هامتان

كان اهم دراستين ظهرتا في المجلات الاميركية في الشهر الماضي همـا دراستان للشاعر والناقد الكبير ت . س . اليوت والناقد راندال . فقد كتب اليوت في العدد الاخير من مجلة هدسون The Hudson Review مقالا تناول فيه بالدرس رواية ويندهام لويس الاخيرة « الشيطـان المرح » Monstre Gai ، فقارنها بآثاره السابقة ، ولا سيما بروايته « يوم الابرياء » The Childermass . ويرى اليوت ان الرواية الاخيرة اشد نضجـاً وتماسكاً ووضوحاً ، ويضيف الى ذلك قوله : « اعتقد ان هذه الرواية تتكشف عن حس انساني اوفر واكثر نمواً » وهذا ما يكسب الرواية قيمتها الاساسية . اما اسلوب ويندهام لويس ، فان اليوت لا يتردد في التصريح بان صاحبه هو اكبر ناثر في اللغة الانكليزية من ناثري هذا الجيـل - ولعله الوحيد الذي خلق اسلوباً جديداً .

اما دراسة جاريل راندال Randall فقد نشرتها The Yale Review وتحدث فيها الناقد عن مجموعة والاس ستيفنز الشعرية الاخيرة (ويذكر القراء ان ستيفنز قد توفي في الشهر الماضي) ويرى راندال أن « القصائد الكاملة » لشاعر كستيفنز تمثل الوف الاشياء التي رؤيت وصورت بدقة ، وفكر فيها بعمق ، وليس من السهل ان يتعود الانسان على غناها وكنـوزها . والقاريء الذي يريد اكتشاف ستيفنز هو كالرحالة الذي يسعى الى اكتشاف قارة من القارات » ويرى الكاتب ان صميم شعر ستيفنز مصنوع مـن الافتتان والسعادة والفرحة التي يستشعرها الطفل او الحيوان او المتوحش - الانسان - في وجوده ذاته ، وفي الاعتراف بالجميل لهذه الفرحة . »

من أين انت ؟

من اين انت ؟ وزمجرت كلماته في مسمعيا
«نسر» من الوطن الكبير . . يجوب في العليا . قويا
ابداً . . أبى ، في القيل والاذلال . . ابراج الثريا
في الجو . . أوغل تاركاً . . للخنع العيش الرخيا
ومضى يحلق . ساحباً . . فجراً . . على الدنيا . . فتيا

واذا به . . يعني المدينة . . بلدتي . . بنت النضال
انا من ربى يافا . . من الشط المرصع باللآلي
وانامل الريح المعطر . . نمنمت . . وجه الرمال
وهناك ياخلي . . رضعت المجد . . من ثدي الدوالي
وبها . . فطمت على الزهور ، على عبير البرتقال

انا من ذرى الشهداء يسقون المروج المخمليه
بدمائهم . . جادوا . . يغذون الحقول السندسيه
فاذا خدود الزهر . . لونها النجيع . . بنفسجيه
ومع النسيم تفاوحت . . نشراً وارواحاً زكيه
لما تزل في خاطري . . تلك المشاهد . . بعد حيه

انا من هناك من الذرى الزهراء والموج اللعوب
انا من هناك . . من التلال متوجات باللهيب
والشمس اكليل من الياقوت ترقص في الغروب
قد داعبت خد السماء ، وصفحة اليم الطروب
وعلى كمان البحر تعزف للندى . . لحن المغيب

وتساقط الطل الندي على الرياض مع المساء
وتغازل الازرار . . ولهى . . في تعاريج السماء
تصبو الى الاوراد . . ترمقها باطراف السناء
ظمأى . . كعشاق تواعد . . في عناق . . للقاء
والبدر يسبح في مياه البحر . . فضي الضياء

وتسلل الفجر الرطيب الى الربى عبر البطاح
نفض الحياة على الزهور . . فعانقتها بالتياح
وتفتحت أجفانها طرباً . . على قبل الصباح
تذرو الندى . . درراً فينظمها قلائد للاقاحي
حمل النسيم اريجها . . وانساب منطلق الجناح

انا من تلال الرملة البيضاء . . ذهبها الاصيل
من سفح غزة . . من ربوع اللد . . تحضنها السهول
من روض حيفا ، روض كرملها ، تلذبه الشمول
من دوح يافا من عروس الشرق اسكرها الهديل
انا من ضلوع القدس . . شرحها بمبضعه الدخيل

انا من معين الثأر . . من ثغر الاعاصير الغضاب
انا من فلسطين التي انتفضت على قصف الحراب
قد ضلل الدخلاء شعباً . . جاهلاً . . غض الاهاب
فيها . فبات عرينها . . ملهى فسيحاً . . للذئاب
وعلى ايادي الساسة (النجباء) قد فرضوا اغترابي

يا خجلة التاريخ . . من جرم . . تسمر في جبينه
من سرب وحش ساوم الباغي الكريه على عرينه
والمدفع الهدار يقذف في الحمى . . حمى جنونه
فاذا القنابل . . تمضغ الاشلاء ، في فكي اتونه
قد لمها صوراً ليوم الثأر . . شعبي في جفونه

وتدفقت في خاطري صور المجازر والدماء . .
صور تمثل دير ياسين . . واشلاء النساء
والغيد في ساح النضال . . ممزقات الكبرياء
والشيب والشبان والاطفال . . جرحى في العراء
شعب برمته . . سعى في الارض مخضوب الاباء

تلك الفواجع . . زعزعت اصداؤها موتى القبور
وسرت تردد لحنها المحزون . . في سمع العصور
فلو انها سكبت على صخر . . لذاب من السعير
نقشت على قلبي . . معالم من لظى الالم المرير
فرأيت بلسمها . . وميض الثأر في وطني الكبير

انا من فلسطين الذبيح ومن طموح الارز ، ذاتي
من غوطة الثوار ، من صرح الصناديد الاباة
من دوحة الاردن واليمن المناضل . . للحياة
ومن الحجاز . . مقر وحي المنزلات البينات
والمغرب العربي . . والنيل المخلد . . والفرات

وطني من الدنيا . . جنان الورد من روض الخلود
قد مزقوه فزمجرت في الرمس ارواح الجدود
فلتغسل النيران ما فرض الطغاة من الحدود
وطن العروبة لا يوحد بالركوع ، وبالسجود
لكن يوحد . . بالدماء . . وبالشواظ وبالحديد

عمان — **بشير قبطي**

قرأت العدد الماضي من "الآداب"



بقلم
الدكتور علي سعد

ما كان اكثر الاسباب التي تميل بي الى عدم اجابة طلب « الآداب » نقد عددها الماضي . ولولم يكن لي الا التعلل بكثرة اشغالي، وهي لا تمت بأية صلة الى العمل الادبي ، والا اعتقادي بأنني لست مؤهلا لهذه المهمة ، لكفاني عذراً .

ولكنني قبلت ، رغم كل ذلك ، الدعوة ، لما في تلبيتها من متعة المخاطرة بمنازلة ادباء متمرسين بمختلف فنون الكلام ، ومن فائدة باتاحتها الفرصة لتعميق اتصالي بما تلقي به صفحاتها .

فان محاولة نقد العدد تحمل على الانتقال من الوضع السلبي ، والمريح الذي يقفه عادة القاريء من الآثار التي تعرضها عليه المجلة ، الى الوضع الايجابي ، وضع الانسان المدقق ، المسؤول عن احكامه عليها .

وتبعاً لهذه المسؤولية ، فهو سيضطر لاحكام بناء من المقاييس من المرونة بحيث يستطيع مواجهة جميع المجالات التي ينزل اليها المؤلفون ومن الثبات والتماسك بحيث يحافظ على نوع من الوحدة في الاتجاه وفي المصدر .

ولنبدأ الان ، طوافنا في العدد الماضي من « الآداب » . ولا بأس أن نبدأ بالشعر . ونحن نختار الشعر لسبب بسيط هو ان المجلة احبت ان تطالع القاريء بقصيدة الاستاذ خالد الشواف « المغرب العربي » في صفحتها الاولى التي كانت حتى اليوم ، منبراً تطل منه رئاسة التحرير او الاقلام الصديقة بالكلمات التي تعبر عن وجهة نظر المجلة في مختلف القضايا الادبية والفكرية .

وان اعطاء الصدارة للقصيدة ، الموضوعة بمناسبة النضال البطولي الذي تضطلع به شعوب المغرب العربي يدل على تعمد « الآداب » التأكيد بأهمية الشعر الوطني والشعر الذي يتناول مشاكل الشعوب العربية . وهذه البادرة محمودة في ذاتها . وهي تتفق مع رسالة « الآداب » كأداة تعبير عن الادب الملتزم وكصوت واع من اصوات الشعوب العربية .

ولكن النية شيء ، وصيغة الاختيار لتحقيقها شيء آخر . فان كنا نبارك محاوله « الآداب » لتشجيع الشعر النابع من وحي واقعنا الوطني، فاننا لا نشاركها محاولتها لتشجيع هذا الكلام المنظوم الذي تعطينا نموذجاً في مكان الصدارة من صفحاتها .

واننا نعتقد انه ليس من خطر على مذهب الالتزامية في الادب والدعوة الى الشعر الاجتماعي اكبر من الخطر الكامن في مسايرة المحاولات التي لا يشفع بها الا انها تتحدث في موضوع متصل بهمومنا الوطنية . فان الشعر الاجتماعي لن يستطيع فرض نفسه الا اذا بدأ بان يكون شعراً اي الا اذا بدأ بالتفرد بطابع الجمال الفني . وليس هنا مجال تحديد الشعر او مقومات الجمال الفني .

ولكننا نكتفي ، للتدليل على ما قصدناه بالشعر ، بأن ندعو القاريء الى مقارنة قصيدة « المغرب العربي » التي تتناول اروع ملحمة في حياة الشعب العربي الحديث ، مع « اندلسيات » نزار قباني المنشورة في العددنفسه . فهو ان فعل سيجد الفارق الصارخ بين الكلام الذي أعدّ لان يكون شعراً فما افلح ، رغم تسلحه بالوزن والقافية والنغم ، اي بكل التعاويذ السحرية التي ترافق القالب الشعري التقليدي، والكلام الذي ينبع الشعر من كل جوانبه رغم عدم تقيده بوزن وقافية ورغم تحرره من النغم الموضوعي .

هنا قالب شعري ولا شعر . وهناك مادة شعرية ولا قالب . هنا كلام تستطيع ان تجد مثله في أية جريدة سيارة وفي منظومات الصفوف التي يدرس فيها علم العروض ، فتخرج منه دون ان تمس باي انفعال ولا بأيغنى في احساسك وتجربتك ولا بأية رجة في كيانك ، على غنى الموضوع بالامكانيات في احداث مثل هذه الاثارة والزلزلة . وهناك كلام لا يتركك ابداً في الحال التي كنت عليها قبل انزلاقك معه ، لانه يغني طاقة حواسك على الاحساس ،ولانه رغم تحدثه عن الاشياء او التفاصيل التي قد تبدو قليلة الاهمية الاجتماعية ، كالعيون والشعر والاصابع ورداء ملك عربي ، وقرط في اذن حسناء اشبيلية وشباك في شارع اندلسي ، يثير في نفسك الاستعداد البطولي نفسه الذي تبعثه فيك قراءة شعر ملحمي .

فالكلمة الجميلة واللفتة الفنية الفذة والصورة الحية ، وسائل تفعل في نفس القاريء وتخلق فيها حالة التوتر التي لا يتم عمل نبيل او بطولي بدونها .

لا ، أنا لا اتخلى هنا عن بعض آرائي السابقة في حاجتنا الى ادب واقعي ؛ ولكنني احب لادبائنا الذين نريد منهم أن يعالجوا المواضيع التي يلح بها واقعنا الاجتماعي ان يتناولوها بالظرف والرشاقة وسعة الخيال وطرافة اللفتة (وكلها الوان مما يسميه الفرنجه Fantaisie) وبحلاوة اللفظة وكثافة دلالتها ودقتها في التعبير ، التي نلمح آثارها في « مذكرات اندلسية » لنزار قباني، وكما نلمحها في آثار شعراء لا تخجل المدرسة الواقعية من اتخاذهم نماذج لها كغوركي ومايا كوفسكي وناظم حكمت ولوركا ونيرودا .

ولا احب ان اترك نزار قباني قبل ان الاحظ انه رغم عودته في بعض مذكراته الاندلسية الى مصدر وحيه الاول: المرأة ، فانه في بعضها الآخر ، يبدو متابعاً سيره البطيء المتحرر من حالة الوتر الاحادي الذي كان عليه حتى وقت قريب . فهو في قرطبيتيه يؤكد من جديد تحوله عن التحويم الدائم حول عالم المرأة . وليته يذهب ابعد في هذا الالتفات للآفاق الشعرية الجديدة الذي بدأ بقصيدته « حبلى » وانتهى بقصيدته « خبز وحشيش وقمر » . فان نبرات صوته الجديد تضفي على غنائه غنى وتلاوين ورنة انسانية كانت تعوزه في دواوينه الاولى .

اما قصيدة « الشاعر والموت » فهي من الشعر العادي ، ولا اقول الباهت ويبدو ان صاحبها لم يتفلت بعد من النظرة الباكية الرومانسية للاشياء ، كما عرفناها في شعر شعرائنا اول اتصالهم بالادب العربي الحديث.

وتحاول قصيدة «فلسطين ابداً» ان تنقلنا الى جو سريالي .ولكن عبثاً. فان هذا الجو الذي جند له الشاعر كل ضروب التنافر في الانغام والصور والمفاهيم ، ظل محرماً علينا دخوله . ويا لضياع التعابير الغريبة والصور المبتورة والاستعارات والرموز البعيدة المرمى التي استخدمها الشاعر ليدهشنا . فقد يكون وفق الى بعث الدهشة فينا باكتشافه لاستعارات من امثال : « اذ تلمس الصدى يشع » و « ويسمعون البرق » و « فيسطع الظلام » وقد يكون نجح في تعجيز مداركنا عن اللحاق به في نقله الدائم للخطاب من صيغة المتكلم الى صيغة المخاطب فالغائب دون ان ندري لمن يوجه الحديث ولا من يوجهه ، وقد يكون نجح في التهويل علينا ببعثرته الصور واللوحات والكلمات دون اي التفات لربطها بالوشائج التي تجعل من الكلام شيئاً معداً للافهام، ولكن اياً من هذه الوسائل المعقدة لم يستطع ان يجرنا الى الاندماج الشعوري مع القصيدة . وهي ، بعد ذلك ، لم تترك اثراً يفهم منه اننا بصدد الحديث عن فلسطين ، كما يستدل من عنوانها « فلسطين ابداً ».

وكم يحلو ان اتصور ان هذه القصيدة وزعت على اخواننا اللاجئين الفلسطينيين ، افتراهم يتعرفون فيها الى وجه وطنهم او الى حقيقة مأساتهم، وهل ترى المثقفين منهم يتلقون منها الانفعالات والاحاسيس التي تدفعهم الى حملها في دمهم وفي افئدتهم وتهيء اندفاعهم في معركة الثأر ? ام تراهم سيلقون بها بعيداً عنهم لشعورهم بأنها لا تتحدث عنهم ، بل ولا تتحدث عن شيء بلغتهم التي يفهمون ? وكيف يتعرفون فيها الى وجه فلسطين وقد ورد في احد مقاطعها :

« وتحت آلاف الجسور تحمل المياه
قلوب آلاف الرجال ..

فانهم عندما يسمعون هذه العبارة ، سيهزون رؤوسهم ويقولون : « أتراه يحسب بلادنا على ضفاف الفولغا او الرين » ?

وعندما يقرأون في نهاية القصيدة :

... ما جدوى شذى الضياء
في عالم تباد فيه اجمل الورود ?
فلنحترق ، ماذا وراء الحب والغناء ? »

سيقولون : « افي فلسفة العبث هذه يرى مثقفونا السبيل الى انقاذ ، وحتى انت ، يا من يتوج شعره بأقوال اراغون ? »

وبعد ، فانني انتهز هذه المناسبة لاصارح بعض شعرائنا الذين يحاولون زج شعرنا في الدروب الملتوية التي سلكها الشعر الغربي الحديث ، بما كنت دائماً اتوق الى اعلانه : ان كل محاولاتهم لادخال التعقيد والابهام الى ادبنا العربي لن يكتب لها النجاح، كما لم يكتب البقاء لمحاولات فورونوف بتلقيح غدة حيوان على حيوان من نوع آخر لتنافر طبيعة الانسجة في النوعين .

فقد يجوز لاليوت أو لكوكتو أن يخاطبا قومهما بلغة معقدة ، لولبية ، أو انبيقية (كما تقول الفرنسية) وأن يبعثا في شعرهما جواً متجهماً زاخراً بالضباب والاشباح . فان في جو بلدتهما وسمائهما شيئاً من هذه الملامح . وان امتيهما وصلتا الى نهاية حضارة استنفد فيها الانسان قدرته على استيعاب القول المفهوم فحق له أن يجرب ترف القول غير المفهوم .

ولكن ذلك لا يجوز في بلداننا المشرقية التي تنوء سماؤها بالضياء ، فأصبح لزاماً أن يعكس ادبها هذا الضياء وهذا الاشراق ، في هذه البلدان التي لا تزال شعوبها الناشئة الهرمة تنتظر من الكلمة ، الكلمة الواضحة والقول البين المشرق ، بعض حلول الخلاص لكثير من مشاكلها والطاقات المحركة في اتجاه تحررها .

ان باستطاعة الغرب أن يبدد قواه الفكرية والتلهي بكل لون من الوان البهلوانية الادبية أو الفنية . فان فيه من المؤسسات التي تثقف الفرد والمجموع التثقيف القويم ما يكفيه لتحصين شعوبه ضد المحاولات لتعقيد الفكر والاحساس الفكري وتفتيت الكلام الى ايماءات ، والى وسائل تعبير غير مباشر .

أما نحن ، في شرقنا الذي لم يستكمل بعد الضروري من اعداده الثقافي ، فبحاجة الى آخر كلمة تولد من أقلام كتابنا والى آخر ومضة في ذهن مفكرينـــا . اننا بحاجة الى ان نزود كل ما يقال وما يكتب باقصى ما يمكن من طاقة على التعبير المباشر ، القادر على بلوغ أوسع ما يمكن من الفئات الانسانية . اننا ، اذن بحاجة الى ان نبسط ، وسعنا ، وسائل الاداء لنجعل أدبنا وشعرنا في متناول ابعد قاريء في مجتمعنا الذي لم يذهب بعد بعيداً عن طور العلم البدائي .

وانا أقول ذلك بمناسبة الحديث عن قصيدة الاستاذ كاظم جواد الذي رأيته يستشهد في كثير من مناقشاته السابقة بلوركا وناظم حكمت. افلم يجد في آثار هؤلاء ما يغريه بالبساطة في التعبير والوضوح في القول ، والشفافية في الجو الشعري ، دون التخلي عن كثافة المعاني والصور والانفعالات ؟

والحديث عن الشعر ، وعـــن لوركا وعن ناظم حكمت يجرنا ، بتسلل طبيعي غـــير مقصود ، الى قصيدة نجيب سرور « حفنتا دموع » وقد اعجبني فيها تواضع اللهجة وحلاوة النفس القصصي وبساطة الاداء، وجو من البراءة الطفلة يذكرنا بجو الحكايات العتيقةالتي أحببناها في طفولتناوالتي لا تزال ذكراها تحبب الينا الطفولة ، هذا الى عمق في دلالة الايماء الرمزي وحب عميق للحياة ، وانفتاح على الرجاء . ولا يسعنا الا أن نهنيء هـــذا الشاعر الذي يظهر في هذه القصيدة كما في قصيدتهالسابقة ، السندبادالبحري محاولة ناجحة لان يمد جذور شعره الى الينبوع السخي الذي خلقته حكاياتنا الشعبية القديمة والحديثة مع نية ظاهرة على تطوير معانيها ورموزها وفقاً لحاجتنا الحديثة .

ولكننا نحب له أن يستغني عن تعبير من نوع قوله :

« صديقتي ، فلفني الشمور ...»

وقوله : «صديقتي ، فجاءني الاصم ذو النيوب »

فان ايراد الفاء في أول سياق الجملة ، بعد النداء،غير مستحب .

وتطل قصيدة الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي «المدينة والفجر» بملامح شعرية أكيدة،وأظن انه ليس من امريء عرف المدن الكبرىفي ساعات فجرها حيث يلتقي وجهاً لوجه الساهرون المترفون العـــائدون من لهوهم والكادحون المقبلون على جهد العيش ، الا ويشعر بصدق الرؤيا الطريفة التي تدور حولها القصيدة :

«تحدى العامل البناء عيش المترف الفاني »
هنا في الدرب تلقـــاه
يبارك فجره الله
وتعطي الدهر يمناه
شذى البركات والخيرات من ينبوعه الصافي

ويؤسفنا ألا نستطع تبين مثل هذا الوجه الشعري في قصيدة شاعرة أخرى : «انطلاق» . فان انطلاق الشاعرة وراء حدود الزمانوالمكان لا يغري أحداً باتباعها ، في هذا العصر الجاحد الذي لم يعد له اجنحة تطير به الى الاجواء الصوفية .

ولنطو صفحة الشعر . فقد آن لنـــا ان نطرق الابواب الاخرى . ولنلتفت ، باديء ذي بدء ، الى الابحاث النقدية التي تحتل أوسع مكان من العدد .

وأبادر لاسجل هذه الصدفة التي جاورت في عدد «الآداب» بين اديبين لبنانيين تناولا بالبحث شاعرين لبنانيين عاشا خارج لبنان ، فجاء كل بحث مؤكداً للتيار الأدبي الذي ما انفك صاحبه يمثله ويبشر له في لبنان منذ اكثرمن عشرينعاماً .

أما الناقدان فهما رئيف خوري الذي تناول نيرونية خليل مطران في مقاله : «الشعر والموضوع» ، وادوار حنين الذي قدم لنا «شفيق المعلوف والشعر المهموس »

وهذه الصدفة التي جمعت جنباً لجنب أديبين ظلا يلعبان الدور الذي اختاراه لنفسيهـــما ، تعطي صورة مصغرة عن الاتجاهين الذين يتجاذبان النقدالادبي والحياة الادبية في العشرين السنة الماضية ، في لبنان .

فرئيف خوري يمثل ، في مقاله ، الى ابعد حدودالتمثيل ، المدرسة التي ترى في الموضوع أو «المحتـــوى أو المضمون» العنصر الاساسي في الشعر ،وتبعدالى المقام الثاني العنصر الشكلي؛ وهو في هذا المقال لا يكتفي بقصر حديثه على ابراز المضمون في القصيدة التي يحللها ولكنه يذهب أبعـد فيلح على ضرورة « تركز القصيدة العربية على الموضوع الواحد » ويقيس نجاح قصيدة «نيرون» بمدى تمكن صاحبها من المحافظة على هـــذا الموضوع الواحد طوال مئات الابيات المنظومة على الروي الواحد والوزن الواحد .

ولكن هذه الدعوة الى العنـــاية بالموضوع ليست في نظر رئيف خوري ، والمدرسة التي يمثلها ، الا سبيلا للدعوة الى العناية بالمواضيع التي تتصل بالواقع الاجتماعي ، وتبعـــاً لهذه المقاييس ، فهو يحـــاول ، بلغة واضحة ، مباشرة ، واسلوب يدخل بيسر الى افهام كل القراء ، يواجه القضـــايا مواجهة مباشرة دون لف ولا التواء ، أن يربط بين موضوع القصيدة : وصف طغيان نيرون ، ونزعة مطران الثائر الى محاربة الطغيـــان التركي السائد في ايامه وتحريض الشعوب العربية عليه .

ونحن ، وان كنـــا نوافق الاستاذ خوري على نظرته الاجتماعية هذه الى الموضوع ، فاننا نعتب عليه لانـه إكتفى بالاشارة الى ما سماه « جوراً محتملاً » من قبل خليل مطران حين يحاول القاء المسؤولية في قيـــام الطغاة على الشعوب وحدها .

فنحن لا نقنع من رئيف خوري ، وهو الاديب الذي عهدناه دائما نصير الشعب ، بأن يعمد الى تركيز كل اهتمامنا على موضوع قصيدة مطران : وهو وصف الطغيان ومظاهره ، ثم أن يتنكب عن الخوض في النقطة الاساسية التي يثيرها هذا الموضوع : علاقة الطغاة بالشعوب وتحديد التبعة في مولد الطغيان بحجة « ان هذه حكاية اخرى »

فاذا كان جلاء « هذه الحكاية » لا يدخل في صميم عمل الناقد ذي الاتجاه الاجتماعي ، فاية حكاية اجدر بعنايته في قصيدة يحاول ، بتحليله أن يصل بين اثارة موضوع الطغيان فيها ، ومساعي الشاعر لنسف اسس الطغيان والاستعمار المسيطرين على مجتمعه ؟

أما ادوار حنين فيعطي بعض لمحات على شفيق معلوف كما يبدو في مجمل شعره . وقد توسل الى تحديد شاعرنا المهجري بتسليط اضواء خاطفة ، حية مقنعة ، اضواء تنصب بصورة جانبية ، على اجزاء وزوايا مختلفة من البناء الشعري عند صاحبه ، معطياً الاهمية نفسها للروح والهيكل ، للمعاني ولصياغة المعاني . وهو يحاول ان يفكك العالم الشعري عند صاحبه وان يحيله الى عناصره واجزائه الدقيقة التي لا تحددها كلماته الا من باب التقريب . لذلك ، فهو لا يقف طويلاً عند الملامح الهاربة التي يكتشفها عند شفيق المعلوف بل يحوم بكلماته المنمنمة « المهموسة » تحوماً حولها لانه لا يقصد التحديد بقدر ما يقصد الايحاء . وهو ، في نقده ، يظل شاعراً ، لا يأنف من الاستمتاع باللف مع المنعطفات التي تؤدي به الى العثور على الخاطرة الحلوة ، فيجلوها برشاقة كالزهرة النادرة .

ولكننا كنا نود منه الا يكتفي بهذا الانحناء الرقيق على شعر المعلوف وكأنه عالم بذاته ، بل ان يذهب ابعد فيبين لنا الخيوط التي تشده الى العالم الفسيح الواقعي الذي تكون فيه ومدى انعكاس هذا العالم في تضاعيفه . وقد كنا نتمنى ايضاً ان يوضح لنا الاستاذ حنين كلمته :

« ان شفيق معلوف من ابرع من غرف من الغرب واصدق من صب في الشرق مغترفه » فيظهر لنا اين يبدأ اثر الغرب في فن شاعرنا المهجري واين ينتهي اثر الشرق . فنحن في هذا الشرق لا نزال بحاجة الى دراسة وجوه التفاعل بين الثقافة العربية عند شعرائنا المغتربين وظروف عيشهم وعوامل الحضارة الغربية في الارض الجديدة التي دفعتم اليها الاقدار .

ولولا خوفي من ان اتهم باستباق نتائج هذه الدراسة ، لهمست في اذن الاستاذ حنين : انني لا اعتقد ان شفيق المعلوف قد غرف من الغرب اكثر مما غرفه اي مثقف ظل قاعداً في الشرق ، لا يتصل بالعالم الغربي الا عن طريق قراءاته . فاننا لا نرى على آثار المعلوف ولا على آثار اي من شعرائنا المهجريين اي ظل وصدى حقيقي للأرض والشعوب والحضارات الغربية التي عاشوا في احداثها ومصائرها ما يقارب عمراً بكامله .

ونحب أن ندرج كلمة انور المعداوي « زوايا ... ولقطات » في عداد الابحاث النقدية ، لأن شقها الثاني يتناول تحليل قصة « الآخرون » المنشورة في عدد سابق من « الآداب » .

ولا جدال في أن براعة الاستاذ المعداوي في ابراز العناصر الفنية التي تكون القصة ، وكل قصة ، وايضاح المقاييس النقدية الموضوعية التي أحب اعتمادها في تناولها ، توجب له علينا التهنئة الحارة . ولا يسعنا إلا أن نقر بصحة نظرته في ضرورة قيام القصصي بعملية اختيار « الموقف المضيء واللحظة المشعة من الواقع الذي يزخر بتجاربنا الانسانية » ، وبسلامة التمييز الذي أجراه بين سلبية الصورة الناتجة عن « تصوير حدث او تحليل شخصية بلا مشكلات وايجابية القصة الناتجة عن تجسيم مشكلة » وأخيراً بحسن تحليله العناصر التي تشكل عملية وضع التصميم الفني حين قسمها الى تخطيط مادي يعبر عن الواقع الخارجي للنموذج البشري الرامز الى المشكلة و « تخطيط نفسي يصور انعكاس هذا الواقع على الوجود الداخلي للنموذج حين يتحول هذا الانعكاس الى نوع من السلوك الاتجاهي الذي يبرز عنصر الايجابية في المضمون القصصي . »

وكل ما يمكن ان نضيف الى هذا التحليل العميق هو أن ايجابية القصة لا تقوم فقط على تجسيم المشكلة ، كما يقول الاستاذ المعداوي ؛ فأن « تحول انعكاس الواقع الخارجي على الوجود الداخلي للبطل الى مجموعة من السلوك الاتجاهي لا يتميز بالايجابية الا اذا كان هذا السلوك يذهب في الاتجاه العام الذي تقضي به نواميسُ التطور الصاعد في المجتمع الذي يتحرك البطل في نطاقه ، ومنطقُ القوى النامية في « الحياة المتحركة المتجددة » كما يقول الاستاذ رئيف خوري في مناظرته حول قضية « لمن يكتب الاديب » .

فلو ان مؤلف قصة « الآخرون » انهاها بحيث جعل الأحداث الخارجية تدفع بطله الى الانهزام من المعركة التي زج فيها بدلاً من اتخاذ السلوك النضالي الذي اتخذه في القصة ، حين اندمج تحت ضغط الاحداث وواقع الحياة في التيار العام الذي كان يحمل ابطال معركة القنال المصرية على اعطاء حياتهم في سبيل حرية الآخرين ، لما كانت القصة تتميز بأية ايجابية . ان الايجابية لا تعني فقط الموضوعية . إنها شيء نسبي . وهي لا تنفصل ابداً عن المضمون الاجتماعي الذي يقوم في أساس كل أثر ادبي . هذه هي الحقيقة التي كان يسرنا أن تأتينا من قلم الاستاذ المعداوي لتكون تهنئتنا له خالية من كل تحفظ .

اما الشق الاول من « زوايا ... ولقطات » فيتناول بعض جوانب من الازمة الادبية القائمة في مصر اليوم . وهو يحاول تفسير هذه الازمة بتوزيع

الاتجاه بين عدد من المفاهيم المتناقضة عند عدد من الانماط ، ويعزو هذا التوزيع الذي سبب قيام حواجز بين نوعين من الكتـــاب والقراء وبالتالي عزل انتاج كل فئة في داخل حدودها ، الى اختلاف في مناهج التعليم في الكليات التي تدرس الادب في مصر . وهو قد أحسن التمييز بين خصومة اليوم حول الجديد والقديم والخصومة التي قامت حول الموضوع نفسه منذ ربع قرن ، حين أكد أن الخصومـــة القديمة كانت تدور حول الشكل والتعبير بينما خصومة اليوم تتناول طبيعة المضمون الفكري .

ولكننا نأخذ على الاستاذ المداوي انه لايرى من اسبـــاب تكوين المفاهيم الادبية المتضاربة الا عامل التثقيف الجامعي ، متناسياً العوامل الاخرى التي لا تقل عنه أهمية : كعنصر البيئة الطبيعية الحياتية وظروف العيش واحكام المهنة والطبقـــة التي ينتمي اليهـــا الادباء ومختلف التيـــارات العقائدية والاجتماعية التي تعصف بهم وتطبع أدبهم بطابع قد يغلب على طابع الكلية التي تخرجوا منها .

ان تجسيم الاستاذ المداوي لعامل التكوين الجامعي للادباء المصريين لا ينير الا جانبا جزئيا من اسباب أزمة المفاهيم والقيم في حياة القطر العربي الكبير . ولولا ما نعلمه من سعة علم الاستاذ المداوي ، لقلنا ان نظرته تجعل من أدباء مصر قوماً تصح عليهم الصورة التي خلفها عمر الفاخوري عن ادباء بلادنا حين تخيل «الانموذج الوسط» لهم في «صورة رجل من حبر وورق» ونحن على ثقة من انه لو امتد ببحثه عن اسباب المشكلة من نطاقها الذهني الى نطاقها الحقيقي الذي تلتقي حدوده مع حدود الحياة الفسيحة ، لكان بحثه أوفى .

أما عرض انيس صايغ لبعض الملامح في القصة المصرية القديمة «سنوحي» فمفيد وممتع . وحبذا لو انه أرفق بحثه ببعض فقرات من نصوص هذه القصة ، تمثل بصورة ملموسة الافكار التي أوحت اليه بها . فهو ، لابد ، يعرف أن الاكثرية الساحقة من القراء تجهل هذه القصة .

والان لو قمنا بالنقلة الى القصص الموضوعة التي يحتويهـــا العدد لوجدنا ثلاثاً متفاوتة في قوتها واتجاهها .

وأولاها قصة ذي النون ايوب «جديد تحت الشمس» . وهي تعبر بلغة سلسة عن لحظة هانئة في عمر شاب شرقي قدر له أن يقـــع على من يحب في مدينة اوروبية . الموضوع ليس بجديد . ولكن الجديد فيها أنها تمثل تحول مؤلف «صور شتى» عن الاتجاه العام لقصصه الاخيرة ذات الطابع النضالي ومساوقة اسلوبه في هذه القصة لحاجات جو الغبطة والفرح الذي يسودها .

والقصة الثانية ، «دموع للبيع» للانسة سميرة عزام يمكن اعتبارها قصة العدد . ففيها بناء محكم وفيها لفتات واعية على تفاصيل دقيقة منتزعة من وهج الواقع فتزيد البناء غنى وتماسكا والمأساة تكوناً وتكاملاً حيناً. وفيها ايضاً ، مقدرة على اثارة الموقف المسرحي وبعث المـــأساة وعلى تصوير بطلة الرواية بقوة ووضوح بكلمات معبرة مركزة لايحسنها الا الذي استكمل عدته الفنية .

وهذه القصة تحمل طابعاً واقعياً اصيلا . فهي تصور بصدق وفهم لوحة من حيـاة القرية ومن عاداتها الشعبية عندنا ، هذه العادات التي كانت تعطي قرانا رونقها ونكهتها ، والتي أخذت بالتضاؤل أمام موجة المدنية الطاغية .

أما قصة «النهر الجديد» فتصدر أيضاً عن النية نفسهـــا لتسجل بعض الوجوه الهاربة من حياتنا القديمة . وتصرخ فيها غصة وحرقة للشعور بان ما ولى من معالم حياتنا الماضية قد ولى دونما رجعة ، ولعجزنـــا عن وقف التحول الذي اصاب طرق العيش عندنا بصورة لا تقهر . وهذه القصة التي اتخذت اطاراً لها مدينة القدس وجوارها ، لا تخلو من مغزى سياسي . وهي صورة جديدة عن حالة «الغضب الاقدس» التي لا تكف عن تملك نفس كل عربي منذ نكبة فلسطين .

والقصة المترجمة الوحيدة في العدد «توبياس» تعطينا نموذجـــاً عن ادب الـــكاتب الالماني توماس مان الذي نعته البرقيات في الشهر الماضي

وقد أحسنت الآنسة مطرجي باختيار هذه القصة ، على ما في ذلك من تجاوز على حقوق الترجمة التي يدعيها صديقنا الاستاذ عبد اللطيف شراره الذي سبق له أن نشر ترجمة قديمة لها في مجلة «الامالي» المحتجبة عام ١٩٣٩ . ولكننا نعتقد أن في اعادة ترجمة هذه القصة تأكيداً لحسن ذوقه القديم . وهذه القصة تمثل جانباً من حياة الطبقة البائسة التي تتألف من المشردين الضائعين في ليل المدن الكبرى حيث تسحق قلوبهم كل يوم قسوة مجتمع لا محل للرحمة فيه . فهي تصور مغامرة انسان من هذه الطبقة لم يعرف يوماً دفء قلب صديق. فاضطر لشراء كلب صغير حول اليه كل استعداده للعطف الانساني . ثم انتهى بقتله عندما آنس منه ميلا للتحرر من عنايته.

ولغة الآنسة مطرجي طلية وطيعة ، فاستطـــاعت أن تؤدي جو القصة الموحش على حقيقته . ولكنا نتمنى عليها ان تقلل من الجمل المعترضة عندما تكون مفرطة في الطول . بياننا العربي لا يقبل هـــذا التعقيد في تركيب الجملة الا بصعوبة . واننا نعتقد أن محاولة الحفـــاظ على كل تثنيات الجملة الفرنجية في اطار الجملة الواحدة بالعربية تشكل اكبر الاخطار التي تنتظر المترجم العربي الذي يتقيد بحرفية النص الاصلي .

وفي الابحاث العامة نري كلمتين ، احداهما للشيخ عبـــد

الله القصيمي والاخرى مهداة اليه بقلم جورج جرداق .

أما كلمة الشيخ القصيمي « دفاعاً عن العرب والاسلام » فتتضمن استنكاراً صارخاً للمحاولات التي يقصد بها خنق حرية الرأي والفكر خوفاً على التراث الديني والثقافي . وهو يحاول ان يطمئن المدافعين عن العروبة والاسلام الذين يتصدون لمهاجمة كل مفكر حر ، بالتأكيد ان الاسلام والتاريخ العربي من القوة والرسوخ بحيث لا يستطيع أن ينال منهما نقد الناقدين وان كل محاولة لاسكات الباحثين الاحرار تؤدي الى نتيجتها العكسية لانها تبعث الشك في منعتهما وحقيقة قيمهما وتنافي ما نباهي به دوماً من ارتكاز الحضارة العربية والاسلامية على حرية الجدل والبحث .

هذه الحقائق التي أعلنها الكاتب في مختلف الصور والصيغ ، ما أحسب ان احداً يجادله في صحتها . فهو باسهابه في تبيانها يبدو كمن يهاجم ابواباً مفتوحة ، كما يقول المثل الفرنسي .

وإن كنا نوافق الكاتب على مجمل هذه الآراء ، وعلى مناداته بحرية الفكر ، فاننا لا نقره ابداً على نظرته « النيتشية » للأمم التي يريد ان يبنيها على الشكل الهرمي ، حين يقول : « الشعوب العظيمة يوجد فوق قمتها امثال افلاطون واينشتاين بينما يوجد تحت قاعدتها جماهير المزارعين والعمال الطيبين الذين يبتسمون لكرم السماء ! اما الشعوب المتخلفة ، فهي ترفض ان تكون لها قمة ! لهذا فهي تدأب ابداً على تحطيم القمم . انها دائماً تفضل صفات القطيع . »

فنحن نرفض انغماسه في اعتباره جماعات المزارعين والعمال قطيعاً . فاننا نعتبر ان سواعد هذا « القطيع » التي تبني كل ما هو نافع وجميل في هذا المجتمع الانساني، جديرة بالاحترام على قدر « القمم » التي لا يرى الكاتب سواها في حسابه لعظمة الامم .

اما كلمة جورج جرداق « شيطان بين عملاقين » فهي تستحق التهنئة . ففيها تمرد وتعلق بمعنى الحرية وايمان عميق بمصير الانسان . هذا الى طرافة في طريقة التعبير عن النزاع الفكري بصورة تجعله حكاية حية . وهذه الكلمة تعيد الينا جورج جرداق من عالم الصحافة بوجهه الحقيقي كأديب ومفكر موهوب .

وكل ما اخشاه هو ان تفزع بعض القراء لهجة الجبروت والسخرية التي قد يلمسونها فيها . فهذا الجبروت وهذه السخرية من الخصائص الملازمة لكل قلم متمرد وعقل متحرر. وكيف لا يعذر جورج جرداق عليهما ، وهو يستشفع بأحد جبابرة السخرية : فولتير ، الذي يقدمه الينا فيعيد كل زخمه الثوري وبنائه العقلي اللذين لم يفقدا نضرتهما حتى اليوم .

ويتناول بحث الشهر « الحرية » المنقول عن الانجليزية فصلاً من دراسة فلسفية لمفهوم الحرية بقلم الكاتب الوجودي جان فال . ورغم اقرارنا بأهمية هذا الموضوع ، الذي يقوم في قلب مشاكل العصر الحديث ، فاننا نعتقد ان القسم المترجم من هذا البحث الذي يفترض صاحبه ان القضايا الفلسفية الخاصة التي يثيرها معروفة من الجمهور الذي يتوجه اليه ، يشكو كثرة التركيز ولا يؤدي الفائدة المرجوة لجمهور واسع من القراء تتوجه اليهم مجلة ادبية عربية « كالآداب » لا تدعي التخصص بالشؤون الفلسفية.

ولكن يجب الاعتراف للمترجم بالبراعة في نقل هذا الأثر العميق ، الدقيق بحيث قربه كثيراً الى فهم القارىء العربي . فهو قد نجح في تقصي كل تثنيات فكر الكاتب الانكليزي دون ان يثقل البيان العربي واننا نعترف له بالجهد الذي بذله في العثور بالعربية ، على المفردات والتعابير

الفلسفية التي تتخلل هذا البحث الفني الخاص .

واخيراً بقي علينا ان نعرض لصفحات منقولة عن الفرنسية تحت عنوان « رجوع الى تبازة » لكاتب البير كامو . وهذه الصفحات التي ينبض فيها وهج شعري نهم ، تصور الانطباعات والاحاسيس التي توحيها للكاتب الفرنسي عودته الى بلدة « تبازة » ، في الجزائر في احدى عطلاته الصيفية .

واني احب ان اصارح « الاداب » ، وهي المجلة المعروفة بدفاعها عن الشعوب العربية والتراث الفكري العربي ، بأن دهشتي كانت كبيرة عندما رأيتها تسمح بأن تتوج هذه القطعة من الادب الفرنسي بهذه الكلمات « صفحات من الادب الجزائري الحديث » ، وبأن يقدم لها المترجم بكلمة خاصة كتبت بأحرف بارزة وسط اطار خاص ، يقول فيها من جملة ما يقوله : « هذه قطعة من روائع الاديب الجزائري الكبير « البير كامو » ... وهذا الكتاب نفثات شاعرية استوحاها كامو من جمال الطبيعة الجزائرية الحبيبة اثناء اقامته بالجزائر في العطلة الصيفية . وواضح ان كامو يبث هنا حبه للجزائر ونفوره من اوربا ... »

فان ادراج ادب البير كامو في نطاق الادب الجزائري مغالطة لا يبررها كونه ولد في الجزائر وانه يستشعر الحنين الى ربوعها . فهو بالرغم من كل ذلك ، فرنسي « الوجه واليد واللسان » تشده الى فرنسا اواصر الدم والثقافة واللغة والمثل والنضال . انه ، شئنا ام ابينا ، وجه من وجوه الحضارة الاوروبية التي يحاول الفتح الفرنسي فرضها على شعب الجزائر الاصيل بقوة الحديد والنار ، واحلالها محل الحضارة العربية والاسلامية .

ومن يكن في شك من ذلك ، فليرجع الى القطعة ذاتها التي نشرتها « الآداب » . ففيها يتحدث الكاتب عن الجزائر فلا يرى منها غير ضياعها وبحرها وشطآنها وترابها وخرائبها اي غير هذا الاطار الميت الذي يخرجها عن واقعها الحي كبلد يعيش فيه ويبني ويناضل ويستشهد شعب تحب وتحب « الآداب » اعتباره واحداً من مجموعة الشعوب العربية .

ان كامو ، في هذه القطعة ، يبدو ، كمن يحاول ان يجرد هذه الجزائر « الحبيبة » من روحها الحقيقية ، من رائحة هذا الانسان العربي او البربري الذي يدب عليها ويكدح ، لأن هذا الانسان يحمل وجهاً غير الوجه الاوربي وطابعاً غير الطابع الذي يريده له الاستعمار .

ولا يغرن المترجم هذا الشوق الذي تحمله كلمات كامو الى الارض الجزائرية . فهو نفسه ، يعلن بصراحة ارتباط مصيره بمصير الامة الفرنسية التي نبع من اصولها ، عندما يقول في نهاية كلمته المنشورة :

« لكن احداً لا يريد هذا السر ، من غير شك لا اريده انا نفسي ، ولا اقدر ان ابتعد عن اهلي . لقد عشت في امرتي التي تظن انها جالسة على عرش مدن غنية وبشعة ، مشادة بحجارة وضباب تتكلم ليلاً ونهاراً بصوت مرتفع . كل شيء ينثني امامها ، هي التي لا تنحني امام احد : هي صماء عن ادراك كل الاسرار . قوتها التي تحملني حيرت مضجعي وصراخها اتعبني . لكن شقاءها شقائي ، فنحن من دم واحد ، ضعيف ايضاً ، شريك في الذنب محدث الضجة » .

فما بعد هذه الكلمات الواضحة ، من شك في ان كامو لا يرى اهله الا في جانب الامة الفرنسية التي تجلس « على عرش مدن غنية ومشعة مشادة بحجارة وضباب » والتي ينثني امامها كل شيء (وحتى الشعب الجزائري منذ اكثر من قرن) وهي التي لا تنحني امام احد ؟ »

الىس في هذه الكلمات ما ينبيء بوضوح بأن كامو ككل فرنسي استعماري يعتز بقوة هذه الامة التي تحمله الى تلك الارض الجزائرية وبانها لا تنحني امام احد وانما تركع كل الاشياء والشعوب امامها ، فهو يرى شقاءه في شقاء هذه الامة ، المدلة بقوتها وبجبروتها ؟

فبأي حق ، بعد ذلك ، نلحق هذا الاديب بالادب الجزائري ؟ وهل يمكننا ، نحن العرب ، ان نؤمن بوجود ادب جزائري مستقل عن الادب العربي او يقوم بمعزل عن الواقع العربي في تلك الارض المغربية ؟

اما الحيرة التي تتأكل هذا الكاتب الفرنسي في عودته الى ارض الجزائر واما العقد النفسية التي تعبر عنها صرخاته على تلك الارض التي يقف فيها اليوم ، وجهاً لوجه ، في نزاع دام رهيب ، شعبان لا التقاء ممكناً بينهما ، فهي لا تعنينا بشيء ولا تثير فينا الا هز الاكتاف . بلى ، انها تذكرنا بقول ناظم حكمت مخاطباً شاعراً فرنسياً آخر ظل يغني الشرق القديم وشعوبه بحب وحرارة لا نحس بها عند كامو :

لقد كذبت يا لوتي
لقد كذبت
فقد قصفت بالقنابل
قبر « ازيادة »
الذي غرسته فينا ،
الذي غرسته فيّ
كما لو كان مرمى من خشب
فليعلم الجميع ،
انك يا لوتي
لست الا دجالاً !
دجال ....

لوتي

واخيراً كلمة عن الترجمة . ان في القطعة كثيراً من المقاطع المبهمة ، واننا نرجح ان تبعة هذا الغموض المترجمة تقع على المترجم . ومهما كان من امر اتصال السيد عثمان سعدي بالنص الاصلي ومدى امانته له ، فان من الراهن ان النص العربي يحمل بوادر التشويش والركاكة في البناء في كثير من المواضع ، مما يزيده غموضاً ويمنعه عن الافهام اذ يقضي على الشفافية التي يتميز بها بيان الكاتب الفرنسي .

علي سعد

مناقشات

الاممية ذلك الصنم ...

العروبة اولاً ...

بقلم ناجي علوش

كم اعجبني مقال الاستاذ عبدالله عبد الدائم (انسانية لا اممية) ولكن كم آلمتني الردود ، واولها رد الاستاذ الهنداوي الذي يقول : « ليت الدعوة الى القومية تستغربة ولا الدعوة الى الاممية ، جناية ما دامت الامة تتخبط في تجارب جديدة قائمة على الثورة على القديم وطلب الصالح الملائم للافراد والجماعة .. وأما ان القومية تعيد الانسان الميكانيكي المسمر الى الكائن الحي المفكر على عكس الاممية فتلك دعوى لا حقيقة لها إلخ » . وبعد ذلك اتهم الاشتراكية بضيق التفكير وقال « ثم تمتد منه فروع الى الاممية التي تريد ان تطبق الانسانية كواقع ملموس لا كضباب غائم » وقال ايضاً « ان الامة العربية لم تصل إلى شيء من الحكم المذهبي الصحيح وانما هي نظريات مجردة منفتحة يتخبط فيهـــا افراد يبشرون ولا يقـــررون والوصول إلى القومية الاشتراكية مرحلة ضرورية قبل الوصول الى الاممية» هذا ما قرره الاستاذ الهنداوي . اما الاستاذ محمد عمارة فيقـــرر ان الفكرة العربية لم تمر بمرحلة عاطفية كما يقول الاستاذ الكبير عبد الدائم ويقول : ان الفكر العربي ليس مدعواً لتكوين مذهب جديـــد لان اهداف الانسانية واحدة . وهو ينكر على الاستاذ عبد الدائم عدم قوله بأن القومية مرحلة تاريخية . ثم يقول ان القومية نشأت مع الرأسماليـــة واخيراً يتهم الاشتراكية العربية بانها نازية فاشية تذكره بالمأسوف عليها اشتراكية هتلر . ويتفق الاثنان على ما يلي :

١ – ان القومية مرحلة تاريخية وهي بنت الرأسمالية .

٢ – في عدم التفريق بين الانسانية والاممية .

٣ – في اتهام الاشتراكية العربية بالضيق .. والغموض .. والعنصرية

٤ – في التقريرية والشكلية التي غمرت موضوعيهما .

هذه هي الاشياء التي اتفق عليها الكاتبـــان الكريمان وهي خطوط الموضوعين العريضة : وقد تركت البحث فيما يختلفان به لاني لا أريده وليس له صلة في البحث . أما أن القومية مرحلة تاريخية فلست أدري كيف اتفق الـــكاتبان عليه وكيف اعتبر الاستاذ محمد عماره أن القوميات كالعصبيات القبلية تذوب أو تصهر لتكون المجتمع الانساني ونسي الفرق العظيم بـــين العصبية وبين القومية ... نسي او تناسى أن القومية امتداد طبيعي للقبيلة .. ونسي ما بين القبائل من أواصر ووشائج لا تتوفر في الامم ... ونسي ايضاً الفوارق بين هذه الامم . ولست ادري كيف اتفق الكاتبان على هذا ... ولست ادري علام استندا . فان كانا قد ركنا الى منطق المادية التاريخية – وهذا ما اعتقده ، فالقضية بسيطة .

قال (ماركس) إن المجتمع البشري قد مر في تطوره : بالمشاعية فالعبودية فالاقطاعية وسيمر بالرأسمـــالية فالاشتراكية فالشيوعية (المشاعية) . وقد استنتج ذلك بواسطة منطقه الجدلي المادي ولكن هل مر الانسان حقيقة بالمشاعية فالعبودية فالاقطاعية؟ وهل سيمر بالرأسمالية فالاشتراكية فالشيوعية؟ هذا ما يناقضه منطق التاريخ والواقع والعلم : فهل هنالك أمة مرت بالمشاعية فالعبودية فالاقطاعية فالرأسمالية فالاشتراكية ؟ وفي هذا التحديد دراسة خيالية للمجتمع البشري وقد أهملت هذه التحديدات (القبليـــة) مع أن كل الامم قد مرت بهـــا . ولكن بأي منطق قرر (ماركس) هذا ؟ بالمنطق الجدلي . ولكن هل (الجدل) حقيقة ؟

يقول (ماركس) إن التاريخ صراع طبقات وتتولد من جراء هذا الصراع حالة ثالثة خير من النقيضين ، وبهذه الطريقة يستمر التاريخ ويستمر التطور . ولكن ممن تخلق حالة جديدة او نقيض ليصارع هذا النقيض ؟ هل يمكن ان تخلق من العدم ؟ هذه هي القضية . والقضية الثانية هي ان خرافة الجدل (الدياليكتيك) هي امتداد للثنائية الاسطورية التي استعبدت الفكر البشري وهو ليس (ماديا) وانما هو منسوب المادة : وسيقودنا البحث الى ان (ماركس) الذي حارب الشكلية قد وقع في اعمق هُوَاها وذلك بفرضه ان التاريخ صراع طبقات وانه سيمر من كذا الى كذا وكأن في يده خريطة التطور او كأن المراحل التي يمر بهـــا التاريخ معروفة نستطيع ان نعيها بسهولة كما نقول ان الذاهب من بغداد إلى دمشق يمر بمدينة كذا ثم كذا .. ثم كذا ...! وقد اسلم (ماركس) منطقـــه هذا الى تناقض بين واضح . فهو يقول ان المجتـــمع ابتدأ باللاطبقية (المشاعية) وانتقل الى الطبقية فمن اين كان التطور ؟ وهـــل كان في اللاطبقية صراع طبقات ؟! ثم يقول ان المجتمع سيمر بالاشتراكية فالشيوعية وكل منهما مرحلة تاريخية وتطور ولكن كيف يكون هذا التطور وهذا التاريخ ؟ اتوجد طبقات في الاشتراكية والشيوعية ؟ ايوجـــد صراع ؟ وإذا كان عدم وجود الطبقات بدهياً فكيف يكون التطور ؟ سيقولون في الاشتراكية يبدأ صراع الانسان والطبيعة ؛ ولكني اجيب : ومتى لم يكن الانسان في صراع مع الطبيعة ؟ .. وهل الطبيعة طبقة ؟ الحق ان « ماركس » يجمد التاريخ ويجعله يدور في حلقة مفرغة ، وهي فلسفة قديمة كانت تؤمن ان التاريخ يعيد نفسه .

هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فان التنبؤ في العلم خطأ ، وان صحت نتائجه فكيف اجاز ماركس لنفسه ان يتنبأ ؟ سيقولون : نتيجـــة لدراسة جدلية للواقع . واجيب : لم يقل (ماركس) إن الثورة العمالية ستقوم في انكلترا او المانيا ، ولكن لماذا قامت في روسيا وفي الصين ؟ ثم إن (ماركس) كان يؤمن ان المجتمع لا يمكـــن ان يتجاوز مرحلة من المراحل المذكورة ؛ فكيف مرت روسيا والصين من الاقطاع والزراعة الى الاشتراكية ؟ الم يقل (ماركس) ان تناقضات الرأسمالية هي الـــتي تقرر حتمية الاشتراكية ؟ هذا ما يثبت فشل النظرية فشلاً فادحاً . وعلى هذا فنحن لا نستطيع ان نقول ان القومية مرحلة ، وان نؤمن بنظـــرية كذبها التاريخ والواقع ويكذبها العلم .

هذه هي قضيتنا الاولى . اما قضيتنا الثانية فهي التفريق بين الاممـــية والانسانية والذي اقصده بكلمة (اممية) هو (الشيوعـــية) والذي اقصده بكلمة (انسانية) هو هذا الواقع الذي يوفر السعادة والراحة للجميع . هنا المشكلة .. فالشيوعية تدعي انها تريد السعادة لبني الانسان وهذا هو الرابط الوحيد بين الاممية والانسانية . ولكن هل تستطيـــع الاممية تحقيق الانسانية ؟

اذا اردنا ان نفهم ذلك فعلينا ان ندرس منشأ (الاممية) وتاريخها مع أن الكاتب محمد عمارة يحاول ان ينكر صلة الحادثة بنشأتها. وهذا ما أصر عليه الاستاذ عبد الدائم – ولكن كيف ننكر صلة الحادثة بأسبابها ؟ هذا ما لست ادريه... ومالايقبله المنطق . وكيف نترك الاسباب لبحث النتائج ؟ هذا ايضاً منطق جديد . واننا نبحث في الاسباب وفي النتائج، فاذا كانت الاسباب عليلة هل يمكن الا تكون النتائج عليلة ؟ هذا الذي أسأل عنه الاستاذ محمد عمارة . والمادية هي وليدة ظروف معينة – وهذا مالا يستطيع ان ينكره أحد . انها (رد فعل مسرف) لواقع مفكك فاسد: ألا تراها قد قلبت المثالية المطلقة الى مادية مطلقة ؟ وحولت مبدأ الاغتصاب الفردي المطلق الى مبدأ اغتصاب جماعي مطلق ؟ ثم ألا تراها استبدلت القومية النازية بأممية نازية واحالت عبادة الروح الى عبادة المادة ؟ و ... و ... هذه حقائق مسلم بها . اما النتائج فكيف يمكن ان تكون ؟

لست اريد ان اطيل ولكن الذي اريد ان اقوله هو ان هذا النظام فعلا اصبح يفرض على الناس بالنار والحديد ، وانه استحال الى حركة استعبادية تحاول ان تستعبد الفكر البشري ، وقد اتخذته روسيا وسيلة للتوسع والاستعمار الحياتي ، واكبر دليل على ذلك قبولها بالسلم والحياد. هذه ليست القضية ولكن القضية هي : هل يستطيع هذا النظام ان يحقق الانسانية ؟ ايستطيع وهو ذلك النظام الذي لا يؤمن بالحرية ..ذلك النظام الذي ينظر إلى الانسان كبقرة في مزرعة او زنبرك في آلة ؟ هذا هو الذي يجعلنا نشك كل الشك ، وهنالك حقيقة اخرى وهي عدم اعتراف الاممية بالقوميات التي هي ظواهر انسانية لا تتحقق الانسانية بدونها اذ انها مجالات التنفس الطبيعية .

ثم يتهم الكاتبان الكريمان الاستاذ عبد الدائم بضيق النظرة لدعوته للاشتراكية ، وقد استغربت قول الاستاذ عمارة (ان هذه الدعوة. اي دعوة الاستاذ عبد الدائم للاشتراكية العربية – تذكرنا بالمأسوف عليها اشتراكية هتلر . . . وايضاً موسوليني) والمقارنة بين الاشتراكية العربية والهتلرية او غيرها خطأ فاحش . لان النظام الهتلري النازي لم يكن نظاماً اشتراكياً بل كان ذروة الرأسمالية، وقد كانت تستغل المانيا فيه طبقة (الارستقراطيين) كما تستغل روسيا اليوم طبقة الموظفين ، فكيف يجوز ان يسمى هذا النظام اشتراكية مع انه يتعارض مع مباديء الاشتراكية الاولية واولها عدم استغلال الانسان للانسان ؟ واي صلة .. واي قرابة بين الهتلرية والاشتراكية العربية ، حتى نأخذ الثانية بجريرة الاولى؟ الأن الهتلرية تدعي بأنها قومية ؟ إإذا أجرمت النازية فقد اجرمت القوميات ؟ هذا نوع من السفسطة غير المقبولة ولا المعقولة واني استنتج من هذا شيئين:

١ – ان المادية تحارب القوميات – وهذا ما ينكره الماديون –. وانها لا تفرق بين القومية بمعناها السميح والعنصريه بمعناها الفظ

٢ – ان المادية حتى الآن لم تستطع ان تطمس القوميات في بلدان الاتحاد السوفيتي .

اذا آمنا ان لكل امة ظروفها التي تجبرها على السير في سبل تختارها على ضوء واقعها ، واذا آمنا ان الآراء الخارجية تتسرب الى جسم الامة لتتسلط على ارادتها وتقرر مصيرها، الا تكون الامة مدعوة لتخطط منهاجا تسير عليه لا حبا في التخطيط وانما حفظاً لكيانها ؟ وهل يناقض هذا فكرة سعادة الانسان والمستقبل الافضل ؟ وهل معنى قولنا يختلف المنهج اذا اختلفت الظروف اننا نميز تمييزاً عنصرياً ؟ لا يا اخي ، اننا لا نميز ... ان العروبة سمحة للغاية وان مبدأها هو (وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا).

يؤلمني ... ويؤلمني جداً ربط القومية بذيل الرأسمالية ،ويستند اصحاب هذا الرأي على المنطق الجدلي المادي ، ويقول امين العالم: نشأت قوميتنا المصرية من اضرابات التجار ومقاومة الاتراك والانكليز...و.. هذه هي القومية وهل معنى هذا – اي ربطها بذيل الرأسمالية وبالتالي الاستعمار– انها تموت بموت الرأسمالية؟ولكن ما بالها قد صمدت في جمهوريات الاتحاد السوفيتي .. امازال هنالك رأسمالية ؟!...

ينكر الماديون انهم يحاربون القومية ، ولكنهم يحاربونها . هم يقولون انظروا الى الجمهوريات الشعبية فان نظام الحياة فيها خير مكذب لما تقولون ، ولكنهم لا يتورعون عن اتهام القومية بأبشع التهم كالتي ذكرها الكاتب محمد عماره وكالتي ذكرها الاستاذ صلاح الدين عبد الصبور في رده على الشاعر المجيد كاظم جواد . يقول الاستاذ عبد الصبور «ليس هنالك عرب بالمعنى الصحيح للأمة والقومية» و«ليس هنالك عنصر عربي خالص» ويقول: «إننا مصريون اولا لغتنا العربية» ويقول (فانت ادرى بأن العنصرية زيف ودعاوي قاصرة اصطنعتها الفاشية حينا والنازية حينا آخر »الى ما هنالك . اما ان ليس هنالك عرب بالمعنى الصحيح للامة وللقومية ، فلست ادري علام استند ؟ فاذا كان قد استند على الحقيقة القائلة (ليس هنالك عنصر عربي خالص) وهذا ما اعتقد، فانه لم يكتشف جديداً. نحن نعرف ان ليس هنالك عنصر خالص كما انه ليس في الارض عنصر جنسي خالص حتى في غابات افريقيا والامازون . وهل في الارض امة سلمت من الاخلاط ؟ هذه الامة الفرنسية لا يعرف العلم نسبتها الاصلية ولا يحصي عدد الافواج التي كونتها . فهل يكفي هذا ليجعلنا نقول : ليس في الارض امة فرنسية وقومية فرنسية ؟ والا فماذا هناك ؟ وعلى هذا الاساس هل توجد امة في العالم ؟

اعتماداً على القول بانه لا يوجد عنصر عربي خالص قال الاستاذ عبد الصبور « نحن مصريون اولا » وقد قرر هذا كما قرره الاستاذ العالم وغيرهما . والاستاذ عبد الصبور يرى ان (هنالك مجموعة من الشعوب متحدة اللغة تواجه مع شعوب العالم الاخرى نفس المشاكل ، ثم يقول : وكفاح تلك الشعوب كفاح موحد في خطه العام ولكنه منفرد في خطواته وسبله وله انتصاراته الخاصة وسماته ومعاركه ، ذلك ان لكل شعب من هذه الشعوب ذاتيته المنفردة)

وهنا تجرد الاستاذ من عروبته كلياً، فمصر ليست عربية والبلاد العربية مجموعة شعوب لكل منها سماته وصفاته ، والرابطة الوحيدة بين هذه الاقطار هو انها تواجه مع شعوب العالم نفس المشاكل ، وبهذا جعل الرابطة بين الاردني والسوري كالرابطة بين الاردني والتركي !؟

وهذا ما يتفق عليه الكاتبان محمد عمارة وعبد الصبور ولكنهما يختلفان عندما يذكر عبد الصبور مميزات الامة المصرية ولا يذكرها محمد عمارة. ولكن ما هي العوامل التي كونت الشخصية المصرية – اذا كانت موجودة– هذا ما لا يذكره عبد الصبور ولايرد في كلامه الا تلميحاً عندما يقول (فالفتح العربي لم يلغ تاريخ امتنا ووراثاتها) اذن فهو يؤمن بالجنس، والغريب انه يعتبر ان ليس هنالك امة عربية لانه لا يوجد عنصر عربي خالص ، ولكن هل يعتقد الاستاذ ان هنالك عنصراً مصرياً خالصاً

حتى يعتبر ان هنالك امة مصرية وقومية مصرية بالمعنى العلمي الصحيح للامة والقومية ؟.. اذا شئت هذا فلن تجد ... وعلى اساس هذا المنطق (غير العامي) لا توجد امة مصرية كما انها لا توجد على اساس المنطق العلمي.. وانما توجد امة عربية تجمعها اواصر اللغة والتاريخ والغاية . تجمعها انكسارات الماضي وانتصاراته وانفتاحات المستقبل وابتساماته . واننا اذ نقول إننا ننتسب للامة العربية ... نتشبث بموجود يستطيع ان يثبت وجوده ... ولكنك في قولك انا مصري.. تتشبث بما هو غير موجود فاين هي الأمة المصرية ؟

اما نعتك القومية بالدعاوي وربطها بالنازية والفاشية واتهامها بالعنصرية كما فعل الاستاذ عمارة فيدل على شيء - يدل على (عمق) فهمك للقومية. نحن لا نقول العرب اشرف امة .. ونحن لا نقول اللغة العربية اشرف اللغات وانما الذي نقوله ان للشعب العربي فرديته وشخصيته وانه شعب من شعوب العالم التي تواجه مشاكل مختلفة تبعاً لظروفها المختلفة وان تقاربت اهدافها ولكنا نعتقد ان لكل من هذه الشعوب سماته وصفاته وانتصاراته الخاصة ومعاركه وان لكل شعب حق الحياة حراً كريماً سعيداً .

هذا ما نؤمن به . فمن اين جئت بهذه الاتهامات التي كلتها للاستاذ كاظم جواد والتي كالها رفيقك محمد عمارة للاستاذ عبد الدائم ؟

ليست القومية نازية ، وليست الرأسمالية هي التي خلقت القومية ، فقد كانت القومية قبل الرأسمالية وبقيت بعدها - وقد ذكرت هذا - انما الذي خلقته الرأسمالية هو النازية والفاشية التي هي اعلى مراتب الرأسمالية وقد ذكرت هذا ايضاً . ثم هل تكفي اخطاء النازية لتكون سبباً في الدعوة لالغاء القوميات ينبوع الانسانية الخالد؟

هذه هي ملاحظاتي على جملة ابحاث في العدد الماضي من الآداب ، وقد اردت ان اثبت بها للكتاب الافاضل ان العروبة لن تموت ... وان كل محاولة لقتل هذه الفردية وهذه السمات التي تميز اي شعب عن الآخر هي اعتداء على الانسانية لانها صفعة للحرية رهدم لاقنية الحياة ، وقد اردت ايضاً ان يدرك الاقليميون الذين يؤمنون باقليميتهم الشريفة سيان آمنوا باهميتهم اولا ... ان القوميه مجال التنفس الطبيعي ، وان اي اختلال في هذا المجال يسبب توقف حركة الامة ودورتها الدموية وأن القومية الحقة لا تتعارض مع الانسانية الحقة ولكنها تتعارض مع الاقليمية والاممية ... وليتأكدوا اننا عرب اولا ... واخيراً .

الفحيص (الاردن) **ناجي علوش**

ضد الاقليمية الشوفينية الضيقة

بقلم كاظم جواد

من الملاحظ ان المباديء العلمية ، نظراً لصلتها المباشرة ، وغير المباشرة ، بحقائق موضوعية ، تتفاعل ، وتتحول ، وتتطور ، تتميز لتلك الاسباب ، بنوع من المرونة التي هي في حقيقتها ، موضوعية ايضاً ، وتتميز ايضاً بشيء مستقر نسبياً يتجاوب مع كل حالة ظرفية . ومع ان هذه النسبية ، هذا الثبات النسبي ، المتحفز بدوره الى الحركة ، وهذه المرونة ، تعتبر من الفضائل التي يتجاوب بها المنطق العلمي مع الحياة المتحركة ، المتطورة ابداً ، تصير في بعض الاحيان سلاحاً خطراً يوجهه بعض حملة الشعارات الموهومة ، بعض الانتهازيين ، ضد مباديء الحياة العلمية نفسها ، موهمين القراء ، انهم انما يتحدثون بمنطق العلم . ومن الشواهد على ذلك ، تلك الصيغ المكرورة الفارغة وتلك الألفاظ المبرقعة بالعالمية والانسانية الخ ... ومن الشواهد على ذلك ايضاً انضواء بعض الافراد الموتورين تحت اهداف بعض تلك الشعارات لا لايمان بما تتضمنه من مثل عليا ، ومضامين ، بل اشباعاً لرغبة الانتقام من افراد تتصل بينهم اسباب خلافات فردية ، او التعويض ، او الشهرة مثلا ... او على الاقل اتخاذ تلك ستاراً يحمي ضعفهم وتهافتهم .

اكتب هذه المقدمة ، لاتناول بالتعليق المقتضب ، قضية كثر الحديث عنها في هذه الايام . هي قضية القومية العربية ، التي ضاع معناها الانساني الرفيع على السنة بعض الافراد الذين لا يشعرون بأية مسؤولية حينما يتصدون لبحث مثل هذه المسألة الخطيرة .

يلجأ الاستعمار ، في البلدان التي يستعبدها ، الى وسائل دموية محكمة لاثارة التفرقة ، وتأريث البغضاء بين ابناء الشعب الواحد الذي يستغله ، معتمداً في ذلك على جملة اخطاء ، او على بضعة اوضاع تاريخية جامدة رجعية ، تصر القوى الجديدة على تصفيتها ، وتخطيها وازالتها نهائياً .

ففي الهند مثلاً ، كان الاستعمار يؤجج لهيب العداء والمشاحنات الدامية بين الهندوس والمسلمين .. كان يحاول تمزيق الشعب الهندي الواحد ، وقد ذهب المهاتما غاندي ضحية لذلك العداء الطائفي البغيض . ولبنان مثلاً لم يزل حتى الان يئن من كابوس هذا التقسيم الطائفي ، المنصوص عليه على ما اعلم في صلب الدستور ، وفي بلادنا العربية بصورة اشمل ، نجده - اي الاستعمار - يحاول ان يغذي بعض النزعات الغيبية الرجعية العصبية الموهومة من فرعونية ، الى سومرية ، الى اشورية ، وفنيقية ، الى عرب وبربر في في شمال افريقيا ... الخ وتبعاً لذلك تأكدت في بعض النفوس مثل هذه النزعات المدمرة ، عن وعي او لاوعي .

في العراق ، لم تبرز مطلقاً مثل هذه النزعات الخرافية المفتعلة ، على انها برزت في سوريا على يد احد الأحزاب ... وبرزت ايضاً في مصر على يد نفر لا تربطهم اي صلة اصيلة بشعب وادي النيل الشقيق .

لا ينكر ، ان هناك بعض اليمينيين العرب ، كان رد الفعل لديهم قوياً بسبب ما ينزله الاستعمار ببلادهم من كوارث ومصائب واحزان ، ولهذا اتسمت دعوتهم القومية بنوع من التصاب ، وبلون من الافكار التي ادت بهم الى هوة المثالية ، فابتعدوا عن الحياة ، ولا ينكر ايضاً ان هناك

من غير اليمنيين من يناصبون الفكرة القومية العداء الى حد الفوضوية والضياع ، وكلا الفئتين لا تصدران عن مسؤولية تجاه هذه الشعب الذي يتراوح الان بين مرحلتين تاريخيتين ، لا تصدران عن مسؤولية فكرية او حزبية او عقائدية حتى يستطيع الانسان ان يمسك بالخيوط الرئيسية لاسباب هذه الفوضى المؤسفة .

يقول لي احد اخواننا المصريين ان ليس هناك عرب بالمعنى العلمي للامة .. واذا بماذا نسمي انفسنا ، بماذا نسمي السبعين مليون نسمة ... ام هنود ، ام فرس ، ام اسبان ... ام انكليز...؟

لو كان للاخ المحترم اي اطلاع على المباديء العلمية في مفهوم الامة ، لما تجرأ ان يلغي بجرة قلم شعباً بكامله من الوجود ، فاليه ، والى امثاله اقول ما يأتي : —

يجب ان نميز قبل كل شيء بين دعوتين للقومية ، او على الادق بين قوميتين :

(١) قوميات امم مستعمرة (بالكسر) وقوميات امم مستعمرة. فلقد خضعت القوميات الاخيرة خلال الحكم الاستعماري الحديث لاضطهاد القوميات الاولى ، فلقد صاحب نشوء هذه القوميات الاولى في اوربا التطور الصناعي والثورة الصناعية ، حيث استغلت الفئات الحاكمة شعور القومية في وطنها الاصلي في سبيل التوسع الاستعماري واضطهاد الامم الاخرى ، تارة باسم (العالمية) وتارة باسم التمدين ، وتارة باسم الانسانية . واذكر بهذه المناسبة قولاً لاحد شعراء نيجريا « ها هم اتوا تتبعهم لعنة الهند وايران ومراكش ، ها هم اتوا ليجعلوا من نسائنا عواهر ، ومن رجالنا شحاذين باسم الانسانية !! »

ولهذا كان على الشرفاء في الاقطار المستعمرة (بالكسر) بالذات ان يكافحوا فئاتهم الحاكمة كي تتحرر المستعمرات المضطهدة ، لأنه لا يمكن لشعب ان يضطهد شعباً آخر ، ان يكن هو نفسه حراً . اما قوميات المستعمرات ، فتختلف عن تلك بسبب انبعاثها جنباً الى جنب مع الحركات التحررية الوطنية ، وهذا المثال يصدق بصورة جلية واضحة على القومية العربية ، فقد واكبت هذه القومية نشوء الحركة الوطنية العربية ، بحيث اصبح من الصعب على اي فئة خائنة استغلالها ضد اماني الشعب العربي ، هذا ولم يثبت لنا التاريخ الحديث ان القومية العربية قد كانت سبباً في الاعتداء على قوميات اخرى او اضطهادها واستعمارها . بل على العكس كانت هي نفسها المطاردة المضطهدة، بل وكان الاستعمار الغربي ، على طول الخط يتآمر على ابادة ابنائها وتشتيتهم : — تشريد الآلاف في فلسطين ، ذبح الآلاف في المغرب العربي ، تحريم استعمال اللغة العربية في الجزائر الخ ..

ما الفكرة القومية العميقة الانسانية الا رد فعل ضد الطغيان الاستعماري ، انها مسألة تتعلق بكيان الشعب بأكمله ، وهي بصفتها سلاحاً من اسلحة التحرر الوطني ، تستمد اسسها العلمية من واقع حياة امتها الاقتصادية والجغرافية واللغوية والثقافية ، ومن هذه الاسس يتكون لكل شعب طابعه الخاص ، وظروفه التاريخية الخاصة به وحده . انا شخصياً لا اجد اي تعليل ، واي ربط بين ما يسميه احد اخواننا المصريين بالفتح العربي وبين القومية العربية : هل حقاً ان مصر احتلها العرب ام هي عربية اساساً ؟ حقاً ان العرب ليسوا اشرف الاقوام ، وان لغتهم ليست اشرف اللغات ، وان كانت من اللغات الجميلة ، التاريخية التي صمدت عبر العصور لشتى الكوارث والمحن ، كل ما هنالك ان ظروفاً تاريخية جعلتهم همزة وصل بين عدة حضارات ، وخالقي حضارة ، كانت بالنسبة الى دور حضاري معين ، تقدمية. اما ان الفتح العربي لم يستطع الغاء بعض القوميات فهذه حجة بجانبي وليست ضدي ، فمن المستحيل ان تلغى قومية اصيلة من الوجود ، الا اذا سببت ذلك ظروف مادية قاهرة كالهجرة مثلاً وليس الان وقت شرح اسباب زوال القوميات .

وعلى هذا يكون انسحاب العرب من الاندلس ومن فارس دلالة على اصالة القوميتين الاسبانية والفارسية ، ولكن لم نسمع بهم انسحبوا من مواطنهم الاصلية حيث انطلقوا يفتحون ، الا في فلسطين حيث انتصرت القوة الاستعمارية ، والقوة شيء وقتي ، والاستعمار الى الزوال والاندثار المحتم .

ومن هذا يتضح لدعاة (الاقليمية الشريفة) ان القومية العربية لا تعني غير التكتل ضد الاستعمار ، غير الكفاح من اجل القوميات الاخرى المضطهدة ، غير الاستجابة لمرحلة تاريخية حاضرة، غير النضال بلا هوادة من اجل احياء تراثنا ، وتحقيق وحدتنا ، والارتفاع بذواتنا ، وتلقيح تقاليدنا الاساسية بقيم عصرية حديثة ، وكل ذلك انما تسنده اصول علمية: لغة ، وطن ، وتراث نفسي — عنصر مشترك . ثم ارجو من بعض اخواني في مصر ، الذين يوهمون القراء انهم يتحدثون عن فئات موهومة ، ان يميزوا بين الامةNation وبين العنصر Race ، فالعنصرية في اساسها لا تتحمل اي معنى من معاني القومية الشريفة ، في حين ان لكل امة قوميتها .والعنصرية او الدعوة الى التعصب العنصري نزعة برزت في المانيا الهتلرية لخدمة اغراض استعمارية معلومة ، وهيبالطبع ،صبغت هذه العنصرية بمباديء قومية ، كي تستغل بذلك شعور الالمان ، وللالمان تاريخ علمي وفلسفي وثقافي ، يعد مفخرة لهم وللعالم ، ولكن في الوقت الذي سقطت فيه الدعوة النازية العنصرية ، واختفت تقريباً من الوجود ، ظلت القومية الالمانية على حالها فلم يزل هناك شعب الماني ولغة المانية ، وارض المانية تكونت عبر تاريخهم الطويل .

وبعد فانا على استعداد ان اعترف مكرها ان :

وشربت شاياً في الطريق
ولعبت نرداً مع صديق
ورتقت نعلي

هي من الشعر العظيم ، شريطة ان يزيل بعض اخواننا في مصر سوء التفاهم هذا ، والذي لا اجد له اي مبرر . والغريب في الأمر انني لم افهم حتى الان اسباب سوء ذلك التفاهم ، ففي الوقت الذي يستكثر علينا احد الاخوان ان نكتب عن ايران او المغرب العربي او عن اي قطر آخر ، نجده يدعو الى العالمية في مجال آخر ، ولكن من خلال اقليمية (شريفة) وانا لا ادري كيف يكون الانسان عالمي النزعة واقليمياً من جهة اخرى .

مهما يكن فانا اؤكد انه ما من قوة في الوجود تستطيع ان تفصلنا عن شعبنا الحبيب في وادي النيل

بغداد — **كاظم جواد**

النشاط الثقافي في العالم العربي

لبنان

الادباء ومحطة الشرق الادنى

آن للادباء والفنانين ان يشاركوا مشاركة عملية في النضال من اجل التحرر والاستقلال . وكان ينبغي ان يأتي دورهم قبل اليوم ، بزمن طويل ، كان ينبغي ان يكون دور الادب في حملة النضال العربي هذه ، دور الرائد الذي يسير في طليعة المناضلين جميعاً ويسبقهم جميعاً ، فينير الطريق ويشقها ، ويدلهم عليها ، بعد ان يكون قد سار فيها بنفسه !

اقول هذه الكلمات ، وما زالت نبرات مذيعي محطة الشرق الادنى ترن في اذني ، داعية العرب الى التفرق والتخاذل، مثيرة بين دولهم الشقاق والتباعد ، وبين ابنائهم الدس والوقيعة فهي تهاجم علناً ، وفي احاديث صريحة متواصلة ، فكرة التسلح التي تلجأ اليها مصر دفاعاً عن شرفها ، شرف العروبة المثلوم في فلسطين ، هذا الشرف الذي عمل على ثلمه منشئو هذه المحطة من الانكليز..

وتهاجم المحطة المملكة العربية السعودية لانها تطالب ببعض حقوقها في واحة البريمي ، وتهاجم الجزائر في ثورتها ضد المستعمر .

وتهاجم محطة الشرق الادنى كل قضية عربية تصطدم ورغبات الانكليز الاستعمارية ، تهاجمها بلؤم وحقد وحقارة ، يؤلمنا ان تنطلق هذه كلها من حناجر عربية ... كأن هذه الحناجر لا تحس بما تقذف من خيانة وطعن في قلب الامة التي انجبت اصحاب هذه الحناجر .

اننا لا نملك وقف هذه المحطة وتحطيم معداتها ، فهي تقوم في ارض غير عربية . ولكن دولنا العربية تملك ان تثير قضية هذه المحطة في المحافل الدولية العالمية ، او في المباحثات الدبلوماسية ، فمن العار ان تظل الحكومات العربية ساكتة حتى الان عن الاحتجاج ، بصورة رسمية ، لدى بريطانيا على دس هذه المحطة على العرب ، كما ان من الخزي للحكومات العربية ان لا تثير في مجالس هيئة الامم المتحدة قضية هذه الاذاعة التي تخل بالامن في الشرق العربي اخلالاً خطيراً .

واذا ظلت حكوماتنا ساكتة ، فان على شعوبنا الحرة أن تعمل على إسكات هذه الاصوات المنكرة ، المنطلقة مع الموسيقى والغناء والاحاديث واستعراضات أهل الفن !..

أيها الادباء .. ان محطة الشرق الادنى تشتري أحاديثكم الادبية البريئة لتغلف بها سباباً وشتائم تقذفها في وجه امتكم ...

أيها الفنانون ، إن غناءكم العربي الجميل، وموسيقاكم التي تعبر عن أطيب أحاسيسكم وأصدقها ، تستغلها محطة الانكليز أبشع استغلال ، حتى اذا أقبل الناس على سماعكم فرحين طربين ؛ فاجأتهم انكلترة بصوتها المنكر ووجهها الكالح وسياستها الاستعمارية !.

أيها المستمعون ، تطلبون اغنيات تسمعونها، ولكنكم في ذلك تسهمون في إحياء هذه الاذاعة ونشر اجنحتها ، من حيث لا تدرون ...

وليس أسهل على الادباء والفنانين من أن ينقطعوا عن معاونة هذه المحطة العدو ، التي أعلنت الحرب علينا ... فلا أقل إذن من أن ندافع عن أنفسنا وأن نقاطعها ، وما أضعفه من إيمان ! ولا نذيع سراً اذا قلنا إن أسرة مجلة « الآداب »، وعدداً من أصدقائها قد أبلغوا محطة الشرق الادنى منذ سنتين عن مقاطعتهم ، وامتناعهم عن الاشتراك في تقديم الاحاديث إليها ، لموقفها يومئذ من حوادث قناة السويس . ولم تتورع المحطة عن أن تستغل بعض الاشرطة القديمة لهؤلاء الممتنعين فأذاعتها دون علمهم وموافقتهم.

وليس أسهل على المستمعين من أن يتحولوا إلى اذاعات البلاد العربية الكثيرة ، التي لا تتأخر عن إذاعة ما يرغبون من تسجيلات .

في العالم العربي اذاعتان تقاومان نهضة العرب وتحررهم : إذاعة اسرائيل ، وهذه ظاهرة الخطر ، مكروهة السماع ، لا أثر لها بين العرب . وإذاعة الشرق الادنى، ظاهرها الرحمة وباطنها العداوة والعذاب، ورسالتها السياسية لا تقل خطورة عن رسالة اسرائيل .

وقد انكشفت حقيقتها للجميع !

« بهي »

أشتات أدبية

•

• تتابع اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية اعمالها . وستظهر عنها قريباً الكتب التالية : « السياسة » لارسطو ، « تقسيم العمل » لدركايم « خواطر » لبسكال، «المدخل الى دراسة الطب الاختباري» لكلود برنار « مستقبل العلم » لرينان .

• بدأت مظاهرات اعلان الاستقالات من جمعية اهل القلم .. ومن الطريف ان صاحب هذه الاستقالات المزمنة يعود عن استقالته بناء على الحاح زملائه اعضاء المجلس الاداري !..

• ان دار الكتب اللبنانية مقبلة على عهد حافل بالاحياء والتجديد والنمو... فبعد ان يتم احصاء موجوداتها ستخصص فيها غرف للمؤلفين والمراجعين ، كما سيقام لها فروع في الاحياء النائية لتكون ملتقى اهل الحي وابنائه المثقفين .

ونرجو ان لا توضع العقبات في طريق الاستاذ واصف البارودي مدير الدار الذي يسعى لتحقيق هذه المشروعات .

• انشئت في بيروت دار جديدة للنشر باسم « دار النشر للجامعيين ». والقيمون عليها خليقون بكل توفيق ونجاح .

• اصدرت مجلة آخر ساعة المصرية عدداً خاصاً عن « لبنان »... وليس فيه من هذا البلد الجميل سوى شركات طيرانه وشركة « الكات » للمقاولات ! اما جامعاته وادباؤه وفنانوه ، اما ابناؤه على اختلاف الوانهم .. فكانوا بعيدين عن صفحات اخر ساعة كل البعد .

• تماثل الاستاذ مارون عبود للشفاء من الوعكة التي المت به.. وقد دفع الى المطبعة كتابه الجديد : « سبل ومناهج ».

نشاط الندوة اللبنانية

طلعت « الندوة اللبنانية » اخيراً ببرنامج ضخم لموسم محاضراتها هذا العام ٥٥ – ٥٦ ، يعطي دلالة جديدة على نشاط مؤسس الندوة الاستاذ ميشال أسمر الذي ما فتئ يجند المواهب السياسية والفكرية والادبية في كل عام لاعطاء سلسلة من المحاضرات القيمة التي تؤلف مظهراً من أهم مظاهر النشاط الثقافي في لبنان .

ومحاضرات الندوة هذا العام تنتظم موضوعات مختلفة في العلم والثقافة والادب . وهذه هي الموضوعات واسماء المحاضرين :

« شخصية انشتاين وعبقريته » للاب دوبره دولاتور – « تاريخ الذرة» للدكتور حسن مشرفه – « الطاقة الذرية » للدكتورة سلوى نصار – « شواغل الفلكيين الحالية» للأب بلاسار – « طبابة جديدة » للدكتور مارسيل ابو صوان – « الطب النفساني » الدكتور هنري ايوب . – « مقومات الفكر المتوسطي» للسيد جورج سفريادس، وزير اليونان المفوض ببيروت . – « الاسلام بين الامس واليوم » للشيخ مصطفى الرافعي – « بعض خطوط جديدة في التربية ومدى تطبيقها في لبنان » للآنسة ماري انج ابي صالح – «العرب والثقافة الحديثة» للدكتور قسطنطين زريق . – « الاسس الجغرافية للبنان المعاصر » للاستاذ جواد بولس – « السياسة الخارجية اللبنانية » للاستاذ فؤاد عمون . – « السياسة الداخلية اللبنانية » للاستاذ فيليب تقلا . – « السياسة الداخلية اللبنانية » للسيد حسين العويني – « السياسة الاقتصادية اللبنانية » للدكتور البير بدر – « السياسة الاجتماعية اللبنانية » للدكتورة جمال كرم حرفوش – « السياسة التربوية اللبنانية » للدكتور نجيب صدقه . – « تفاعل الاتفاقات الاقتصادية بين البلدان العربية » للاستاذ جان السكاف – « التعليم العالي والتوجيه المهني » للاستاذ فؤاد افرام البستاني . – « خواطر في الاغتراب والمغتربين » للاستاذ فاضل سعيد عقل . – « طبائع لبنانية »للزعيم عزيز غازي . – « وانما الامم الاخلاق » للاستاذ فكتور لحود . – « الصحافة اللبنانية » للاستاذ باسم الجسر . – « كيف نبني لبنان » للاستاذ ابراهيم عبد العال . – « كيف نجمّل لبنان » للسيدة مي فياض . – « مشروع الليطاني » للاستاذ سليم لحود . – « المشاريع الكبرى ورفع المستوى » للاستاذ جوزيف شادر . – « تعمير البيت اللبناني » للاستاذ حميد فرنجيه.

والى جانب هذه المحاضرات في العلم والثقافة والتوجيهات اللبنانية ، سيستمع رواد الندوة اللبنانية الى سلسلة هامة من المحاضرات في الادب العربي يشترك فيها الاساتذة انطون كرم: « جبران الخالد ، تأثراته وتأثيراته . » وفؤاد حداد : « صلاح لبكي في صميم حياته وأدبه » . وعبدالله لحود : « حقيقة الاديب » . ووديع ديب : « الادب العربي في المهجر الاميركي » . والدكتور سهيل ادريس : « النزعة الثورية في القصة العربية الحديثة » . ورئيف خوري : « هذا التراث الفكري العربي » . وادوار حنين : « خواطر في الادب اللبناني » .

وسيتناول الاستاذ رينه حبشي في محاضراته الفلسفية هذا العام موضوعات « سيمون دو بوفوار والجنس الثاني » و « تيلار دي شاردان » و « شطحات الفلسفة في الفكر العربي .»

مصر

لمراسل الآداب الخاص

امتداد الطوفان !

لم تكن مؤسسة فرانكلين وحدها لتستطيع ان تقوم بالدور الخطير الذي تقوم به في مصر لو لم توجد قابلية فعلية لمعاونتها على النمو والامتداد، ولقد وجدت هذه القابلية الخصبة عندما اكتشف البعض ان الفكر والثقافة من الممكن ان يتحولا الى « سلع » رائجة تضمن من ورائها الارباح الكثيرة ، وكانت نشأة هذه الفئة في ظروف ساعدتها على ان تكتشف امكانية المتاجرة بالفكر والثقافة ، وبعض هذه الظروف كان متمثلا في المراحل التاريخية المختلفة لنمو الفكر والثقافة في مصر ، وبعضها كان متمثلاً في طبيعة هؤلاء التجار الاذكياء انفسهم .

ولنعد قليلًا الى مطلع القرن العشرين لنتبين الملامح العامة للظروف الفكرية في ذلك الحين ، فقد كانت الثقافة المصرية التي تقدمها المعاهد والمدارس آنذاك مقصورة على فئتين : الاعيان من الحكام وغيرهم ورجال الدين ، وكانت النسبة العددية لهاتين الفئتين ضئيلة بالقياس الى مجموع الشعب كله . وبالطبع كانت مصالح هاتين الفئتين متناقضة الى حد كبير مع مصالح المجموع ، ومع ذلك فقد كانت المدارس ومعاهد العلم مقصورة عليها تقريباً سواء في مصر نفسها او في البعثات المصرية الى اوربا.

اما غالبية الشعب فقد كانت تستمد معارفها من شيء واحد هو : التجربة العملية على اختلاف مظاهر هذه التجربة ، بين احتكاك بالمستعمر ، وكفاح دائب ضد الدولة ، وتحايل مستمر على الارض في الزراعة والحصاد ووسائل تنظيم هذه الحصاد ... تلك هي الصورة العامة للوضع الثقافي في مطالع القرن العشرين .

ولقد بدأت هذه الصورة تتغير في سرعة حين خلقت الازمات المختلفة التي مرت بالشعب ، ومن عرقه وتاريخه في الكفاح ، طبقات جديدة تماماً في تاريخ مصر خلال هذا القرن كانت نشأتها تمثل عدم الرضاء بالوضع السابق والامل في وضع جديد ... قامت الطبقة الوسطى والطبقة الوسطى الصغيرة وطبقة العمال ، وابتدأ الوعي الثقافي يعم شيئاً فشيئاً في حدود الظروف المختلفة التي عاشتها تلك الطبقات . وتبلور هذا الوعي الجديد في حاجة الشعب الى الصحافة ، وحاجته الى المدارس المختلفة والجامعات ، ثم اقباله على هذه المؤسسات كأمل له في الخلاص من أزماته واكتشاف كل ما له من امكانيات ... لقد أصبحت الثقافة عن طريق القراءة مطمحاً غير مقصور على فئتين – ولا اقول طبقتين – هما : رجال الحكم ورجال الدين – ولكن كيف تعيش هذه المطامح العامة وكيف يستجاب لها وهناك قوى اخرى مسيطرة تريد ان تبقى ، وليس من صالح بقائها

النشاط الثقافي في العالم العربي

ان تنمو هذه المطامح الجديدة ؟.. كان هناك : قوة المستعمر ، وقوة الملك ، وقوة الاقطاعيين ، وكان هناك القوة الدينية التي اصطنعتها القوى الاخرى كستار كثيف لحماية مصالحه المتناقضة مع مصالح المجموع ... ان نمو المستوى الثقافي للشعب يعني القضاء على هذه القوى التي ترتع في حقوق الشعب والذي يبرر لها هذا كله شرط واحد هو : انعدام الوعي الشعبي عن طريق الثقافة بالذات ..غير ان هذا الوعي بدأ ينمو ويكتشف الحقيقة القاتلة : إن مصدر ألمه وعذابه هو هذه القوى المسيطرة بلا حق وبلا جهد يبذل في سبيل تبرير هذه السيطرة تبريراً لا يتناقض مع المنطق الانساني السليم .

في هذه الظروف التي بدأ فيها الوعي عن طريق الثقافة ينتشر بين طبقات الشعب المختلف ، كانت القوى الاخرى تعمل بدورها للسيطرة على هذا الوعي وإثارة الضباب في طريقه ، وتشكيكه في انتصاراته المحققة او القادمة . وكانت هذه القوى في حاجة الى وسائل بشرية يمكن توظيفها في هذه المعركة لتقوم بدور التصفية .. تصفية ما بين تلك القوى الداعية للهزيمة وبين الوعي الشعبي عن طريق الثقافة .. وذلك حتى يطمئن كل الى وضعه « المقدور »

. وبين طبقات الشعب التي تكافح من اجل قضية الوعي بالحياة ، كان هناك طبقة سعيدة تستمد صفتها الطبقية من عناصر تاريخية قديمة ، وكانت الفلسفة العامة لهذه الطبقة الضئيلة كماً ، الخطيرة بالنسبة لوعيها بمصالحها وتاريخها الطويل ، هي : الكسب الفردي مها تناقض مع مصالح الشعب المصري – لقد تعلم أبناء هذه الطبقية على خير ما يمكن ان تقدمه المعاهد العلمية في مصر في الوقت الذي كانت الثقافة فيه غريبة عن الشعب : إما لانه مشغول عنها بمشاكله الكثيفة ، وإما لوجود الاسوار الفعلية المقصودة بينه وبين التعليم ، ولقد سافر كثير من ابناء هذه الطبقة الى اوربا وتعلموا هناك ايضاً ، واستطاعت معركة القومية المصرية المغلوبة ، على امرها ان تجذب اليها بعض ابناء هذه الطبقة ، واعتمدت حركة النمو التاريخي في مصر الحديثة على بعض الجهود الاساسية المخلصة كان من بينها كفاح هؤلاء الابناء الممتازين الكبار الذين اجتذبتهم المعركة القومية من بين انياب الفلسفة الطبقية التي ينتسبون اليها تاريخياً ، فعرفت الحياة : مصطفى كامل ، قاسم امين ، محمد فريد ... ولكن المعركة عجزت في نفس الوقت عن اجتذاب فئات اخرى كثيرة من ابناء هذه الطبقة ، وعجزت أيضاً عن تغيير الفلسفة التي ارتبطوا بها : فلسفة الكسب الفردي مها تناقضت وسائله مع صالح المجموع .

الى من يلجأ هؤلاء ؟

الى صدور الحكام المعادين للشعب ، هذه الصدور الحانية عليهم ، المستمدة لتحقيق فلسفتهم في واقع الحياة ، لان تحقيقها هو الثمن الذي يدفعه هؤلاء الحكام من اعداء الشعب حتى يظلوا مسيطرين على خيرات مصر ، يرتعون على مسرح حياتها دون رادع أو وازع من ضمير إنساني ... وكان المسرح أحمر : بلون الدم ، شفافا كثيفاً غباريا : بلون العرق ، حزينا كنبضات قلب الفلاح المصري المسكين الذي لا يغني الا بكاء ، ولا يبتسم مرة الا لتروى لك ابتسامته قصة تاريخ شاحب أسود ذليل .

.. الى من يلجأ هؤلاء أيضاً ؟

في اواخر القرن الماضي ومطالع القرن العشرين ، في هذه الفترة التي كان المجتمع المصري فيها يذوب تحت حرارة التجارب المختلفة ليعيد تكوين نفسه من جديد بصورة تتلاءم مع ظروفه الجديدة ... في هذه المرحلة وفدت على مصر طبقة من التجار: لفظتهم مجتمعاتهم لضيقها بفلسفتهم ومطامحهم المغلقة فجاءوا الى مصر ... إلى السوق الواسعة التي تتيح لهم فرصاً أكثر للكسب والنجاح ، كانوا تجاراً موهوبين فأخذوا يبحثون في السوق الجديدة عن مادة لتجارتهم فلم يجدوا خيراً من مطامح هذا الشعب وآماله الوليدة . وفتح التجار الموهوبون دور الصحافة مستغلين حاجة المجتمع المصري في تلك الفترة « الخام » من تاريخه إلى مؤسسات الثقافة على اختلاف انواعها ومن بينها الصحافة . فقد كان ذلك الحين هو بداية الامتداد الشعبي العام إلى ميدان الثقافة. لقد بدأت هذه الثقافة تخرج من صومعتها كأرث خاص للأعيان من رجال الحكم والدين والمال لتصبح أملاً جميلاً في مستقبل جميل ... لتصبح وسيلة لكافة أبناء الشعب في علاقاتهم الانسانية وحياتهم العملية التي تتطور في سرعة ... بدأ هؤلاء ينشئون الصحف ودور النشر ، ولان أهداف تلك الصحف ودور النشر كانت تجارية بحتة ، فانها لم تعن ابداً بأي تناقض بينها وبين مصالح المجموع ما دام هذا نفسه لايتناقض مع الاهداف التجارية لمشروعاتهم ومؤسساتهم ، وحسبنا أن نقول : لقد كان من بين هؤلاء الوافدين مفكرون وفنانون مدركون سرعان ما امتصتهم البيئة المصرية فأصبحوا مصريين شرفاء لا يتناقض معنى وجودهم مع معنى وجود المصريين أنفسهم ، وأصبح هؤلاء بالذات : أفراداً مصريين لا مؤسسات في مصر .. حسبنا أن نقول هذا لنؤكد بعد ذلك أن هؤلاء الوافدين إلى مصر – باستثناء الافراد القلائل الذين تمثلتهم مصر واستوعبتهم تماماً – كانوا جميعاً عناصر غير صالحة للاشراف على مؤسسات فكرية مصرية : فلا الشعب واع تماماً لدوره التاريخي ، ولا الطبقات الواعية القليلة قادرة على النفاذ إلى اعماق التجربة الجديدة عليها – تجربة الصحافة ودور النشر في النطاق الشعبي الواسع – لنتعرف المصير القريب لهذه التجربة ... ذلك المصير الذي اتخذ لنفسه مكاناً مواجهاً لنمو الشعب وتاريخه وكفاحه وضرورياته المختلفة ... وبعض ابناء هذه الطبقات الواعية نفسها هم من نتحدث عنهم : وعي لمصالح فلسفة الكسب الفردي مها تناقض مع مصالح المجموع بل حتى ولو كانت مصالح المجموع نفسها وسيلة لهذا الكسب .

انشأ هؤلاء التجار الوافدون الذين ضاق بهم مجتمعهم ولفظهم بسبب من مطامحهم الفردية الواسعة التي لا تحس بأي التزام إزاء الآخرين ما دام هؤلاء الآخرون لا يلزمونها شيئاً بوسائل مباشرة ... انشأوا مؤسسات فكرية عديدة كانت هي المدرسة التي تعلم فيها ابناء الطبقات التي اعتمدت عليها القوى المعادية لمصر في تدمير روح كل معركة من معاركها الكبيرة .

وبهذه الوسيلة ، وفي صراحة أكثر تلزمنا بها ضرورة الموقف الراهن ، خرجت « أخبار اليوم » إلى الحياة : تربى اصحابها في أحضان طبقات استمتعت بكل الخير المصري في يوم من الايام ، ثم خرجوا إلى الحياة يبحثون عن مجال يطبقون فيه الفلسفة المفهومة التي تأصلت في نفوسهم : الكسب الشخصي دون أي التزام إزاء الآخرين .. وبدأوا كما يبدأ كل هادف إلى تحقيق تلك الفلسفة : المرحلة الاولى في حياته هي اتقان « التكنيك » فتلك هي وسيلة الخداع التجاري الأولى ... وبعد ذلك

بدأوا المرحلة التالية ، مرحلة استغلال التفوق في التكنيك استغلالاً عملياً تطبيقياً... فالشعب جائع إلى الوعي عن طريق الصحافة، وليس في الامكان أن تقوم الصحافة الحرة المسئولة التي تستجيب لحاجة الشعب دون جهد كبير وكفاح شاق وتنازل أساسي عن الفلسفة المفهومة التي ثبتت جـذورها في نفوس أبناء هذه الطبقة التي تريد الكسب الفردي عن أي طريق، فلتقدم للشعب الصحافة المطلوبة كوسيلة من وسائل التثقيف والمعرفةلا لتؤدي هذه الرسالة ولكن لتحقيق الهدف الاساسي : الكسب الفردي دون أيالتزام إزاء الآخرين .

وكانت هناك المدرسة الكبرى للتكنيك في مصر .

أنشأ هذه المدرسة : التجار الوافدون إلى مصر بعـد أن عجزوا عن تحمل تبعاتهم كمواطنين فلفظتهم مجتمعاتهم وضاقت بهم .

كانت هذه المدرسة الكبرى هي : « دار الهلال » . وتعلم أصحاب « أخبار اليوم » المبادىء الراسخة الاولى هناك :في أرض غريبة عنمصر قائمة في قلب مصر .

وبدأت « أخبار اليوم» تظهر كشخصية مستقلة منفصلة عن أمها الكبرى عندما وجد أصحابها أن المجتمع لم يعد يحتمل كثيراً أوجه الغـرباء وأن طبقاته المختلفة تنمو ... وأخطر من هذا كله ، أن المسيطرين على الخبز المصري كانوا في خوف وقلق على سلطانهم إزاء امتـداد النمو والوعي . إنهم في حاجة إلى من يثير الضباب في وجه المعركة الشعبية من خلال آمالها ومطامحها ... أجل : من خلال نفس الآمال والمطامح .

وبدأت « أخبار اليوم » في تأدية رسالتها بعد أن تهيأت تماماً من ناحية التكنيك ... احتضنها القصر الملكي من أجل تحطيم الوفد وهو أكبر جبهة شعبية كانت تهدد الملك بالخطر في ذلك الحين ، ومضت « أخبـار اليوم » تجند كل ما وصلت اليه من تفوق تكنيكي للقضاء على السلطـة الشعبية للوفد ، وإشباع مطامح الشعب في الثقافة بطريقـة متميعة ليس من السهل أن يكتشفهـا الشعب ببساطـة لأنها ذات وجه مصـري ولأنها ذات رأس مال كبير يمكنها من : التفـوق في التكنيـك واستغـلال حاجة عدد من الكتاب المصريين ليتفرغوا بجهودهم لها وليكونوا - بوعي أو بغير وعي - ذلك الستـار الكثيف الذي يحمي الرسالة الحقيقية لهذه المؤسسة ، تلك الرسالة التي تتلخص في : تحقيق فلسفة أصحابها في الحياة ، وتحقيق آمال الملك ومن ورائه أعداء كثيرون للشعب في هدم أكبر قوة شعبية آنذاك هي : الوفد الذي لم يكن خطيراً في ذاته بقدر ما كان الخطر فيما يتولد عنه من قوى هائلة كلها نما وعي الشعب.

ولما كانت فلسفة أصحاب الدار لا تتناقض مع آمال الملك ومن ورائه القوي الاخرى المعادية للشعب ، فقد ولدت المؤسسة في سهولة ويسر ... فالشعب مرهق وبلا سلاح ، والاعداء أقوياء ذوو أسلحة .

ويتطور الشعب ، ويتطور الاستعمار ايضاً ، والمرحلة الاخيرة - لا النهائية - من تطور الشعب هي ازدياد الشعور بضرورة الوعي عن طريق الثقافة والمرحلة الاخيرة - لا النهائية ايضاً - من تطور الاستعمـار هي المحاولة الضارية للسيطرة على منابع الثقافة ومصادرها المختلفة ، وشل القوى التي يمكن ان تكون هي المنافذ التي تبعث بالشمس والهواء الطلق لهذا الوعي الجديد ، تارة باستغلال الضرورة التي يعيش فيها بعض الكتاب والمفكرين في مصر ، وتارة اخرى بالسيطرة على دور النشر واغراق السوق الفكرية بكتب كثيرة لا تمس واقعنا الحقيقـي الذي يغلي بالالم والحاجة .. اجل بالحاجة : اولاً للتخلص من شتى صور الاستعمار وثانياً للحياة في رخاء وامن .. وتارة ثالثة يعتمد هذا الاستعمار على التسلل الى المدارس ونظم التربية ومعاهدها ، وإلى الجامعات ايضاً . وحسبنا ان نشير اليوم إلى سلسلة « علم النفس للآباء والمدرسين » التي تصدرها مؤسسة فرانكلين بنسبة كتاب كل أسبوع ، ويشرف على إصدارها وترجمتهـا الدكتور عبد العزيز القوصي عميد معهد التربية: أكبر معهد مصريلتخريج المدرسين - وحسبنا أن نشير أيضاً إلى أن نظم التربية الاميريكية هي النظم السائدة في مدارسنا ومعاهدنا المختلفة ، وحسبنا أن نشير مرة أخرى إلى أن سيطرة مؤسسة فرانكلين قد تمدت حدود السيطرة العامة عـلى دور النشر إلى السيطرة الخاصة على تفاصيل هذه الدور المختلفة ، فقد صدر في الشهر الماضي أول كتاب مترجم في سلسلة « إقرأ » التي ظلت اكثرمن عشر سنوات تصدر كتباً عربية مؤلفة ... وقد صدر هذا الكتاب المترجم تحت إشراف مؤسسة فرانكلين .

***

إن موضوعنا لا زال يحتاج إلى رابط ؛ والذي دعانا إلى كتابته هو: ان « دار اخبار اليوم » قد اتفقت مع المؤسسات الامريكية المختلفة على إصدار مجلات امريكية منتظمة في ترجمات عربية ، واول هذه المجلات مجلة « المختار » الامريكية التي كانت تصدر من قبل تحت إشراف فـؤاد صروف...وسوف تصدر من جديد عندار « أخبار اليوم» تحت إشراف كاتب مصري عاش على هامش المعارك الوطنية المختلفة هو : محمد زكي عبد القادر ... الكاتب الكبير الذي لم يلتزم في يوم من الايام اي التزامجدي في حركتنا التاريخية المعاصرة ، وسوف تصدر المختار كموجة جديدة من أمواج الطوفان الغامر الذي يجتاح الثقافة المصرية اليوم ، تصدر هذه المجلة عن دار أخبار اليوم لتكتب للمصريين المكافحين المرهقيـن طرائف عن الذرة ، وحكايات بوليسية عن الكرملين ، ومقالات مفصلة عن الانسان الآلي ... كل ذلك في الوقت الذي يعرف العالم فيه كثيراً من الحقـائق الموضوعية القائمة على أساس من الجهد والعمل الدائب: عن الذرة،ويعرف فيه كثيراً من الحقائق الموضوعية عن طبيعة العلاقات الدولية وضروبهـا وقيمتها واسسها المختلفة ، ويحتاج فيه إنسان القرن العشرين عموماً وإنسان مصر والشرق على وجه الخصوص إلى كفاح كبير لتأكيد قيمة الانسانغير الآلي والدفاع عنه ضد الوان الاستغلال المختلفة وتوسيع نطاق امكانياته حتى يستطيع البقاء ، ويستطيع ان ينزع ذلك « القرف » الأسود الذي يملأ نفسه ويضعه على الدوام في معركة اليمة مع العدم ، إما في مستشفيات السل او على ارصفة الشوارع ، او في داخل الوجدان المهزوم إنسانياً في علاقاته المختلفة - وفي لحظات الارهاق والخدر يفسح المصري صـدره «للمختار» وغيره مما يسليه ، ويعزيه عن مأساته : فقدان حريته إزاء نفسه كانسان يحب ويبتسم ويعرف ، كما يقدم له الطرائف المختلفة التي لا ينقصها هذه المرة ان تصدر عن دار ذات وجه مصري ، وتحت إشراف كاتب تبدو عليه ملامح الجد والرصانة ، ولا ينقصها ايضاً ان تكون مزيجاًمن الكتابات الامريكية والافلام المصرية ... تلك الصفة التي كانت تنقص

« المختار » حينما كانت تصدر من قبل .

إن « المختار » ليست آخر موجة في هذا الطوفان ، بل إن هنـاك موجات اخرى سوف تتبعها ، ففي الغد القريب سوف تصدر مجلة«لايف» الامريكية في طبعة عربية عن دار اخبار اليوم : نفس الدار التي نشأت في احضان الملك ، وتعلمت التكنيك على يد تجار غير مواطنـين ، وواجهت الشعب بأقوى الضربات المعتدية في معاركه المنيفـة ، وبنت عشرة ادوار كبيرة في اقل من عام واحد لتتسع للمشروعات الامريكية المختلفة .

إن على عاتق المثقفين المصريين مسئولية كبيرة ، عليهم ان يقاوموا هذا الطوفان ... ولو بالدموع .

معركة الوجودية

لم يُظلم مذهب فكري حديث في تاريخه كما ظلمت الوجودية في مصر ، فلقد اتسمت الاذهان لفهم اشياء كثيرة على حقيقتها وضاقت بفهم هذا الاتجاه الفكري المعاصر . ولقد اصبحت الوجودية موضوعاً للحديث والمناقشات منذ اعلان دارس جامعي هو الدكتور عبد الرحمن بدوي احتضانه لهـذا الاتجاه وايمانه به ، وقد كان ذلك قبل ما يزيد على عشر سنوات عنـدما قدم الدكتور بدوي الى الجامعة دراسته عن « الزمـان الوجودي » كرسالة للدكتوراه ثم خرجت لهذا الكاتب منـذ ذلك الحين حتى اليوم مجموعة من الدراسات عن الوجودية مثل « الوجودية والانسانية في الفكر العربي » و « شخصيات قلقة في الاسلام » و « هل من الممكن قيـام اخلاق وجودية ؟ » ... ولم تخل دراسات عبد الرحمن بدوي من قيمة « موضوعية » ولكن هذه القيمة كانت ضئيلة بالقيـاس الى الظروف الاخرى التي التزم فيها عبد الرحمن بدوي هذا الاتجاه الفكري وفرضت على تفكيره خصائص رئيسية غلبت على غيرها من الخصائص ، فعبد الرحمن كاتب متسرع الى ابعد الحدود ، يثق بنفسه ثقة تغطي عـلى ضرورات الدراسة الفكرية المسئولة ، وعلى رأس هذه الضرورات ان يتخصص الكاتب في مجالات تفكيره الموضوعي تخصصاً عميقاً لا يسمح له بتمديـد مجالات هذا التخصص الى الحد الذي يؤدي حتما الى نتائج فكرية قليلـة القيمة ان لم تكن خاطئة تماماً ، وهناك حقيقة اخرى أساءت للاتجـاه الوجودي على يد عبد الرحمن بدوي : فهو كاتب لم يلتزم على الاطلاق اي التزام فكري ، انه متلائم مع المتناقضـات ، فهو كاتب وجودي ومساهم في مكتبة الانجلو التي تتعاون مع مؤسسة فرانكلين وغيرها ، وهو مرتبط بمسئوليات سياسية كعضويته في لجنة الدستور ولم يكن في يوم من الايام ذا رأي سياسي ، او مشاركة - بصورة من الصور - في احداث مصر السياسية ... ان الموقف الوجودي عند عبد الرحمن بدوي موقف اعتباطي غير مسئول ، مما ادي في نهاية الامر الى عرض خاطيء ناقص في جوانب رئيسية هامة للاتجاه الوجودي ، وفي ادراك الوضع الـتاريخي لهذا الاتجاه في اوروبا ، وتمييز وضعه التاريخي عندنا ، وهكذا ارتبط الاتجاه الوجودي بكاتب غير وجودي على الاطلاق ،وكانت هذه هي اول المظالم التي حاقت بهذا الاتجاه في مصر . فعلى اساس من الفهم الذي قدمه الدكتور بدوي للوجودية لقي هذا الاتجاه اعنف هجوم عرفه تاريخه في مصر ، وكان هذا الهجوم صادرا عن قلم له قيمته ودوره الفعال المخلص في حياتنا الثقافية هو قلم الاستاذ محمود العالم ، فقد كان هجومه الاول على الوجودية متجهاً ضد الفهم الذي قدمه عبد الرحمن بدوي لها ، وكان الاحرى بهذا الهجوم ان يتجه الى طريقة تكون هذا الفهم الوجودية عند عبدالرحمن بدوي ، ذلك لانه ينبغي لنا ان نناقش الاتجاه الفكري بعد ان يكتمل ويتضح وتبدو عناصره كاملة امامنا عن طريق منهج فكري مسئول امين ، وهذا ما لم يتوفر في الدكتور بـدوي بسبب طريقة فهمه للحياة ، هذه الطريقة المعتمدة على التعالي واللامبالاة الى حـد كبير . وعلينا ان ننقد مناهج المعرفة لا موضوعات المعرفة وحسب ، فقد يكون هناك موضوع للمعرفة لا نوافق على بعض تفاصيله وعناصره ؛ ومع ذلك فنحن نحترم المنهج الذي التزمه صاحبه في الوصول اليـه ، ان المنهج اولاً قبل الموضوع هو اخلاقية الفكر الاساسية ، وعلى هذا فقد كان جديراً بهجوم الاستاذ العالم الا يكون ، وان يتجه هـذا الهجـوم عند محمود ، وهو الكاتب المسئول الشجاع ، إلى منهج المعرفة الوجوديـة عند عبد الرحمن بدوي وما في هذا المنهج من اخطـاء لا علاقـة لها بالوجودية في كثير من الاحايين - وهكذا ظلمت الوجودية عند نصيرها وعدوها ، عند عبد الرحمن بدوي وعند محمود العالم .

وقد كتب طه حسين عن الوجودية وعن سارتر بالذات ما بين عامي: ١٩٤٥ و ١٩٥٠ ، وكان ذلك في مجلة « الكاتب المصري » وقد جمعت هذه الكتابات بعد ذلك في كتاب« ألوان» ، وكذلك كتب العقاد عن الوجودية فصلين نشرهما في كتابه: « بين الكتب والناس»وكتب فصلاً عن الوجوديين المؤمنين في كتابه « عقائد المفكرين في القـرن العشرين » ولم تكن كتابات طه حسين ولا العقاد ذات أهمية ولا قيمة في شرح الاتجاه الوجودي شرحاً سليماً بالنسبة للقارىء المصري ، فقد ركز طه حسين اهتمامه عـلى تلخيص بعض آراء سارتر ومسرحياته وقصصه كما عني كذلك بقصة الطاعون لكامو فلخصها في كتابه « ألوان » الذي أشرنا اليه . اما العقاد فقد عرض للاتجاه عرضاً سريعاً لم يتعمق فيه بالرغم من انه هاجم سارتر بالذات هجوماً شديداً وكان يلزمه أن يعرضه عرضاً اميناً منذ البدء . وحسبنا هذا العرض للمظالم التي أصابت الاتجاه الوجودي في مصر لنشير الى المعركة الاخيرة التي قامت في الشهر الماضي حول الوجودية بين عدد كبير من كتاب الصحف. فلقد كتب محمد التابعي كلمة في الاخبار عنوانها « الوجودية » وملخصها : انه لا يعرف شيئاً عن الوجودية وان اغلب ظنه « انها اتجاه منحل ضد الاخلاق والدين والتماسك الاجتماعي ، ويشهد على ذلك احد اصـدقائه الذين زاروا باريس فوجدوا ان «الوجودية» هي هذا الانحلال والتفكك.

وتلقفها أحمد قاسم جودة رئيس تحرير الجمهورية فكتب عن: «الوجودية والالحاد بين شباب الجامعة » ، فهاجم الوجودية بشدة ونسب اليها ظاهرة الالحاد التي يقول إنها انتشرت بين شباب الجامعة مع غيرها من العادات الوجودية : كالانحلال الاخلاقي والاجتماعي والميوعة واللامبالاة ، ورد إحسان عبد القدوس في « روز اليوسف » وأثار بعض الاسئلة والشكوك حول ما كتبه قاسم جودة ، وكذلك كتب سامي داوود في« الجمهورية » حيث تحدث عن رأي الوجوديين في المجتمع ، وركز قيمة خطرهم في : دعوتهم إلى الفردية والتفكك ، الاجتماعي واخيراً كتب انيس منصور

في « الاخبار » كلمة عنيفة قاسية رد بها على قاسم جودة بالذات ودافع فيها عن الوجودية دفاعاً انفعالياً صادقاً . والمتأمل لحقيقة هـذه المعركة يدهشه انها مرحلة اخرى من مراحل الظلم الذي اصاب الاتجاه الوجودي في مصر ، فمن الحقائق الواضحة ان معظم الذين هاجموا الوجودية في هذه المعركة ، وحتى الذين لبسوا ثوب العلماء كالاستاذ سامي داود قـد صنعوا وجودية من خيالهم لا علاقة لها على الاطلاق بالوجودية كاتجاه له جذوره الموضوعية في حركة الفكر العالمي المعاصر . ومن الحقائق الواضحة ان مستوى فهم الصحفيين المصريين للوجودية لا يختلف عن مستوى فهمهم لكثير من القضايا التي يعرضون لها ، فهو مستوى سطحي لا يثبت امام المعرفة الموضوعية العميقة ولا امام مسؤولية هـذه المعرفة ، ولعل هذه الحقيقة الاخيرة تتضح اذا ما عرفنا الظروف التي قامت فيها هذه المعركة والسبب الذي قامت من اجله، بوعي من الصحفيين او بغير وعي

فلقد قامت هذه المعركة في بداية العام الجامعي الجديد ، وقـد كان هذا العام بالذات مرتبطاً بمشكلات عنيفة تتصل بواقع المجتمع المصري كله، فلقد وقف الكثير من ابناء مصر خارج اسوار الجامعات التي ضاقت بهم هذا العام ، ولقد كانت هذه النسبة الكبيرة من ابناء مصر تفتش في أسى وألم بين زوايا المستقبل المظلم عن مكان لها ، كما ان معظم الذين دخلوا الجامعة هذا العام او من قبل يعيشون في ظروف اقتصادية قاسية وفي صراع ومزاحمة شديدة من اجل الحصول على امن واطمئنـان في المستقبـل المتشابك الخطوط الذي لا يفصح عن وجهه بوضوح امام احد . وفي مثل هذه التجارب العنيفة يولد القلق ، ويولد الاضطراب النفسي والتشكك في القيم والعادات والتقاليد والبحث عن مستويات جديدة منها او مراحـل تاريخية جديدة فيها حتى يمكن ان تتلاءم في اشخاصهم مع التجـارب التي يعيشونها بعنف وقسوة في واقعهم الراهن .

هذه هي ظروف المعركة، اما السبب الذي قامت من اجله فهو الدفاع عن الشباب الجامعي ضد الالحاد ، وقد كان الطريق الطبيعي للدفاع عن الشباب الجامعي ضد مستوى فكري يخشى الصحفيون على الشباب منه ، ان يسلك هؤلاء الكتاب طريق البحث عن الجذور الموضوعية للمشكلة وبحث اصولها ومبرراتها المختلفة ، وعن طريق الفهم والادراك يمكن تقديم علاج يخلص المشكلة اذا كان هذا هو الهدف الحقيقي . ولكن هل كان ذلك هو الهدف الحقيقي ؟ ان ظروف المعركة وهي الظروف الراهنة للشبـاب في شتى مشاكله الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والنفسية تشكك تماماً في حقيقة المعركة وفي اهدافها ، ولعلها ليست معركة ضد الوجودية ، بل معركة هادفة لخدمة قضايا اخرى وجدت ان من السهل اصطناع هذا الاتجـاه الفكري العميق كستار لخدمة تلك الاهداف الحقيقية بعد تمييعه . اما الوجودية الحقيقية فهي اتجاه ينمو بهدوء لدى بعض شبابـنا المخلصين المسؤولين ، وهو لا ينمو كاتجاه منعزل عن واقع الحياة ، بل كحركة فكرية طيعة لا جمود فيهـا تستطيع باستمرار ان تستجيب للظروف والوقائع الجديدة التي يعيش فيها الانسان، وتستطيع في طواعيتها الحيّة ان تتجدد من خلال ضروراتنا المختلفة لتكون عملية دفع قوية للوعي بالحياة، ثم للحياة نفسها .

العراق

لمراسل (الآداب) الخاص مهدي القزاز

نشر الكتب العراقية

اصبحت وزارة المعارف هي الملاذ الوحيد لاكثر المؤلفين والناشرين في العراق يلتجأون اليها لطبع مؤلفاتهم اولشراء نسخ منها . فالصنف الاول تقدم له الوزارة منحة اقصاها (٣٠٠) دينار تقوم بنفقات الورق واجور الطبع ويلتزم المؤلف لقاء تسلمه هذا المبلغ تقديم (٥٠) نسخة من كتابه بعد انجاز طبعه الى وزارة المعارف . ثم هناك مساعدة اخرى تقدمهـا الوزارة الى هؤلاء المؤلفين وهي شراء نسخ من كتبهم تبلغ المائتين احياناً توزع مع الخمسين نسخة السابقة على مؤسسات الوزارة ومكتباتها العامة.

اما الصنف الثاني فيطبع كتابه على حسابه الخاص ثم يقدم طلباً الى وزارة المعارف لشراء نسخ منه وشراء هذه النسخ غير محدود ، وإنما يكون حسب اهمية الكتاب ومادته ومكانة مؤلفه فاحياناً تبلغ عدد النسخ المشتراة الخمسمئة واحياناً تهبط الى (٣٠) نسخة او أقل حسب مقتضيات الظرف الحاضر .

وهذه المساعدات المتنوعة التي تقدمها الوزارة والتي ارصدت لها في ميزانيتها مبلغاً ضخماً هي التي تشجع أكثر المؤلفين على التأليف والترجمة والنشر ، اذ

النشاط الثقافي في العالم العربي

لولاها لكان من العسير على بعضهم طبع انتاجه او تعريف كتابه في السوق المحلية لان هذه السوق تنشر فيها الكتب والمجلات الواردة من البلاد العربية والتي تحمل الوان الثقافات المحببة الى الطلاب والشباب والمثقفين الذين يقبلون على مطالعتها بنهم زائد وشوق شديد بحيث اصبح من الصعب على الكتاب العراقي ان يشق طريقه بنفسه الى الجمهور اللهم إلا اذا كان فيه مايتجاوب مع احاسيسه ونبضات وجدانه ويعالج مشا كله وهذا نادر .

فلوزارة المعارف الفضل كل الفضل في نشر اكثر الكتب العراقية القيمة وخاصة رسائل الدكتوراه والماجستير التي كتبها اساتذة واشرف على تدقيقها وبحثها ثم تزكيتها علماء افاضل اجانب وعرب .

ويقوم المجمع العلمي العراقي بتشجيع حركة الترجمة والنشر والتأليف ولو في نطاق ضيق جداً ولكنه تشجيع لا يخلو من فائدة لبعض المؤلفين . وان آخر كتاب ساعد المجمع على نشره هو كتاب (العلوم الطبيعية) للدكتور نوري جعفر وهو بحث قيم جداً في اصالة وابداع وعمق وجهد رائع جداً وخاصة ما تناوله المؤلف بالبحث في الفصل التاسع عن (اثر العلم في المجتمع العربي .)

والمجمع العلمي العراقي مجلة راقية تصدر (٤) اعداد في العام ويكتب اعضاؤها فيها بحوثاً مطولة فيما يستجد من مشاكل الآدب والنقد والوان الثقافات العربية الأخرى .

ويؤخذ على المجلة او على المشرفين على تحريرها انهم لم يسمعوا او يعترفوا بوجود ادب اجنبي او ثقافة اجنبية لها ميزاتها وخصائصها وكتابها يجب ان يخصص له جزء من هذه المجلة الكبيرة ، ولكن الظاهر ان اعضاء المجمع لا يزالون يركبون الجمل او يحدون الابل !

انباء ادبية

* من الكتب المهمة التي صدرت هذا الشهر كتاب (صدر الدين الشيرازي) للاستاذ جعفر آل ياسين وهو ترجمة شاملة وواسعة لحياة هذا الفيلسوف العظيم ، كتبت باسلوب مشوق وبطباعة متقنة . وقد رحبت بصدوره الدوائر الثقافية في العراق كما اثنى عليه النقاد في الصحف. وتنوي وزارة المعارف شراء نسخ منه لمؤسساتها الثقافية .

* ينوي الدكتور عبد الرحمن الجليل وضع كتاب عن نهضة العراق الاقتصادية باللغتين العربية والانكليزية وذلك اثر تلقيه كتاباً من معهد الدراسات بالقاهرة بهذا الطلب .

* قدم عضو البعثة العلمية العراقية لقسم الدكتوراه في جامعة طهران اقتراحاً الى اللجنة العاملة في مهرجان ابن سينا بطهران كتاباً يذكر فيه المحتفلين من شرقيين ومستشرقين بلزوم الاحتفال بالذكرى الالفية للاديب العربي الصاحب بن عباد ومن المعلوم ان الصاحب توفي بمدينة الري ثم نقل الى اصفهان ودفن في محلة تعرف بدرية وان قبره في اصفهان يزار .

* تنوي مديرية العلاقات الثقافية بوزارة المعارف اصدار نشرة ثقافية شهرية تسجل فعالياتها ونشاطها في حقول الثقافة والادب وتعميمها داخل العراق وخارجه .

* صدر كتاب بعنوان (قل هذه سبيلي) بقلم نظام الدين عبد الحميد وهو رد على كتاب (هذا او الطوفان) للكاتب المصري خالد محمد خالد ون العلماء

* سبق للاستاذ جعفر الخليلي القاص العراقي المعروف وصاحب جريدة (الهاتف) ان دخل السجن العراقي متطوعاً لدراسة احوال المساجين والظروف والملابسات التي اوصلتهم الى السجن مستمداً من حياتهم هذه قصصه الواقعية التي اخذ يذيعها من دار الاذاعة وينشرها في الصحف المحلية . وقد لاقى عمله الادبي هذا نجاحاً واقبالاً من الجمهور وسيقوم بطبع مجموعة هذه القصص قريباً .

* اتجهت نية وزارة المعارف الى اصدار مجلة تربوية للطلاب تحقيقاً لاهدافها الرامية الى رفع مستوى الطلاب الفكري تكون معبرة عن آرائهم. ومعالجة لشئونهم الخاصة واداة لابراز قابلياتهم العلمية والادبية

* منعت وزارة الداخلية اربعة كتب من دخول العراق هي :

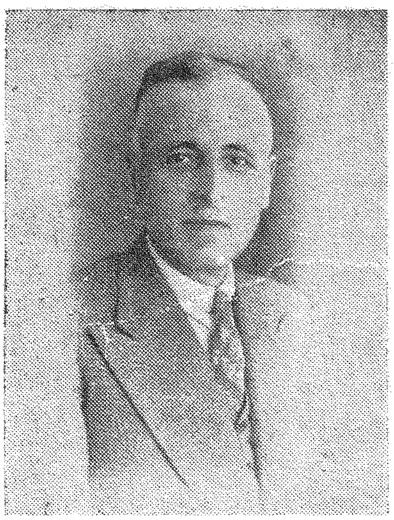
(١) انا عائد من جنوب الجزيرة للسيد احمد محمد زيد السقاف . (٢) استعمار وكفاح للسيد احمد محمد جمال (٣) الامة والمواطن الصالح للدكتور عبد العزيز عبد المجيد (٤) الحق والقانون لفيكتور هوجو وتعريب سعيد ابو الحسن .

سوريا

لمراسل « الآداب » سعد صائب

وفاة الشاعر محمد البزم

توفي في اليوم الثاني عشر من الشهر الماضي في دمشق ، الشاعر محمد البزم عضو المجمع العلمي العربي ، عن عمر يناهز الستين . وقد وقعت وانا اهم بالكتابة عنه على وثيقة كتبها بخطه ، قبل ان يقعده المرض ، وتلم به الادواء ، ارخ فيها باقتضاب ، حياته وكفاحه وادبه . فرأيت ان اوجزها هنا ، لما فيها من حقائق عن نضال هذا الشاعر العصامي الذي تحدى عصره بأسلوبه الشعري القديم ، الذي اختطه لنفسه مقتفياً فيه أثر امريء القيس والمتنبي وغيرهما من فحول الشعراء كما احب امته في لغتها واخلص لها ، وما زال تلامذته والمعجبون به ، يرددون قوله عن النحو العربي « إن نحو العرب فطرة ، ولكن الاعاجم وعلى رأسهم سيبويه عقدوه لينتقموا من العرب » .



الشاعر محمد البزم

ولد محمد البزم اواخر عام ١٣١٠ ﻫ الموافق لسنة ١٨٩٤ م في دمشق وقد قاربت سنه العشرين وهو لا يعلم من القراءة الا بعض سور قصار من القرآن ، ولا يعلم غير اقاصيص وسير كانت تدور سمراً في الدار ليالي الشتاء ، وكتب له حوالي هذه السن ، ان صحب عمه في بعض اسفاره التجارية الى بيروت ، وعند أوبتهما هبطا بلدة الزبداني ، فرأى عمه في يد احد سائحي الدراويش المجلد الثاني من كتاب « المستطرف » للابشيهي ، فشراه بثمن بخس على غير عادة منه باقتناء الكتب ، فكان هذا الكتاب بعد دهر من شرائه ، اول كتاب عرفه ، بل كان باكورة عدته الأدبية ، فقد أكب عليه مطالعة وتكراراً وان لم يكن يفقه مما يقرأ الا قليلا . وبدأ ينظم الابيات القليلة في موضوعات مختلفة ، واول ما نظم من القصائد قصيدة عنوانها «اليوم خمر وغداً امر » ومن ثمة اخذ يرمي الصحف بقصائد ومقطوعات قومية ، فيها من حض العرب على النهوض من اغفاءتهم ، والمطالبة بحقوقهم التي اغتصبها الترك ، ما لم يزل يقرع وتره ، ويجري على نغمته حتى اليوم .

وقد كانت تلك القصائد في مثل تلك الايام العصيبة ، مما تلهب افئدة العرب بالنقمة والغضب ، ولقيت من الحظوة والقبول ما شجعه على متابعة النشر ، ولكن امد ذلك لم يطل كثيراً حتى شهر الترك النفير العام ، فكمت الافواه ، ومشت الخشية الى النفوس ، فكان كلما قرض شيئاً من الشعر فيه ذكر العرب وما يقاسونه من ظلم الترك ، عمد الى امه فدسه اليها ، ورجاها ان تبالغ في إخفائه والحرص عليه . وعندما جلا الترك ، طلب الى والدته ما اجتمع لديها ، ففتشت ولكن تفتيشها ذهب سدى ، وهكذا ضاع ديوان من دواوين الثورة العربية ، نظمه احد شعرائها ومؤرخيها .

ولعل البزم كان من اكثر شعراء العرب المعاصرين ، نقمة على الحياة وشعوراً بآلامها ، فقد لقي وما زال يلقى من الحاح المصائب عليه ، وولع بنات الدهر به ما ولد في نفسه كرهاً للحياة ، ونفرة من اكثر ابنائها ، ولم يتح له نشر آثاره ومؤلفاته من شعر وادب وعربية ، ولقد انفق في درس العربية ما يقارب ثلاثين عاماً ، ففهم اسرارها ، وعرف قواعدها ، وكشف النقاب عن اصحابها ، فوجد فيهم من اصلح فيها وسهلها ليفهمها طلابها ، ومن افسد فيها وعقدها لتكون له وسيلة الى الربح والكسب ، ولا شك ان ابحاثه في العربية هي اهم ما قام به وانفق فيه عمره .

وهذه هي بعض مؤلفاته :

١ – كتاب اللحن : وقد تتبع فيه اللحن في كلام العرب ، ودرس اسبابه وانواعه .

٢ – كتاب النحو الواقع : وهو قواعد بعضها مكتوب ، وبعضها في الصدر لم تتح له كتابته ، ولا شك ان العربية في حاجة قصوى الى هذا الكتاب الذي سيسهل على طلابها ادراكها واستعمالها في الوجه الصحيح السليم .

٣ – الجحيم : وفيه اقامة الدليل على ان اللغة العربية سهلة جميلة في عامة فنونها ، وهي قادرة على السير مع الحياة أنى سارت ، وفيه حملة على الشعوبيين من اللغويين والنحاة الذين عقدوا قواعدها ليخلقوا بعلمها ، ويجعلوه وسيلة الى كسبهم وامتطاء اعناق الناس سوقة وملوكاً .

٤ – الجواب المسكت : وهو مجموعة كبيرة لكل جواب مسكت قالته العرب .

٥ – الديوان : وهو لم ينشر منه حتى اليوم الا جزء يسير في الصحف والمجلات .

وهكذا لم يستطع طبع آثاره ، ولكن عمله في التعليم خلال (٢٥) عاماً في التجهيز ، عمل ظهرت آثاره وتحدث به الناس .

وليس من شك في ان الزمان قد جار على هذا الشاعر ، فكانت حياته مأساة ظل يعانيها ويحس بوطأتها ومرارتها وحده . ولعل الموت

قضية القوميه العربية

– تتمة المنشور على الصفحة ٦ –

ليكون قادراً على تغيير الحياة في المجتمع العربي .

والسؤال الذي يلي هو : اذا كان الانقلاب هو الطريق لحل المشكلة ، فكيف يحقق هذا الانقلاب ؟ ايحققه عامل خارجي كدولة اجنبية او التطور في الفكر العالمي ؟ ايحققه تغيير في النظم السياسية والاجتماعية القائمة كالتحرر من النفوذ الاجنبي او تصفية الاقطاعية ؟ نقطة البدء في الجواب هي : ان قومية المشكلة وعمقها يحتمان ان يكون تحقيق الانقلاب عن طريق ذاتي لا خارجي . وعلى اوجه التخصيص **انه النضال القومي الوطني لا العوامل الخارجية .**

وهنا اراني بحاجة الى مناقشة هذا الرأي لسببين : اولهما انه امر غير مجمع عليه ، وثانيهما انه لا يخلو حتى عند بعض من يقول به من عوامل التقليد واسترضاء الشعب وروح الشعارات . ويمكننا كنقطة للبدء ان نعتبر موضوع اثر التجربة في شخصية الفرد حجر الزاوية في المناقشة . أيهما اعمق في النفس وابقى اثراً : التجربة ام المعرفة الذهنية ؟ المقصود بالتجربة هنا ان يعيش الفرد حدثاً معيناً في الحياة كالفقر والحب فتصبح نفسه كالمادة الاولية التي ينصب عليها مفعول الحدث ، فهي التقاء بين الشخصية ككل وعامل خارجي هو الحدث ، وبهذا الالتقاء يمتزج الاثنان . اما المعرفة الذهنية فهي التقاء اخبار عن شيء بالذهن الذي يسجل الاثر بشكل معرفة . وانا ارى ان الانقلاب في الفرد العربي لا يمكن ان يتم عن طريق عامل خارجي كالنصح والارشاد او تغيير النظم والاشخاص الحاكمين . ان المعاناة الشخصية هي التي تستطيع حفر النفوس وتعميق القيم الجديدة فيها . وبعبارة التخصيص انه الصراع الفعلي مع الفساد الذي يستطيع تحقيق الانقلاب . ويرجع ذلك الى مزيتين ينفرد بهما النضال دون بقية الوسائل هما :

اولا – النضال كتجربة ذاتية في مصارعة الفساد يعرض النفس بكاملها للمشكلة وبذلك يستطيع قياس ابعادها بدقة ، اي فهمها على حقيقتها . لذلك قيل لا يعرف الفقر الا من ذاقه ، ولذلك كان الشعراء الذين جربوا الحب اكثر ابداعاً فيه ممن سمعوا عنه . ومما لا شك فيه ان الفهم العميق للمشكلة شرط اساسي لنجاح العمل القومي وقيادة النهضة في الطريق الصحيح .

ثانياً – والنضال الذي يتطلب امتزاج النفس بالقضية وبذل الجهد في سبيلها ، يخلق التقدير اللازم للمحافظة على ثمرة الجهد . فالحياة العربية السليمة التي يحققها العمل القومي تحتاج لمن يقدر قيمتها ليحافظ عليها من الانحراف ، وليس غير النضال ما يخلق في النفوس هذا التقدير . وقد دلت الحوادث على ان الاصلاحات التي وهبت من فوق او التي تحققت عن طريق مناسبات دولية لم تلبث ان بهت اثرها بعكس ما حقق بالجهد والتعب حيث وجد من يحافظ عليه ويقدره . وكلنا يعرف اننا نقدر ونحافظ على الدرهم الذي نحصل عليه نتيجة لعمل نقوم به اكثر من ذاك الذي نجده في قارعة الطريق ، مع انهما متساويان في القيمة الشرائية .

ولكن ما هي الصفات التي يتحدد بها مفهوم النضال فيصبح هذا وليس ذاك ؟

إن الصفة الاساسية الاولى للنضال هي **الطوعية** . ويعني ذلك انه اختياري تحركه الارادة الحرة لا قوة قاهرة خارجية اي القانون الطبيعي الذي سبق ان تحدثنا عنه . فاذا كانت الماركسية تقدم حركة المادة كتفسير للتطور ، واذا كانت الرأسمالية تعتبر قوانين الطبيعة البشرية محركاً يسير المجتمع ، فنظرية القومية العربية تعتبر ارادة الانسان الحرة القوة المركزية في المجتمع . إن الانسان هو الآمر الناهي في الحياة ، فقد كون المجتمع بمحض ارادته واختياره ، وبنى له الانظمة السياسية والاقتصادية وحوّرها كلما دعت الحاجة . وما قصة الحضارة البشرية الا ازدياد سيطرة الانسان على الطبيعة والشر . وما ظهور الاديان وقيام الثورات والتقدم العلمي إلا مظاهر هذه السيطرة النامية .

والآن لنتحول الى فكرة القانون الطبيعي ، ولنأخذ المذهب الكلاسيكي في الاقتصاد الذي بشر بهذا القانون كمثال للمناقشة . يرى هذا المذهب بان مصير البشرية هو البؤس والشقاء نتيجة لانخفاض مستوى المعيشة المستمر . وفكرتا هذه النظرية هما قانون تزايد السكان وقانون تناقص الغلة . فتحت ثقل ازدياد السكان من جهة وتناقص الغلة من جهة اخرى يهبط مستوى المعيشة . هذا هو المصير الذي لا مفر منه لانه مسير بقانون طبيعي قاهر لا سلطة للانسان عليه . وهذا المذهب لم يستطيع الصمود امام التطور الحضاري الحديث ، فمالتوس قد استهان بقدرة الانسان في السيطرة على النسل في حين اثبتت المجتمعات الغربية قدرة عظيمة على ضبطه وتنظيمه . وكذلك تنطوي نظرية تناقص الغلة على فهم معين للموارد لم يعد صحيحاً بعد هذا التقدم الهائل في اساليب الانتاج ووسائله . لقد اضمحل المفهوم المادي الفيزياوي للموارد امام التقدم العلمي الذي جعل بمقدور الانسان ان يعتصر من كمية ثابتة من الموارد اضعافاً متعددة من الغلة . فالرفاه الاقتصادي اليوم يتوقف على تقدم العلوم التطبيقية في وسائل الانتاج اكثر من كرم الطبيعة ، فالدنمرك البلد الفقير بموارده قد تمكن بواسطة التنظيم العلمي لاقتصادياته من التمتع بمستوى من المعيشة اعلى من بلدان وسط افريقيا التي قد تكون اغنى من الدنمرك في الموارد الخام .

والصفة الثانية للنضال هي **الشمول** . ويعني ذلك أنه موجه ضد الواقع الفاسد كله لا ضد جزء منه ، وهو يهدف لتحقيق حياة جديدة للعرب لا اصلاح جزئي . وصفة الشمول هذه ليست مطلقة بل يفرضها الوضع الخاص للامة العربية ، اي طبيعة المشكلة التي وصفناها بالشمول والعمق . **لذلك لا يصح**

ان يقتصر النضال على الجانب السياسي مثلاً ، اذ للأدب والفن دور فعال في شق طريق النهضة . ولكن ذلك يتطلب التخلص من الاصطناع بارجاع الادب والفن الى مجرى الحياة بعد تلك الفترة الطويلة من الافتراق التي رافقت انحدار المجتمع العربي حيث شاعت الاحاجي والالغاز وادب (الفوح والتوح) قديماً، وتقليد ادب الغرب واجواء الخيال والبخور حديثاً . لا يستطيع الادب ان يخدم النهضة في هذه المرحلة – اي ان يكون أصيلاً – إلا اذا رجع الى المجتمع وبقي فيه.

والصفة الثالثة للنضال الذي قلنا عنه بانه حرّ وشامل هي انه عملي . فبهذه الخاصية تحل معضلة طالما واجهت العاملين في الحقل القومي ، هي أن تأخر افراد الشعب في شتى النواحي : الاقتصادية والثقافية ، يقف حجر عثرة في سبيل مساهمتهم في النضال . ففي وضع متأخر كوضعنا يعم به الجهل والفقر والمرض ، يصعب على الحركة التي تتصدى لتغيير الحياة في المجتمع العربي ترسيخ مبادئها في صفوف الشعب عن الطريق النظري واستدرار التضحية وبذل الجهود بواسطة الدعوة لنصرة الحق والخير . إن ايصال مبادىء الانقلاب الى الشعب امر قد يتطلب الوقت الطويل الذي لا تسمح به الظروف الحرجة الحالية . والحل الذي تقدمه نظرية القومية العربية لهذه المعضلة هو الاتجاه العملي في النضال . ويضم هذا التعبير في محتواه مسألتين هما :

اولاً – ان يهدف النضال لتحقيق برنامج عملي يفصل معالم المجتمع العربي الجديد ليرسم في ذهن الشعب صورة مادية واضحة للمستقبل ، الامر الذي يسهل فهم المبادىء النظرية ويبعث على الاطمئنان . ويساعد ذلك على فهم النظرية عن طريق فهم ما ينتج عنها من تشريع يوضح للفرد مقدماً حقوقه وواجباته في المجتمع الجديد . فنظام استغلال الارض والضرائب وشؤون التجارة والصناعة والعمال والتعليم والصحة والحريات السياسية ونظام الحكم والقضاء والسياسة الخارجية وامور الدين والثقافة والمصالح العامة أمور يهم الفرد ان يعرف ماذا سيحدث لها في العهد الجديد قبل ان ينضم لصفوف الداعين له . وارى ان الغموض في هذه الناحية من قبل بعض التكتلات السياسية يرجع لواحد من امرين : اما الجهل بأهمية ذلك في إيصال النضال الى الشعب واما عدم الرغبة بالارتباط بوعد صريح للشعب . واحسن مثل على الغموض المتناهي ما ورد في مبادىء حزب معروف في سوريا ولبنان بخصوص توزيع الثروة حيث يقول زعيم الحزب عن الثروة في المجتمع الجديد بأنها : « تقسم قسمة الاخوة القومية الاجتماعية . » فقضية معقدة كتوزيع الثروة تشغل بال العالم وتوضع لحلها النظريات لا يقال عنها غير هذه العبارة العاطفية .

ثانياً – وفضلاً عن تقديم صورة مادية واضحة للمستقبل ، يجب ان يتخذ النضال شكل حملات شعبية تنصب على مطاليب مباشرة محسوسة تحمل في طياتها روح المبادىء النظرية التي يراد تحقيقها في المستقبل . فالمساهمة الشعبية في كل قطر بشؤون الاقطار الاخرى ولو بنطاق محدود اكثر مفعولاً في ترسيخ مبدأ الوحدة العربية من التذكير بالروابط القومية . ومن الامثلة على ذلك المشاركة القومية في الدفاع عن فلسطين والمغرب . والحملات الشعبية لتأميم الشركات الكبرى والمصالح العامة وتوزيع الاراضي وتحسين شروط العمل وتدخل الحكومة في الاسعار أسهل في غرس روح الاشتراكية في المجتمع من التفصيل النظري لمبادئها وحسناتها . ومن الامثلة على ذلك حملة تأميم شركة الريجي في سوريا . بهذا النضال العملي الملموس الاثر يمكن قيادة الشعب الى ان يكتشف بنفسه بان قضية النهضة قضية حق وخير فيندفع بها ويصب لتحقيقها كل جهوده . هذا الاسلوب العملي في ترسيخ المبادىء في النفوس وايصال موجة النضال لخنايا المجتمع لا يشترط ان يكون الشعب متفقاً متفرغاً ، ولا يتطلب ان يفهم الكل او الاكثرية قضية النهضة فلسفياً . وبذلك تحل المعضلة.

٥

ناقشنا فيما فات من البحث ملاحظات ثلاثاً في نظرية القومية العربية هي : المشكلة والحل والاسلوب . اما الحلقة الرابعة والاخيرة فتتعلق بهذا السؤال : ماذا تريد القومية العربية ان تحقق ؟ أتريد القومية العربية ان تحقق الوحدة العربية ؟ أغايتها تحرير البلاد العربية من الغزو والاستعمار الاجنبي ؟ اهدفها رفع مستوى المعيشة ؟ انني لا ارى بعض هذا او كله غاية بالرغم من كونها مطالب لا شك في ضرورة تحقيقها . انها ليست غاية القومية العربية لانها عارضة تزول بالتحقيق ونسبية تتغير مثاليتها بتغير الاحوال .

الحق هو غاية القومية العربية . وانا اعتمد بتقرير هذا المبدأ على اعتبار ان في الانسان نزعة أصيلة للحق تتمثل بما تقدمه الامة من حضارات تخدم البشرية . فالامة العربية قد تمثل نزوعها للحق بسلسلة حضارات ابتدأت منذ فجر التاريخ تحسنت بها طرق عيش الانسان ورفعت مستواه الفكري والاجتماعي وبأديان طهرت النفس البشرية في فترات مختلفة من ادران الشر وأشاعت الاخوة والعدل والفضيلة بين الناس هذه الروح المستيقظة اليوم في اعماق الامة العربية هي التي

يجب ان تقود النهضة ، فمبدأ الحق هو الثابت المطلق الذي يجب ان يكون غاية للقومية العربية اليوم كما كان في التاريخ . **ويوجب ذلك ان تؤدي النهضة العربية اليوم رسالتها عن طريق خلق حضارة عربية مبدأها الاعلى الحق ، والشكل العملي لمبدأ الحق هو احترام الانسان.** ان الحضارة العربية الجديدة مدعوة لتكون منسجمة مع غايتها ، ان تعتبر الانسان أغلى ما في الكون ، تضحي في سبيله كل الاعتبارات وتسخر لخدمته كل الطبيعة ، سعادته مقياس صلاح الانظمة ورضاه مصدر الشرعية لكل سلطة . ان في الانسان جوهراً يميزه عن كل الكائنات والجمادات هو اخلاقيته الواعية التي ترفعه فوق كل ما يحيط به ، فهو المالك الوحيد على الارض للروح والعقل . لذلك فالانسان اكثر من كائن فسيولوجي يولد ويعيش ويتكاثر ويموت ، واكثر من وحدة اقتصادية تستهلك وقوداً لتحول المواد الخام لبضائع جاهزة . وباستعمالنا هذا المنطق نصل بالضرورة لقرارات مهمة بشأن نوع المجتمع العربي الجديد من جهة وعلاقته بالمجتمعات البشرية من جهة أخرى . فبخصوص تنظيم المجتمع العربي الجديد يقود مبدأ احترام الانسان الى ما يلي :

اولا — اعتبار الشعب مصدراً للسلطة ومالكاً للسيادة . فالجهاز السياسي يجب ان يكون ديمقراطياً لا غاية له غير عكس ارادة الشعب بشكل منظم . ولدعم الحكم الشعبي يجب اطلاق الحريات المدنية وحرية الفكر والفن وحمايتها من التشويه والاعتداء ، وتشجيع المنظمات الاجتماعية والثقافية والمهنية ليدرب الشعب فيها على الحكم الذاتي . ولحفظ حقوق الفرد ولمنع الجزء من غزو سيادة الكل يجب تحقيق العدل عن طريق تشريع عادل يطبقه جهاز نزيه حر .

ثانياً — ولحفظ كرامة الفرد ولتحقيق كل مابه من امكانيات يحتاج **الى نظام اقتصادي سليم** يمنع استثمار الانسان فيزيل قيود الحاجة ويمنح الفرد حق العيش الكريم لا لشيء الا لانه انسان ، فالعاجز يأكل رغم انه لا ينتج . انه نظام يعترف بحق الجميع بمستوى من الرفاه المادي يليق بالانسان المتحضر ، وما فوق ذلك يوزع على اساس الكفاءة لا الطبقة ولا العائلة ولا الصدف العابرة . في هذا النظام يجب ان توضع كرامة الانسان فوق كل الاعتبارات الاخرى كالربح وغيرها ، فلا كتل بشرية تتهرأ أجسامها في المعامل لزيادة الانتاج ولا نساء تبيع اللذة لتعيش ، ولا إجرام يشوه وجه الحياة للحصول على ضروريات العيش.

ثالثاً — واخيراً هناك **التسامح الذي يجب ان يسود المجتمع العربي الجديد** . فالتسامح الديني والقومي عريق في النهضة العربية بظل الاسلام ، فقد تعاون العرب مع غير العرب والمسلمون مع غير المسلمين في تنظيم ادارة الدولة ونقل تراث العالم للعربية ، وقد اعترف الاسلام لاصحاب الاديان السماوية بحرية العبادة وحفظ لهم حقوقهم . والمجتمع العربي وريث تلك الحضارة السمحة جدير بنهضته الجديدة بان يعطي للقومية العربية سمواً لم تعرفه قوميات الغرب المتعصبة . لذلك يجب ان تسود المساواة في الحقوق والواجبات بين الجميع بغض النظر عن الدين والعنصر والمذهب ، وتغرس في الشعب روح المحبة والتعاون مع الاقليات الدينية والقومية والانفتاح عليها عن طريق التعليم التربية وفصل الدين عن الدولة .

وفي العلاقات الخارجية يقود هذا المبدأ الاخلاقي الى احترام الامم الاخرى والتعاون معها للقضاء على الاستغلال والاستعمار ، والمساهمة الفعلية لاقرار السلام في العالم وانتاج حضارة تقدم لنفع البشرية .

هكذا ينتفي القول بأن القومية الاشتراكية الديمقراطية ليست الا مزيجاً من مذاهب مختلفة مستقلة ، لان الاشتراكية والحرية فيض من ينبوع القومية نفسه اذا ما فهمت على هذا الاساس الاخلاقي، اي اذا كانت غايتها الحق .

سعدون حمادي
جامعة ويسكانسن (الولايات المتحدة)

الذي اراحه من مأساته ، قد روع تلاميذه الذين احبوه اعمق الحب ، فتنادوا الى احياء ذكراه في حفلة تأبينية تقام له، وفي طبع مؤلفاته التي ما زالت مخطوطة . ولا عجب فلقد كان محمد البزم – كما قال عنه الاديب نجاة قصاب حسن – اكثر الناس امتلاء بشعور الحب والاعتزاز اللغة الضاد وأقدرهم على نقل هذا الحب ، وهذا الاعتزاز الى قلب الناشئة التي اسعدها حظها فتعلمت على يديه !...

احتدام معركة .. الوعي القومي

لم تزل المعركة حول الوعي القومي مستمرة بين ادبائنا ومفكرينا ، منذ ان حرضتهم عليها مجلة « الرأي » الاسبوعية في سؤالها : « هل ترون ان الوعي القومي في تزايد او في تناقص ؟.. وما هي العوامل التي يمكن بها زيادة هذا الوعي ؟ » وقد برز في هذا الشهر مناضلون جدد ، هم الدكتور امجد الطرابلسي ، والاستاذان سليمان موسى وعيسى الناعوري ، عبروا جميعهم ، عن المعادل الفكري لمعنى الوعي القومي ، وترجموا عن اتجاهاتهم الشعورية التي تنسق وهذا الوعي .

وقد استهل الدكتور امجد الطرابلسي جوابه بقوله « ان الوعي القومي – اي الفهم الشعوري العميق للقضية العربية – هو في ازدياد مستمر لا شك في ذلك . » ولكنه يشير في مكان آخر من جوابه ، الى ان تزايد هذا الوعي « لا يعني انه بلغ الحد الذي يمكننا ان نطمئن اليه من اجل تركيز اوضاعنا القومية » عازياً الاسباب الى اصطراع حكوماتنا وانقسامها على نفسها وتباينها في سلوكها الدولي والقومي ، ثم الى حداثة نهضتنا القومية ، والى المؤثرات الاجنبية ، والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي يضج بها عصرنا . ويختم جوابه اخيرا مؤكدا قناعته بان وعينا القومي في ازدياد واتساع ، رغم العقبات التي تحاول تحويل مجراه .

اما الاستاذ سليمان موسى فقد قارن بين قلة عدد وعدة الذين كانوا يعملون في الفكرة العربية العامة في اوائل هذا القرن ، وبين هؤلاء الذين يعملون لهذه الفكرة اليوم ، وكثرة عددهم ووفرة عدتهم ، وخلص الى يقين باننا في « تطور مستمر الى الامام ، وان تطورنا هذا سائر في وجهته الطبيعية ، متساوق مع تطور غالبية شعوب العالم » .

ثم يختم جوابه بذكر العوامل التي يمكن بها زيادة الوعي ، ويقصرها على « نشر التعليم وتعميمه بين جميع افراد الامة » ..

اما الاستاذ عيسى الناعوري فقد نوه بانه اجاب على هذا السؤال في محاضرة القاها في المنتدي العربي في عمان ، في شهر اذار من هذا العام ، وموضوعها « رسالتنا في توجيه الوعي الشعبي » ، وقد كان ، بالاجمال ثائراً ناقماً على واقعنا ، حتى ليكاد يفضل حالنا قبل اربعين عاماً ، على حالنا اليوم ، ويختم جوابه بنفي الوعي القومي « لان ما ندعوه وعياً ليس اكثر من ارتجالات عاطفية وفوضى لا ضابط لها » .

اما كاتب هذه السطور فبعد ان قسم « الوعي » الى ذاتي وقومي ، وعرفها ، محاولاً فهم القومية على ضوئها قال : « اننا من المؤمنين بان الشعور القومي عندنا قد غلب الوعي القومي وبزه وما نجده من نقص في وعينا مبعثه طغيان هذا الشعور علينا ، بحيث ان اوزاننا وقيمنا ومقومات وجودنا ، ما برحت تعالج وتدرس بعواطفنا لا بوجداننا . واننا ما زلنا نلقى الصعوبات في حلها ، والخيبة احياناً ، ولعل لهذه الحال اسباباً تتعلق بتاريخ نضالنا القومي الحديث ، ويقظتنا الثقافية القومية » .

وبعد ان يأخذ على الدكتور شكري فيصل نفيه حقيقة وعينا ، وتطرقه نحو الاقلال من شأنه ، واسرافه في الاشاحة عنه ؛ بالرغم من وجود دلائل وامارات تدل عليه ، وان كانت في طور النمو والتكامل ، يقره على رأيه الذي يقول فيه « .. انما الوعي الحق ، هذا الوعي الفاعل العامل المؤثر الذي يفهم ويدرك وينفعل ، وينجز لوناً عاطفياً ، ثم تتوهج من حوله شعلة الارادة ، لتنطلق من بعد ذلك عملاً منظماً ، منتهياً الى غاية معروفة » لان الدكتور فيصل قد وعى بوجدانه ان غلبة الشعور القومي علينا ، لم تنته بنا الى بلورة الوعي الفاعل العامل فينا ، بل كان هذا الشعور نفسه مجرد حافز بطيء ، لم يبلغ بعد الغاية التي من اجله نشأ ؛ ولم نقدر على استغلاله وصياغته : « وعياً تتوهج من حوله شعلة الارادة ؛ لتنطلق بعد ذلك عملاً منظماً » ثم يذكر بعض ما يراه نافعاً مفيداً من عوامل زيادة الوعي وهي :

١ – مفكرون يجسدون في ذواتهم وعقولهم ، رغبات امتهم ويعبرون عنها تعبيراً صادقاً .

٢ – انسجام المناهج الدراسية مع حاجات الامة ، وامانيها القومية .

٣ – صقل الاحزاب للحركات الشعبية ، وضبطها وتوجيهها توجيهاً قوميا بناء ، مقدمة مصلحة الامة ، على مصلحة الحزب ومصالح افراده .

٤ – وعي مؤسساتنا الاجتماعية ذاتها ، وادراكها ان هدفها هو اصلاح المجتمع ، وان غايتها هي محاربة امراضه وعلله الاجتماعية التي يشكو منها .

٥ – ايجاد صحافة لها منهاج موجه ، ومبدأ معين ، يشرف على ادارتها قوميون مثقفون ، يستشعرون مسؤوليتهم .

٦ – حكومات واعية ، لا تحد من حرية الامة ، ومن آمالها ، ومن رغباتها في حياة حرة جديدة ! ..

فهـرست

العدد الحادي عشر – تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ – السنة الثالثة

بيانات ادارية : تدفع قيمة الاشتراك مقدماً – قيمة الاشتراك : في سورية ولبنان ١٢ ليرة ؛ في الخارج : جنيهان استرلينيان او ٥ دولارات ، في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات ؛ في الارجنتين مئة وخمسون ريالاً – توجه المراسلات الى العنوان التالي : مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ١٠٨٥